

١٧١

قيامةُ أرطغرل

بين الدراما وبناء القيم

عبد القادر أمين



دار البشير

قيامة ارطغرل

بين الدراما.. وبناء القيم

عبد القادر أمين

تقديم : الدكتور/ أحمد الشرقاوي

****

الطبعة الأولى: ١٤٤١ هـ / ٢٠٢٠ م

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: ٢٧٢٢٦ / ٢٠١٩



****

الإهداء

إلى:

*** زمنِ الفنّ الجميل...**

*** المشاهدِ المعاصرِ الذي أثبتَ أنّ الدماءَ مازالتْ تجري في وريدِ تذوّقه، ووعْيه.**

*** الحلمِ المُرابطِ على حدودِ الرّوح... لا تسْتَسلمْ**

****

قيامة أرطغرل..
إحياء قصّة، أم قصّة الإحياء؟

تقديم: الدكتور/ أحمد الشرقاوي

التّاريخُ العثمانيّ لا يزال يحتاجُ إلى مَن يكشف عن كنوزه، ويحتاج - أيضًا - إلى مَن يكتشف هذه الكنوز، عالمٌ من المتعة والإثارة، ومعينٌ لا ينضبُ من الدّروس والأنْماط التي تتكرّر في كلّ حقبة، لدولةٍ عابرة للتقسيمات التاريخية؛ حيث جمعتْ بين التّاريخِ الإسلامي والوسيطِ والحديث، ودولة عابرة للقارات، حيث اتّسعتْ رقعتُها على قاراتِ العالم القديم المعروفة (أفريقيا، آسيا، أوروبا) قبلَ اكتشاف الأمريكتيْن، ثمّ كانَ لها فضلُ سبقٍ اكتشاف أمريكا قبل كولمبس بزمنٍ طويل.

وهي دولةٌ عابرةٌ للثّقافات والحضارات، حيث جمعتْ تحتَ لوائها مزيجًا لم تجمعْه دولةٌ قبلَها من حيث عدد الأقلّيات الدّينية والعرقيّة والمذهبيّة.

والسّؤال الذي لا يزالُ يحتاجُ إلى إجاباتٍ لا تنتهي، هو: **كيفيّة نشوءِ وارتقاء هذه الدّولة العظْمى من مجرّد عشائرَ مُهاجرة، وفي وقتٍ قياسي؟!**

ورغمَ أنّ كُتبَ التّاريخ لا تسعفُنا إلّا بأوراق قليلةٍ عن حياة أرطغرل، إلّا أنّ هذا العملَ الدّرامي - المُعْنَى به هنا - لا يقدّم لنا فقط *قصة حياة أرطغرل*؛ إنّما هو يقدّم لنا - بشكل أوسع - *قصة الحياة في عهد أرطغرل*.

الأتراكُ لديهم شغفٌ كبير بالقصصِ وحكاياتِ الماضي وتاريخ الأجداد، بل هُم يقدّسون الأجداد، ومن العاداتِ المتّبعة في الرّيف الأناضولي في ليالي الشتاء الطّويلة التي تقلّ فيها أعمالُ الحقول؛ أنْ يجتمع أهلُ القرية في أحد البيوتات لينصتوا إلى حكاياتِ الماضي يرويها أبٌ أو جدّ لينقل للأجيال تاريخًا عريقًا وعاداتٍ أصيلةً، وتقاليدَ راسخة، ولينفث في روْع الأجيال القادمة حماسةَ البطولات والطّموحَ إلى المعالي.

صارتْ تلك الجلسات المسائيّة مصدرًا شعبيًّا للتّاريخ الشفهي، وتعويضًا مؤقّتًا عن تاريخٍ تأخّرت كتابتُه إلى زمنِ الاستقرار، وإن لم تنتَهِ تلك الجلسات حتّى بعد عصرِ الطّباعة.

وقدْ لا تحتاج - بعدَ مشاهدة المسلسل - إلى زيارةِ الكثير من متاحف تركيا التي تعرضُ آثارَ الدّولة العثمانية؛ فقد كان ذلك العملُ الدرامي واقعًا حيًّا لحياة النّاس في ملابسهم ومفْروشاتهم وأسْواقهم وأسلحتهم وخيامهم وطعامِهم، وكافّة أدواتِهم اليوميّة، إذ نقلها صُنّاع العملِ من المتاحف والكتب والمخطوطات والمُنَمْنمات إلى شاشة الدّراما، كذلك الحياة اليومية بكلّ تفاصيلها وشخصياتها وأنماطِها وعاداتها وتقاليدها، وقيَمِها التي تمثّل البشرَ

في كافّة حالاتهم بين الترقّي والتدنّي، وتصوّر شخصياتِهم وأدوارَهم وسلوكياتهم ومواقفهم وأخلاقهم.

قد يقدّم ذلك إجابةً عن التّساؤل المطروح مسْبقًا، ويزيل بعض العجب عن سرّ التّنامي السريع جدًّا للدّولة العثمانية، لكنّه من ناحية أخرى ينقل صورةً مغايرة للتّاريخ بدأت تجدُ مكانَها ومكانتها على السّاحة؛ فالتاريخ أكثر اتساعًا وعمقًا وشموليّة مِن أن يقتصر على ذكر حياةِ القادة والملوك، ورجال السياسة، أو ألّا تتّسع صفحاته إلّا للمعارك والحروب، وقيام الدّول وانهيارها، أو أن يغضّ المؤرّخون أبصارَهم عن أيّ عنصر ساهم في نسيج الأحداث.

بعد محاولاتِ تخليص التّاريخ من ربْقَة السياسة، والإطلال به على ساحة جديدة هي ميدان التّاريخ الاجتماعي؛ انداحت دائرتُه اتساعًا مضطردًا لتضمّ إليه - وإليها - كلّ عنصرٍ فاعل في المجتمع - إيجابًا وسلبًا - أسهمت كفّه في دفع عربةِ التّاريخ؛ سواءً في صعودها المُنْحدر أو تهاويها من قمّته.

وقد نجحَ الكثيرون من المؤرّخين المتمرّدين - على السّكنى في القصر الملكي والاقتصار على كتابة الوقائع واليوميّات - في أنْ يجدوا عالمًا غير متناهٍ ليكتبوا عنه خارجَ أسوار هذا القصر.

فظهرتْ مُصطلحاتٌ جديدة، ومصادرُ جديدة، وميادين جديدة؛ جعلت من كتب التّاريخ سجلًّا للبشرية في كلّ حركاتها وسكناتها، ورقيّها وتدنّيها، ترسم ملامحَ قسماتها التي تُخْفيها خلفَ القناع، والتي تتباينُ ما بين الملائكيّة والشّيطانيّة، لكنّها تعود - دومًا - إلى أصلها الآدميّ الفريد.

أمّا المُصطلحات والمَيادين الجديدة التي ظهرت، والتي حاول صُنَّاع العمل الدّرامي هذا أنْ يستفيدوا من مُنجزاتها ونظريّاتها، ما يسمّونه *التاريخ من أسفل* ذلك المصطلح الذي ظهر على استحياء في الملحق الأدبي لجريدة التايمز، بمقال لإدوارد ثومبسون، عنوانه: * History from Below *، وما لبث أن أخذ طريقَه إلى التّنظير والتشعّب، والأهمّ من ذلك إلى التنفيذ الواقعي في التناول والطرح وكتابة التاريخ.

ولنقرّب من مفْهوم *التّاريخ من أسفل* الذي نعنيه كما فهمَه مؤلّفُه، نورد المثالَ التالي:

في ١٨ يونيو ١٨١٥م، وقعت معركة *واترلو* وانْجلتِ النتائجُ عن هزيمة الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت بعدما تغلّبت عليه القوات البريطانية التي قادَها دوق ويللنجتون، وحسمتِ المعركةُ مصيرَ أوروبا في تلك الآونة.

.... هكذا كتبتِ المصادر التاريخية.

لكنّ جنديًّا من الفرقة ٥١ مشاة البريطانية يُدعى *وليم هويلر* كتب عدّة خطاباتٍ إلى زوجته في الوطن، واسترسل واصفًا المعركة من جانبها

القاسي، ومشاهدِها المرعبة، ومعاناة الجنود في قبضة الموت، و....

ورغم ما كتبتْهُ المصادرُ بأنّ دوق ويللنجتون هو صاحبُ نصر واترلو الشّهير؛ إلّا أنّ وليم هوبر وآلافًا من زملائه هُمُ الأصحاب الحقيقيون لهذا النصر.

هذا هو التّاريخ من أسفل، محاولة لاستكشاف وجهات نظرٍ جديدة عن الماضي توفّرها مصادرُ جديدة ونادرةٌ ومُهْملة مثل مراسلاتِ هذا الجندي؛ لنرى التّاريخ من وجهة نظر الجنود؛ لا مِن وجهة نظر القادة، وفي المسلسل نرى التّاريخ من وجهة نظر: ابن عربي (الشّيخ)، أرطغرل (الزعيم)، بامسي وتورغوت ودوغان (العسكري)، سعد الدين كوبيك (العقل المدبّر والمدير لمفاصل الدولة)، ديلي دمير (الصانع)، تورالي وغوندوز وعثمان (الطّفل)، حليمة وهيلينا (المرأة العاشقة)،... وأخيرًا - وليس آخرًا - الزّوجة السند.. هايماه (الأمّ والزعيم والحكيم، والرّحم الذي يبرّ الكلّ، والحضن الذي يتّسع للجميع.

كذلك هناك *التّاريخ الشفاهي*، والذي هو المصدرُ الأساسي والرئيسُ لذلك المسلسل.

ولكي تتّضح أكثرَ صورةُ التّاريخ الشفاهي/ الشفوي/ الشفهي؛ يقول المختصّون إنّ كلّ التّواريخ في العالم بما فيها أوروبا، ومنذ هيرودوت وحتّى ميشليه مرورًا بفولتير؛ كانت في أساسِها أو أكثرها شفويّة، ثمّ كُتبت، ولم يتأسّس التّاريخ المكتوب بوصفه علمًا أو حقلًا معرفيًّا أكاديميًّا إلّا في غضون القرن التّاسع عشر.

وبإمكانِنا أنْ نقول إنّ نشأة علم التّاريخ عند العرب بدأت شفويّةً عبر الرّواية المتناقلة والإسنادِ المتواتر أو المنقطع .وحتّى في مرحلة التدوين والكتابة التّاريخية المتنوّعة الأبعاد والحقول والاهتمامات، ظلّت الشهادة الشفهيّة مصدرًا مهمًّا وأساسيًّا للخبر التاريخي، منذ اليعقوبي وحتّى الجبرتي، مرورًا بكتّاب الخطط والرّحلات والجغرافيا، ولا سيّما عند كبيرهم المسعودي الذي يعدّه البعض *إثنولوجيًّا* مبكّرًا، جمع معلوماتِه وأخبارَه عن طريق الاستماع والملاحظة والمحاورة والمقابلة.

وبعد الحربِ العالمية الثانية، جرى تجميعُ الشّهادات الشفهية ممّن عاصروا الحرَب بمعاركها ومآسيها ومهازلها وعذاباتها وقصصها وبطولاتها في كلٍّ مِن أوروبا والولايات المتحدة. واتّجهت هذه الشهادات إمّا نحو الأرشفة والتوثيق ليستخدمها المؤرّخون المحترفون لاحقًا، أو نحو النّشر المباشر كمذكّرات وروايات وقصص وأفلام.

فقد اخترق *سحر* التّاريخ الشفهي أبوابَ نظام *علم التاريخ* وقواعده، فاعترفَ به مصدرًا من مصادر التاريخ مكمّلًا لأوجه أخرى من التاريخ المعاصر.

بهذا تكوَّن نوعٌ من علمٍ جديد أطلق عليه البعض مصطلح الإثنو - تاريخ-Ethno histoire إذ يتكامل العلَمان) التاريخ والإثنولوجيا(في دراسة الجماعات والهويّات والذاكرة، وأداتهما المعرفية هي التّاريخ الشفهي بوصفه أفضل معبّر عن العواطف، والأفكار، والمواقف.

وهذا ما فعلَه ذلك المسلسل؛ لم يقدّم بطلًا مطلقًا يقوم بكلّ شيء، ويصنع المُعجزات وحدَه، وحوله تدور رحى الأحداثِ ومقاديرُ الدّنيا؛ إنّما قدّم حياة كاملة للعصر بكلّ شخصياته، من المَلِك إلى الراعي، ومن الخائنِ إلى الولي، مرورًا بكلّ عناصر المجتمع في لُحْمته وسداه، لكي تقدّم في النهاية نسيجًا مجتمعيًّا بكلّ خاماته وألوانه ولينِه وخشونته، وصدقه وخيانته، ومصيره المحتوم.

لكنّ هذه الشخصيات كلّها لم تكتفِ بالتّاريخ من أسفل، فصار مَن في الأسفل هو الصّانعَ والصّائغ لتاريخٍ من التحدّي والمواجهة والتطور والثبات، ونموذجًا للسُرَى من الثَرى إلى الثُرَيَّا، **لا ليقول أبناؤه وأحفاده قولةَ الفرزدق لجرير:**

***أُولَئِكَ آبَائي، فَجِئْني بمِثْلِهِمْ**

إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المَجَامِعُ

ولكنْ ليقدّم أنموذجًا فريدًا للأجيال الجديدة كلّها:

فتشبّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم

إنّ التّشبّه بالرجال فلاحُ*

إنّها القوةُ الناعمة التي تصنعها الدّراما لتسيطر بها على أمزجة ومشاعر الأجيال، وتصنع لهم نموذجًا يستحقّ التّوجه إليه والتأسّي به، والانبهار بتفاصيله، والتّوْق إلى تجديده وجعله مستقبلًا، بعد التوحّد مع ذلكم الماضي المجيد هروبًا من الواقع المأزوم.

ويأتي هنا الدّور التّحليلي لصاحب الكتاب الأستاذ/ عبد القادر أمين، صاحبِ النّظرة الفاحصة، والشّاعر الرقيق، والأديب الأريب، والمربّي الواعي المُستنير، والنّاقد الفاحص للتّفاصيل الدّقيقة في حنايا العمل وزواياه الكثيرة، وأحداثه المتلاحقة اللاهثة كلهْثِ الأرض في دورانها للّحاق بدورها في الإشراق والإظلام حول الشمس وحركة الحياة ودورة التاريخ.

إذْ قامَ بدورٍ شديدِ الصّعوبة والخطورة والدقّة في آنٍ واحد؛ فهو الشغوفُ بالأحداث، المستمتعُ بها متعةَ الفنّان، وهو الناظرُ إليها بعين الناقدِ الأدبي، وهو المُتابعُ لها بنظرةِ التّربوي؛ وهو - أيضًا - الحالمُ بمستقبل مغايرٍ للواقع، ومغرقٌ في الحلم بدنيا البُطولات والإنجازات والمواجهات مِن صُنْع رجالٍ لم يَجُدِ الزمانُ بمثلهم. وتراه - عبد القادر أمين - مردّدًا مقولة عبد الرحمن الكواكبي: *ما بال الزّمان يضنّ علينا برجال ينبّهون الناس، ويرفعون الالتباس، ويفكّرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكّون حتى ينالوا ما يقصدون*.

ولكنّه هنا ليس حلمَه وحده، إنّما هو يعبّر بكتابه هذا عن رغبةٍ عارمة وصرخةٍ مكتومة لجماهير عريضةٍ في كلّ بقعةٍ من العالم العربي والإسلامي تتوقُ شوقًا إلى ماضٍ أثيل ومجدٍ أصيل، ويزيد من رغبتها وشوقِها واقعٌ مُخزٍ ومستقبلٌ مظلمٌ، وسنواتٌ عجاف تطاولتْ سبعةً بعد سبعين؛ ولا يوسفُ لها.

لكنّ بارقة الأمل هنا - بلْ قلْ بوارقه - كثيرةٌ متعدّدة، يفصّلها لنا الناقدُ الواعي والمانحُ للبُشْريات في تحليله ورؤيته؛ فيعود بنا إلى الدّور الرّائد للفنّ في قيادة الجماهير وإيقاظِ مارِدِ الجماهير وإلهابِ حماسته، ومن قبل ذلك دور التاريخ في مصدريّته لكلّ حركةِ إصلاح وتغييرٍ ونهضة، مع الإشارة إلى مصادر فاعلةٍ لا تقلّ أهميّة عن دور القائدِ في التغيير، كما أشار الكتاب في مباحثه حول:

التّربية - الأمومة - الأبوة - البنوة - الزوجة - الزوج....

ثمّ مباحثه القيميّة حول موضوعات:

التّقاليد والأعراف - الأخوة - القيادة - الجندية - الثقة - العزة - الرجولة المبكرة - الثبات على الحق...

وعن أشياءَ ربّما نسيناها في جفافِ حياتنا الصحراوية، **مثل:**

الحكمة - العشق - الحالة الروحانية - طلب الشهادة - أهمية الدعاء..

ثمّ تراه يشيرُ من طرفٍ - ليس بخفيّ ولا مُبْهم - إلى أهمية الفنّ وأثره التربوي، وجدليّة العلاقة الفاعلة المبدعة بين الفنّ والتاريخ.

كما يحملُ صوتَ ملايين المتابعين والمحبّين لأرطغرل وكلّ شخصيات حكايته في ندائها وتوسّلها باسْم الأمّة كلّها لأنْ يمنحها القدرُ قائدًا وزعيمًا من بني جلدتها؛ يضيء شمعةً في آخر النّفق، ثمّ يأتي بقوّة وحبّ وأملٍ ويقين ليقودها نحو ذلك الضوءِ والأمل.

ذلك النّموذج الإنساني ليس أسطوريًّا من دنيا الدراما، وليس *سوبرمان* من خيال السيّد الأمريكي، وليس مؤدْلَجًا ولا مقوْلَبًا ولا سابقَ التّجهيز والإعداد من مُحترفي تضليلِ الجماهير وصائغي أوْهام العقول، إنّما هو حقيقة واقعة وأنموذجٌ حيّ وتجربة مُستطاعَة، ونهضة يمكن تكرارُها.

ويْكأنّ الكتاب يقول بالتصريح ما قاله المسلسلُ بالتلميح، ويشترك الناقدُ هنا مع المؤلف في تبسيط المفاهيم وتوصيلها، كما ينقل بلغتِه المكتوبة إلى وعي الجماهير ما صَوَّره المسلسل من دروس وأنماط.

شكرًا جزيلًا أخي العزيز عبد القادر أمين؛ فقدْ جعلتنا جميعًا نشاهدُ المسلسل برؤيةٍ أشمل، ومفاهيمَ أعمق، وفتحت لنا آفاقًا أوسع، وملّكتنا أدواتٍ للمتابعة والنّقد والفهم أكثرَ دقّة وحساسية وتأثيرًا.

الدكتور/ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

***

مقدّمة المؤلّف

يعتبرُ مسلسل قيامة أرطغرل ظاهرةً تستحقّ البحثَ والمُتابعة، فقد تمّ تصنيفُه كأكثر الأعْمالِ الدّراميّة مشاهدةً في التّاريخ؛ حيث تخطّى عددُ مشاهديه الثلاثةَ مليارَات إنسانٍ عبْرَ رحلةِ ١٥٠ حلقةً في خمس سنوات، وهنا نشير أنّ هناك حالةً من الإبْهار والشّغف تملّكتْ مشاهدي المسلسل حوْلَ العالم، وبديهيّ أنّ هذا اللّونَ من الدّراما التّاريخية يحقّقُ نوعًا من الانْسجام يتخطّى حدودَ ما يمكن أن يتعارفَ عليه العقلُ أو الوعي أو الذوق العربي، حين يتعامل مع الدّراما (خاصّة التاريخية منها) بنوعٍ من الائتلاف بين كلّ مقومات العمل.

منظومةٌ تكاتفت فيها كلّ الأساليب وكلّ المكونات لتُخرج عملًا مبهرًا أجمع عليه الملايين أنّه أعاد الذّاكرة الحيّة والعزّة والفخر بالتاريخ لهذه الأمّة.. هذه الأمة التي غابَ عنها - بقصدٍ من أعدائها أو بغير قصدٍ منها - تاريخُها الواعي الهادف البنّاء الذي يصنع من جيلها الحاضر جيلًا جديدًا يستمدّ مقومات حياته من أجداده الذين صنعوا المجدَ بأخلاقهم ومبادئهم ورجولتهم، وصمودِهم على الحقّ، وحرصهم على دينهم.

عملٌ اجتمع فيه عددٌ العوامل لتؤكّد أنّ الفنّ الهادف المبدع الملتزم إذا توافرتْ له الوسائل المطلوبة إنّما يصل إلى درجة من الانتشار والشيوع تؤكّد أنّ العمل النّظيف المحترم يفرض نفسَه أيًّا كان وقته.

في وقتٍ تكاتفتْ فيه وسائلُ الإعلام (عربيّها وغربيّها) على أن تقدّم فنًّا طغت فيه إمّا روح التقنية والتكنولوجيا وحرق الكواكب، وإمّا إغراقٌ في سفاسف الأمور وانْحطاط إلى مستوى متدنٍّ في السموم التي تحمل الهجوم والهدم؛ من انْتشار للمخدّرات والرذيلة، وانتشار لتقطّع الأرحام، وانتشار للفوضى المجتمعية التي تبثّ خططَها في كلّ بقعة من بقاع العالم العربي تحت مسمّى المجتمعات التي تلمس فيها شيئًا من المدنيّة ومن التقدّم والرفاهية، ولكن قد انْحطت أساليبُها حتى وصلت إلى مخْدعِ الرجل والمرأة؛ تفضحُ وتكشف العوراتِ والسوءات لتبيّن أنّ السوس ينخرُ في جسدِ هذه الأمّة، وأنها مهما وصلت من شأو في التقدّم والرفاهية إنّما هي أصلًا لا قيمة لفكرها ولا عقلها، وبالتالي فإنّه لا قيمة لفنّها الذي يعبّر عن واقعها الحقيقي بصورة واقعية أيضًا.

إنّ هذا المُسلسلَ الدّرامي الضّخم استطاعَ - في تصوّري أنْ يرتقي، وبمنتهى الحيادية، بالذوق العام، ويصنع واقعًا مغايرًا جيدًا. نعم.. كشف فيه بعض سوءاته، وبعض العُملاء والخونة، وكشف فيه مدى التأثر والخلل في المجتمع حين كانت السلطة أو الحكم هو هدفهم؛ نعم.. لكنّ كلّ هذه الأمور لم تمنع العمل أن يكون صادقًا في عرض التاريخ، لم يزيّف الواقع، ولم يدلّس

الحقائق، ولم يرسم صورةً خاطئة لمجتمع مثاليّ حتميّ يفرض على الناس أن تسمع للإسلام وتحبّه، إنّما نحن بشر، فتعامل النصّ مع الأحداث والوقائع بمنتهي الحياديَة، بل وحتى في رسم صورةِ الأشخاص؛ فمَن كان خائنًا ظهر أنه خائن، ومَن كان عميلًا ظهر أنه عميل، ومَن كان طفوليًّا في تصرفاته ظهر كذلك، ومَن كان عنيفًا وشديدًا في اتّخاذ قراراته ظهر كذلك، ومَن كان، ومَن كان..

صورةٌ أمتعت المشاهدين على اختلاف طوائفهم ومجتمعاتهم، وأرجعت له تاريخَه الحيّ ليعيش بين يديه مرّة أخرى، نعم.. هو تاريخٌ حيّ بسيرته العطرة، تاريخ أراد له أعداؤه أن يطمَس، أن يُعرَض على المشاهد بشيء من التشويه؛ ولنا أن نعود بالذّاكرة، أو تعود بنا - هي - إلى منظومة التعليم في بعض الدول العربية حينما كانوا يبثّون سمومَهم عنْ مساوئ الحكم العثماني، نعم.. كلّ حكم له مساوئه وإيجابياته وسيئاته وحسناته، ولكنْ أن تستمرّ الصورة البشعة دائمًا أنّ الخلافة العثمانية كلّها مساوئ، وأنّ الحملة الفرنسية جاءت بكلّ الخير والانفتاح والمدنية!! فهذا ممّا يزيّف به التاريخ، هذا ممّا يحشَدُ له من الغرب، هذا ما يتربّى وينشأ عليه هذا الجيل بشيء من التنكّر لكلمة الخلافة، أو لكلمة الحضارة الإسلامية، ثمّ على الجانب الآخر أن ينبهرَ تمامًا بكلّ ما يمكن أن يأتيه ويقدَّم له من الغرب، حتى وصل الأمر إلى أنّ العربيّ ليفتّش في دفاتره القديمة؛ ليثبت - في شيء من البعد التاريخي - أنّ هناك شيء يربط بينه وبين الغرب ليفتخرَ به، حتى إنّك تجدُ الأطفال في بيوتهم إنّما يعلّمون في بداية حياتهم التعليمية لغةً أخرى غير العربية، وهم أصلًا لم يتعلموا العربية بعد، ولم يجيدوا التحدّث بها، ناهيك عن تشويه صورة العربية في كثيرٍ من الأعمال الدرامية، حتى تجد السّخرية من مدرس اللغة العربية أو المدرس الشرعي.

سمومٌ أراد الغرب أن تبَثّ في الإعلام حتى جاءت اللحظة ليعود الإعلام مرّة أخرى ويثبت أنّ التاريخ حي، وأنّ التاريخ حاضر، وأنّ الحضارة لن تموت، وأنّ هذه الأمة إذا استطاعتْ - أو إذا أرادت - أن تقدّم فنًّا هادفًا قدّمت له خيرَ تقديم واجتمعت له المُمكناتُ المُتاحة إنّما تصلُ بنفسها إلى النّجاح الكبير.

ولقد تحيّرت كثيرًا في طريقةِ وأسلوبِ عرض كتابتي عن العمل؛ هل تكون في شكل عناوين عامّة، أم تكون معالجةً لكلّ شخصية رئيسية في العمل الدرامي على حدة، ولكنّي وجدتُ كثرة الشخوص - والتي تحتلّ موقعًا هامًّا في المسلسل - عائقًا لتنفيذ ذلك؛ لذا فقدْ وجدتُني رجّحت المعاني على الأشخاص؛ ثم لتركيز العمل على الدور القيمي للفنّ فقد احتلت القيم بدلالتها التربوية مكان الصدارة والتي أفردت لها أفقًا رحبًا يليق بمدى تأثير العمل التربوي وتعلق الكثيرين بمردود ذلك على استعادة الفضائل في المعاملات اليومية والحياتية للأمة التي ترجو استعادة مكانتها القيمية والتوجيهية والنموذجية لتكونَ قدوة كما كانت من قبلِ.

ولقد كان مخطّطَا أن يتضمن الكتاب فصلًا كاملًا عن عناصر نجاح العمل فنيًّا، مثل: الإخراج - عنصر الإبهار - الميزانية - الإعْلام - المونتاج وأعمال الجرافيك والخدع المبهرة - الإكسسوارات - الموسيقى التصويرية الماتعة - وغيره كثير.. ولكنّي رأيت أنْ سيطول بنا المقام، وليس هذا الكتاب بالمعْنيّ بكلّ هذه التخصّصات؛ لذا وجبت الإشارة هنا إلى ذلك.. وفقط.

وفي الختام، أجدني مشدودًا لتقديم الشّكر لهؤلاء الأفراد الذين سطّروا تاريخهم الفني بعملٍ من نور، حتى إنه ربما يُجْمِع كلّ مَن شاهد هذا المسلسل أو العمل أنه لا يريد أن يرى هؤلاء الأشخاص الممثلين في أعمال أخرى (تجارية- تسويقية- ربحية)؛ حتى لا تتغير الصورة، وتظلّ الحكاية حيّة في ذاكرة ووجدان ووعي كلّ مشاهد افْتخر بهؤلاء الأفراد؛ كبيرهم وصغيرهم، مَن تصدر المشهد وكانت له البطولة (كما يقولون) أو مَن كان على سبيل المثال مِن الذين يمرّون أو يقولون كلمة أو يظهر في مشهدٍ واحد وينتهي به الأمر عند هذا الحدّ (أو مَن يسمَّون بالكومبارس)، كلّهم أثبت أنه جديرٌ أن يسجّل اسمه في سجلّ شرف الفنّ والتاريخ معًا.

وأيضًا لا أنسي - متباهيًا مفتخرًا - أنْ أوجّه الشّكر لهذا المشاهد العربي، الذي أثبتَ حيويتَه ونقاءه، وتشوّقه لكلّ نافعٍ محترم؛ حين التفّ حول العمل في بقاع الدنيا؛ ليثبت - هو الآخر - أنه مازال حيًّا، وينبض قلبه بالشوق لكلّ فنّ واعٍ وهادف، فوصلت أعدادُ المتابعين والمشاهدين إلى ما يقارب الثلاثة مليار مشاهدٍ، كما وصلت ترجمة العمل لأكثر من ٣٩ لغة !!

والشّكر موصول كذلك لكلّ مَن دعّم وشجّع ظهور هذا كتابي هذا؛ رجاءَ أنْ يكون علامةً بارزة أيضًا - ببروز موضوعه - في تاريخ المعالجة لمثل هذه الدّراما الهادفة والمثمرة.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عبد القادر أمين

***

الفنّ التربوي... إبداعٌ وترسيخ

الفنّ التّربوي له دورٌ وأثرٌ بالغُ الأهمية في زيادة الوعْي لدى الجماهير والشعوب، بما يبثّه من قيمٍ ومبادئَ ودلالاتٍ تحفظ لهذه المجتمعات قيمتَها، وتحافظ على نسيج حياتِها لتبقَى متماسكةً لا تزيغ بفعْل المستحدثاتِ والمستجدّات، وإنّ القيم التي أقصدُها هنا لا تقتصرُ على القيمِ الأخلاقيّة فقط؛ وإنّما تشمل كلّ قيمةٍ من المُمكن أن تعْلي من شأن الفردِ والمجتمع، بما في ذلك من قيمِ الحقّ والجَمال والعدل والتذوّق، وبما تضمّ حتّى من القيم الاجتماعية.. مَفادُ القول هنا - وكما يقول الأستاذ سعيد توفيق في مقالةٍ له بالأهرام: أنّ أيّ متلقّ لعملٍ فنيّ ينبغي أنْ يعرف أوّلًا أنّ قيمة الفنّ تكمنُ في قدرتِه على إبداع القيم الفنية والجماليّة باعتبارها قيمًا مستقلّة قائمة بذاتِها، بصرفِ النّظر عن القيمةِ التي يعبّر عنها موضوعٌ ما، حتّى إن كان موضوعًا قبيحًا في الواقع.

ويؤكّد الباحثون أهميّة الفنّ التّربوي باعتباره: القوى المهذِّبة لغرائز الإنْسان والمتسامية بها إلى المستويات الرّفيعة؛ من خلال:

١ - تهذيب النّفس.

٢ - ضمان نموٍّ في الذّوق والإحساس بالجَمال.

٣ - اكتساب المهارات الفنيّة.

كما يؤكّد فلاسفة الإغريق - ومنهم أرسطو - على القيم التّربوية للفنّ في بناءِ مجتمعٍ متقدّم، وفي تربية الجيل، وذلك من خلال غائيّة العمل الفنيّ الخلّاق، ويؤكّد سقراط على أنّ الفنّ يجب أنْ يكون لخدمة الأخلاق والجَمال، ويجب أنْ يؤدّي إلى الخير لا إلى اللذّة الحسيّة، بما ترى مدرسةً أخرى أنّ الفن لا ينبغي أنْ يقوم بدوْر الواعظ الأخلاقي؛ حيث يقولون إنّه لا علاقة بين الفنّ والأخلاق!! وفهِمَ أنصارُ فيثاغورث الفنَّ موضوعًا يرتبط بعلاقتِه بالبناء الإنساني؛ فهو يُخرج من الإنسان فعلًا أو نتاجًا هدفُه تربويٌّ، بينما يرى أفلاطون في مدينته الفاضلة على أنّ الموسيقى لها صفةٌ تربويّة وتأثير فعّال على النفوس - وهذا ما لمسناه في كثيرٍ من الأعمال الفنيّة التي ارتبط الناسُ بموسيقاها، وصارت علامةً بارزةً على تذكّر هذه الأعمال - إضافة إلى اتّصالها بالجَمال؛ بما تُكسِب النفس من ائتلافٍ واتّزانٍ وجدانيّ وانفعالي، كما لا يغيبُ عنّا تلازمُ الصّراع الإنساني القديم مع ظواهر الطّبيعة - ومع غيْره من بني جنسه أيضًا - وما كان لمراسيمِ الرّقص الجَماعي بموسيقاه الصّاخبة ودقّات طبولِه من زرْع الجرأة والإقدامَ في نفوسهم، وقد سطّروا وصوّروا ذلك على جدرانِ معابدهم ودورِ عباداتهم القديمة... ويؤكّد لنا فلاسفةُ علم الجَمال أنّ الإنسانَ يتّجه - بصفةٍ مستمرّة - إلى كل ما هو جميل، وأنّ تذوّق الجَمال عند الإنسان مسألةٌ طبيعية منذُ بداية الخليقة.

وعقب عرض الرؤى السابقة أرى أنّه قد غيّر الفنُّ - على مدار العصور المخْتلفة بمختلفِ أشكاله وصوَرِه - من معتقداتِ، بل وثوابت، مجتمعاتٍ بأسرها؛ فتحوّلت من حالةٍ إلى حالة، ومن صورةٍ إلى صورة مغايرةٍ؛ إمّا سلبًا أو إيجابًا.. لتحيى في عالمٍ جديدٍ الفنُّ أهمّ ركائز استمراره ووجوده.. تربّينا جميعًا في مصر - مثلًا - على أغاني الحماسة التي تحثّ على التّضحية والفداء والشّجاعة والبسالة أيّام حرب أكتوبر/ رمضان، فكانت هذه الأناشيد الوطنية والحماسيّة تفعلُ بالفلّاح والعاملِ والأمّيّ البسيط فعلَها تمامًا بالمتذوّق الحقيقي لها والمتمرّس على التّلَذّذ بالموسيقى والغناء!! حتّى عندما تدنّى هذا المستوى حديثًا بما يسمّى *أغاني المهرجانات* استجابتْ له المجتمعاتُ والشّعوب بشكلٍ غريب بدا واضحًا في التّعاملات اليوميّة والثّقافة الحياتيّة لكثيرٍ من شرائحَ المجتمعات بما يستخدمونه من ألفاظها؛ بل وحركاتِ أدائها!!

لا ننْسى - أيضًا - تلك الأفلام التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في تغْيير مفاهيم المجتمعات حول قيمةِ وهيئةِ وطريقةِ تعاملِ؛ مدرسِ اللغةِ العربيةِ، والمأذون الشّرعي، وصورة الملتزمِ دينيًّا؛ وصلتْ إلى حدّ التّشويه، وكذلك علاقة زوجة الابن بأمّ زوجها بما خلقَ نَوعًا من العَداء المُسْبَق، وصلَ إلى حدّ التّحفّز من كلا الطّرفين!!!

وكذلك على الجانب الآخر - والذي أسّس لتاريخ مجيد - لا ننسى هذا الكمّ الهائل من الأغاني التّراثية والشّعبية البسيطة التي كانت تُرتَجَل في بعض الأحيان حين أعراسِهم وجميعِ مناسباتهم، هذه الأهازيج والأناشيد تحملُ تاريخًا كبيرًا من العطاء والتّحوّل، ورسم صورة المجتمعات والمحافظةِ على هويّتها.. وأيضًا لا ننسى ذلك الكمّ مِن الأمثال الشّعبية التي كانت لونًا من ألوان الأدب والفنون بما يُمكن أن ينتمي تحتَ مسمّى الفن.

هذه الرّسائل والدّلالات أثّرت بشكلٍ كبير في تشكيل المجتمعات، أمّا إذا حاولنا أن نسقطَ ذلك على علاقة الفنّ بالتربية؛ فإننا نلمس تأثيرًا وتأثرًا واضحًا متبادلًا بين كليْهما.. العاملُ التربوي يؤثّر تأثيرًا بالغًا على الفنّ بمجالاته وموضوعاته وأطروحاتِه ومعالجاته، كذلك الفنّ يؤثّر تأثيرًا بالغًا - قد يصل إلى حدّ الشّراسة - على الوعي التّربوي داخل المجتمعات حينَ يتضمّن مثلًا أعلى للحريّة بمعانيها المتعدّدة، فيجب أنْ ينظرَ إلى الفرد على أنّه كائنٌ حسّاس مُتفاعل لدى استقبالِه له، فيحترمُ أفكارَه وميولَه وأنشطتَه، بل وثوابتَه؛ فلا يعمل على هدْمِها أو حتّى التقليل منها.

هذا الدّورِ الكبيرُ بالغُ الأثر شديدُ الانتشار والشّعبية كان ينبغي الانْتباه إليه؛ حتّى ندركَ قيمة العمل الذي بين أيدينا *قيامة أرطغرل*، وأثرهُ في تغيير الوعْي بما بثّه من قيمٍ تعدّدت مجالاتُها الفنية والجمالية والاجتماعية، وتعدّى أثرُه المجتمعات الإسلامية أيضًا.

هذا العملُ الذي جسّد ما يُمكن أن يعيدَ تشكيلَ وصياغة الحياة في المجتمع

التركي بشكلٍ تامّ، وكذلك المجتمعاتِ الأخرى على حسبِ حاجتها ورغبتِها في التّقبّل.

الرسالةُ الحقيقيّة للفنّ.. والتي تجلّت فيما بثّه المسلسل:

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفن أنْ يرسم طريقًا صحيحًا للحياة بين الناس، أنْ يجعل من التّعامل الرّاقي الأسْمى، ومن تحديد الحقوقِ والواجبات، وسيلةً سامية ليشعر الإنسانُ بآدميته.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ أنْ يُعلي من قيمِ المواطنةِ والتّمسّك بالعادات والتقاليد والأعْراف الموروثة.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ تتجلّى في إعادةِ صياغتِه لكثيرٍ من المفاهيم الواردة مِن خارج المجتمعات بما يُحافظ على ثوابتِها وهويّتها والتزامها بتاريخها وحضارتِها؛ لتكون ثوابتَ حقيقيّة لا تتزعزع ولا يتنازل عنها أفرادُها نظيرَ وارداتٍ مستحدثة، أو الانْجرار وراءَ المدنيّة المستغربة.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ تربيةُ جيلٍ جديد يحترمُ ذاته، وينمّي مواهبه، ويحافظ على مكتسباتِه من أجدادِه وأسلافه، ولا يفرّطُ فيما بذلوه ليحيا هو حياةً كريمة.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ تتجلّى حين يُعْلي من قيمٍ لا يستغني عنها أيّ مجتمع يريدُ النّهوض والاستقرار، بما له من ذاتٍ مختلفةٍ عن المجتمعات الأخرى.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ أنْ يعمل على حذْفِ وإلغاء كلّ ما يشوّه صورة الحياة بما يخالف طبيعتَها الحقيقيّة، ويعرّضها لعدم الاستقرار؛ بل والانهيار فيما بعد حينَ تنخلع من هويّتها وثقافتِها وتقاليدها لتنخرطَ في ثقافاتٍ مغايرة.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ أنْ يدعمَ كلّ ما هو مستمسكٌ بالقيم والأصالة ونواتج الحضارة.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ أن يوظَّفَ توظيفًا جيدًا مهنيًّا كاملًا متميّزًا تشترك وتتضافرُ فيه كافّة الهيئاتِ والمؤسّسات لكي تحافظ على قيمة الحياة في مجتمعاتها.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ هي ضمانٌ لنموّ الفرد نموًّا تلقائيًّا طبيعيًّا، وأن لا يكون - أي الفن - جالبًا لكثيرٍ من المشْكلات والعراقيل التي تنشأ عندما يتناول مفاهيمَ وآراءَ مغايرة لما عليه المجتمع الذي يُعرَض عليه وفيه.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ أنْ يغرسَ في الإنسان روحَ الاسْتعلاء عن متطلباته الذّاتية ليرى متطلباتِ وطنِه ومستقبلَ بلدِه ليعلم - حينها - أنّه يؤسّس لحياة مستقبليّة، إمّا أن تكون خيرًا لأولاده أو غير ذلك.

- إنّ الرّسالة الحقيقيّة للفنّ لا ينبغي أن تكونَ جريًا وراءَ الشّهوات، وكلِّ سهلٍ مُسْتساغ، حتّى وإن خالفَ العاداتِ التي تربّى عليها أيّ مجتمع.

مِن هنا، ينبغي أنْ نعلمَ جميعًا أنّ الفنّ هو الذي يخلقُ ويصنعُ المجتمعات، وأنّ المقولةَ الفارغةَ مِن الحقيقة أنّ الفنّ ينْساق وراءَ الواقع ويحاكيه، بل وينحصر دورُه في تجسيدِه فقط أيًّا كان شكلُه وطبيعتُه؛ هذه مقولةٌ فاسدةٌ مُفْسدة؛ بل ومدمّرة... لا ينبغي أنْ تستجيب لها المجتمعات المتجذّرة في التّاريخ، والتّي صنع الفنّ فيها روحَ التفرّد والتميّز والسّبق؛ فصارتْ علامةً وقدوةً وقِبْلة لكلّ مَن أراد الخيرَ والجَمال والإمْتاع.

***

الدّراما التاريخيّة.. بين الواقعِ والخيال

ربّما لا أكونُ مبالِغًا إن آمنتُ بمقولةِ أن *الفن والحياة وجهان لعملة واحدة*، كذلك لمْ يتعدّ أرسطو - الفيلسوف اليوناني - الحقيقةَ عندما قال: الفن مرآة الحياة.. ولكنّها مقولة تحملُ دلالتين؛ دلالةً استغلّها البعض ليرسمَ صورةَ الحياة كما يحلو له مدّعيًا مطابقةَ الفنّ للواقع، ودلالة أخرى استثمرها البعض ليضفّر بين الواقع والخيال؛ مقتنعين تمامًا بأنّ وظيفة الفن الحقيقية صنع الجَمال، ليمنح إدراكًا نابهًا للتصدّي لمستجدّات الحياة المعاصرة وربّما المستقبلية من تقنيات تكنولوجية وانفتاح على العالم، فضلًا عن تصوّر توابع الثورات العربية وما يستتبعها من فرض للنظام العالمي الجديد، وما وصلت إليه كثيرٌ من المجتمعات في فترة الانفلات المستشري من الإرهاب العالمي، وتدنّي الأخلاقيات وانتشار الفوضى المجتمعية....

كذا ربّما لا أكون مغاليًا إن قلت إن العامل الأساس لبناء أي أمّة يساهم فيه الفنّ بشكل رئيسٍ وفاعلٍ، بكافة أشكاله، ثمّ تأتي الدّراما المرئية بأنواعها (مسرح - تليفزيونَ - سينما) في الصدارة من هذا الأمر؛ حيث ثقافة الصورة المسيطرة، والتي لها من الانتشار ما يضمن ذيوعها مهْما كانت المادّة المنْتَجة.

ولك أن تتخيّل تأثير فيلم أو مسلسل واحدٍ - نجح فنيًّا وجماهيريًّا - على عقلية وتوجّه الناس، بل وفي إعادة تشكيل حياتهم، بل ولغة حوارهم اليومي بشكل يثير الاهتمام؛ وهذا هو مقصود الفن الحقيقي أن يعالج التاريخ برؤية معاصرة واقعية، وأن يتحسّس طريقَ التوجيه للخروج من المعاناة الآنية، والخروج بالمواطن العربي إلى رحابة التغيير الحقيقي، وفي هذا يقول الدكتور *وليد سيف* في حوار تليفزيوني ببرنامج *زيارة خاصّة* أذيع بتلفزيون الجزيرة، وقد أجرى الحوار: إلسي أبي عاصي؛ يقول وليد: العمل الدرامي ليس عملًا تسجيليًّا، وليس عملًا وثائقيًّا، فليس من مهمّة العمل الدرامي الذي يستلهم المادة التاريخية فقط أن يقدم معلومات، أو أن يقدم قيمة معرفية فقط عن التاريخ الماضي، فإن كان هذا هو الهدف فربّما كان من الأجدى أن نلجأ إلى العمل التسجيلي أو العمل الوثائقي.. العمل الدرامي هو عمل فني يقدم قيمة فنية وقيمة إنسانية تتجاوز خصوصية الزمان والمكان، يعني ينطلق من فترة تاريخية معينة، لها خصوصية معينة في زمانها ومكانها؛ ولكن من خلال المعالجة الدرامية، تجاوز هذه الخصوصية إلى الأفق الإنساني ليخاطب الإنسان في الوقت الحاضر، فالإنسان عندما يكتب،
يكتب وفي ذهنه المتلقي الآن، فإذن يريد أن يرسل رسالة تتعلق بواقع الإنسان المعاصر، دون تعسف ودون أن يوظّف التاريخ بطريقة فجّة، بمعنى أن يحرّف في الحقائق التاريخية ويخرج بها عن سياقها، ويسقط عليها أفكاره إسقاطًا مقحمًا غير مقنع، ولا بدّ أن ينطلق من ظروف الزمان والمكان

بالفعل من خلال المعالجة الدرامية ليقدم رسالة إنسانية في الوقت الحاضر، وقيمة فنية جمالية في نفس الوقت، فإذن شأننا في التعاون دراميًّا مع المادة التاريخية هو نفس شأن الإنسان عندما يتعاون مع مادة الواقع القائم؛ لأنه في النهاية كلاهما يتعلق بالواقع القائم طالما أنّ الرسالة التي يريد أن يتوصل بها إلى المشاهد رسالة معاصرة. *انتهي كلامه بتصرف*.

وإن من بين أنواع الدراما هذه؛ الدراما التليفزيونية، والتي تطوّرت - رغم حداثتها الزمنية مقارنة بمثيلاتها من مسرح وسينما وإذاعة. لقد استطاعت تصدّر المشهد مما جعل المخرج السوري *نجدت أنزور* يقول عن الدراما التليفزيونية في محاضرة له عن *الدراما والإرهاب*، أنها استطاعت أن: *تصنع لنفسها وجهًا واضحًا، وملامح راسخة، وهذا مسارُ ولادة طبيعية، وكما أخذت السينما الكثير من صفات المسرح وبقية الفنون التي سبقتها، تأخذ الآن الدراما التليفزيونية بعض صفاتها من السينما ومن بقية الفنون، وهي تستخدم الكلمة والصورة والفعل الدرامي والموسيقى والإضاءة ضمن خصوصية معينة*.

وإنّ الإنصاف يؤكّد أنّ الأهمية الحقيقية في الفنّ، كما يقول أبو شادي في كتابه *سحر السّينما*، ص١١؛ هي: *للقيم الإنسانية التي يعبّر عنها الفنان، وليس لابتكار زاوية جديدة للتصوير، أو تركيب الفيلم، أو خلق إيقاع يتّسم بالحساسية والذكاء، بل إنه ينبّه إلى درجة البراعة في استخدام هذه الأدوات، وقدرتها على الإقناع حتّى لا تستخدمها أيدٍ غير أمينة تسهم في تضليل المشاهد وتزْييف وعْيه، وتعمل على تكريس واقعِه في مجتمع قد يكون خلاصه الوحيد هو التغيير*.

ولعلّ الدراما التاريخية بما تضيف لصناعة الدّراما من أحداث، وما تبثّه من قيم وتستحضره من تاريخ؛ تقف موقفَ الصّدارة من الدّراما عامّة، والتليفزيونية خاصة، ولك أن تسترجع بعض الأعمال لتتجلّى لك الصورة كاملة، **من أمثال:**

الزّير سالم، تأليف وكتابة ممدوح عدوان، وإخراج حاتم علي.

صلاح الدّين الأيوبي، تأليف وكتابة د. وليد سيف، وإخراج حاتم علي.

شيخ العرب همّام، تأليف وكتابة عبد الرحيم كمال، وإخراج حسني صالح. (مع تحفّظي على الكثير من أحداث المسلسل، ولكنه بثّ الكثيرَ من القيم).

والرّباعية التّاريخية الأندلسية: *صقر قريش، ربيع قرطبة، ملوك الطوائف، خريف غرناطة (المُعلَن عنه)*، تأليف وكتابة د. وليد سيف، وإخراج حاتم علي.

وما استجدّ على السّاحة من الدرامية التركية كالسلطان عبد الحميد وكوت العمارة... وقيامة أرطغرل الذي نحن بصدده.. وغير ذلك ممّا ترك بصمة تؤكّد قيمة الدراما التليفزيونية عامّة، والتاريخية على وجه الخصوص، باعتبارها موضوع الكتاب.

ومِن هنا تصدّرت الدّراما التاريخية المشهد لترسم صورة مجتمع مغاير يستحثُ الخطا نحو تأصيلِ المفاهيم ليحيا أصحابُها في رحاب التّاريخ بمعالجات لا تخلّ بالأحداث بقدر ما تهتمّ بتجديد الدّماء في وريد هذه الأمة لترفع عنها صدأ النسيان وتذكّرها بأمجادها التليدة ورجالها العِظام، وتشكّل وعيها من جديد بشحذ الهمم وتحفيز الإرادات، أو حتّى للتذكير بسلبياتها.

كاتبُ الدّراما التاريخية:

يحيا كاتبُ الدّراما بين شقّي رحى، بين أنْ يحيا عالمه الخاص من الإبداع والابتكار والخيال بل واستحداث شخوص ومواقف درامية تخدم فكرتَه وتظهرُ إبداعه؛ وأن يكون سردُه مطابقًا للواقع الحقيقيّ والتّاريخي للأحداث؛ فهو مقيّد تحكمُه ثوابتُ التاريخ ووقائعه،. من هنا يجب أن يكون كاتبُ الدّراما - بادئ ذي بدء - باحثًا متعمّقًا في تاريخ المدّة الزمنية التي يكتب عنها، كما يجب أن يكون موهوبًا، وقد جاء في مقالة على الإنترنت، لم أستطع الوصول لصاحبها، يقول: والمفترض أنّ كاتب الدّراما التاريخية هو في الأصل باحثٌ تاريخي من الطراز الأول. وهذا الباحث التّاريخي المتمكّن هو متخصّص في عصرٍ ما من عصور التاريخ، يعايش أحداثه وأبطاله، ويفهم مصطلحاتِه وطريقةَ تفكيره وعاداته الاجتماعية والدينية وأمثاله الشعبية، ويقرأ ما بين سطور حوليّاته التاريخية بحيث يسهلُ عليه ليس فقط تحليل وتفسير الغوامض من الأحداث، بل ويمكن له أن يتنبّأ بأحداث تاريخية مسكوت عليها أو أحداث تربط بين أحداث مكتوبة، وبالتالي يتمكّن بسهولة من المقارنة بين الرّوايات المختلفة للحدث الواحد، ويعرف بسهولة تمييز الصحيح منها، كما يميّز بين الأحداث الحقيقية في الرّوايات المتداخلة أو الروايات المركبة، ويتعرف على دور أبطال الحدث التاريخي المجهولين الذين لا يعبأ المؤرّخون المعاصرون لهم من ذكر أسمائهم.

وإذا تغيّر الكاتب، وجعل اهتمامَه الأكبر بصناعة العمل وخلْق أحداثه والخلط بين الكتابة التّاريخية والدرامية؛ حينها حدّث ولا حرجَ عن المغالطات والسّقطات والأخطاء التاريخية التي تشوّه العمل - وليس مسلسلِ قيامة أرطغرل من هذا ببعيد-، حتى وصل الأمر ببعض الأعمال أنْ تسقطَ من حساب التّأريخ - الفني والوثائقي - والذي عجّ به كثيرٌ من الأعمال، وأكتفي هنا بعملٍ واحد فقط، وهو *النّاصر صلاح الدين* ليوسف شاهين، والذي ضمّ الكثيرَ ممّا أحذّر منه؛ من مثلِ إلقاء التّحية بقول أحدِهِم: صباحُ الخير!! ممّا يخالف تحيّةَ الإسلام كركيزةٍ مِن ركائزِ المُجْتمع المسْلم آنذاك.. وكذلكَ إقحامِ شخصيّةٍ مثل عيسى العوّام - النّصراني، على حسب زعْمِ الفيلم - داخلَ الأحداثِ للتّأكيدِ على معلومةِ الوَحْدةِ الوطنيّة... وغير ذلكَ ممّا ورَدَ بالعمل.

الدّراما التّركية:

جاءت الدّراما التركية - في فترةٍ وجيزة من تاريخ الفنّ التركي - صادقةً

ومعبرةً عن التعددية المجتمعية والثقافية، والتي يحياها المجتمع التركي، وقد جاءت متفاوتة بين الهوية الإسلامية والهوى الغربي، بين التحرّر والانفتاح ومحاكاة الغرب ليشكّل شريحة غير قليلة من المجتمع، وبين عثمانيّة المجتمع التّركي بحضارته الإسلامية المتجذّرة في تكوينه، يقول يحي العالم في ***مقالة له على الإنترنت*:** عرفَتِ الدّراما التركية - في السنوات الأخيرة - انتشارًا واسعًا ذاع صيته بحيث استطاعتْ أن تخلق لها جمهورًا من المتتبّعين، وتنافس العديد من الدول التي ظلت مصدرًا للإنْتاج الفني، والسينمائي خصوصًا، فالفنّ وقضاياه مع المتغيّرات الطارئة والمتسارعة - مع العولمة - في نظم الثقافة والقيم أصبحت أحدَ الأدوات المتوسّل بها لاستنبات النموذج الذي يسعى إليه، ومن ثمّ تجدُ مجال الدّراما والسينما أحدَ أوْجه الصّراع المتنوع الأبعاد والدّلالات، كما هو بباقي المجالات الأخرى. فالثورةُ الفنية بتركيا تعكس أحدَ أوجه التقدم الذي تعرفه تركيا، فلا يمكن تصوّر تطوّر الدراما والقطاع الفني دونَ نهوض في باقي الجوانب والقطاعات، كما أنها تعكسُ حالةً من القلق بالمجتمع التّركي، فهي على تنوّعها ليست بتيمةٍ واحدة وعلى ذات المنوال، إنّما هي رؤى مختلفة جذريًّا تمرّر عبر الأعمال الدرامية المعروضة.

وكان من بين هذه الأعمال مسلسل *قيامة أرطغرل* موضوع كتابي هذا.

وهذه نبذة مختصرة عن المسلسل:

مسلسل قيامة أرطغرل هو مسلسل تاريخيّ تركي، تقع أحداثُه في القرن ١٣ الميلادي، ويعرض مقدّمات ودوافع تأسيس الدّولة العثمانية من عرض سيرةِ حياة الغازي أرطغرل بن سليمان شاه، قائدِ قبيلة قايي من أتراك الأوغوز المسلمين، ووالد عثمان الأوّل مؤسّس الدولة العثمانية، وقام بدور أرطغرل المُمثل التركي *إنجين التان دوزياتان* في ١٥٠ حلقة، وخمسة مواسم، بعد أن شاهدَه قرابة ٣ مليارات إنسان في العالم، حسب وكالة الأناضول، وبثّ عبْرَ شاشات دول كثيرة، وحقّق نجاحًا كبيرًا في العالم العربي.

المسلسل فيه كثيرٌ من الوقائع التّاريخية العامّة الخاصّة بقبيلة قايي وتنقّلاتها، ولكن أغلب الأحداث التفصيلية للمسلسل هي من الوقائع الدّرامية غير التّاريخية من وحي خيال وإبداع الكاتب والمنتج التركي محمد بوزداغ، إلّا أنّها تخدم الخطّ العامّ للأحداث التاريخية من صراعات وخيانات يقابلها إقرارُ الحقّ والعدل والمرحمة.

عُرضت الحلقة الأولى من المسلسل على القناة الأولى التركية تي - أر - تي-١، وبدأ عرض أول حلقات الموسم الأوّل من المسلسل في ١٠ ديسمبر ٢٠١٤، ثم عُرضت حلقات الموسم الثاني بدءًا من ٣٠ سبتمبر ٢٠١٥، وانتهى في ٨ يونيو ٢٠١٦، عرضت حلقات الموسم الثالث الذي بدأ في ٢٦ أكتوبر ٢٠١٦ وانتهى في يونيو ٢٠١٧، ثمّ بدأ عرض الموسم الرابع في ٢٥ أكتوبر ٢٠١٧ واستمرّ عرضه حتى ٦ يونيو ٢٠١٨، ثمّ بدأ عرض الموسم الخامس

والأخير في ٧ نوفمبر ٢٠١٨ وانتهى في ٢٩ مايو ٢٠١٩، على نفس القناة.
عُرض المسلسل - أيضًا - على قنواتٍ أخرى كثيرة مثل قنوات: روسيا، ورومانيا، وباكستان، وإيران، وإندونيسيا، والمجر، واليونان، وبلغاريا، والبوسنة والهرسك، وأذربيجان، وألبانيا، وجورجيا، وقطر، ومقدونيا، وسلوفينيا، وصربيا، وليتوانيا، وكرواتيا، وبنغلاديش، وقنوات أخرى غيرهم.

جرى تصويرُ المسلسل في قرية ريفا على البحْر الأسود، وهي قرية في منطقة بيكوز بإسطنبول، تركيا، وأقيمت في القرية مزرعةٌ خاصّة للخيول المستخدمة في تصوير المسلسل، وعددُها ٢٥ جوادًا، يُشرف عليها طبيبٌ بيطري، كما توجد حيواناتٌ أخرى تحت الرّعاية مثل الأغنام، والماعز، وطيور العندليب والحجل؛ لأغراض التصوير. أمّا الموسم الثالث فتمّ تصوير حلقاته في منطقة محافظة نوشهر بإقليم كبادوكيا بتركيا. وهو من إخراج متين غوناي، وموسيقى المقدّمة من آلباي غوكتكين .

***

الاتّساقُ العامّ للشّخصيات

جاء رسمُ الشّخوص في العمل رائعًا ومتّزنًا ومتّسقًا تمامًا مع مجْرياتِ الأحداث طوال العمل بشكلٍ متمكّن، ويبدو هذا الاتساق سمةً مميّزة توحي بمدى الجهد المبذول من فريق العمل بأكمله، وليس من المؤلف فقط؛ لعلّ ما يشهد بذلك قول د. سعيد توفيق في مقالة له، بعنوان *الفن والأخلاق*[1]: إنّ ما يمتعنا - أو ما ينبغي أن يمتعنا - في العمل الدرامي على سبيل المثال، هو براعة الفنان في أداء جوهر الشخصية المتخيَّلَة التي يريد تصويرها أيًّا كانت: فالممثلةُ التي تقوم بأداءِ دور غانية على سبيل المثال، ينبغي أن تجسّد غانية ما تتجسّد في شخصيّة متخيّلة بعينها، وهذا يقتضي أنْ تكون قادرةً أوّلًا على أن تجسّد في أدائها صورة الغانية في كلامها الذي ينبغي أنْ يكون خادشًا للحياء، تمامًا مثلما تكون سائر إيماءاتِها وحركاتها، ونحنُ في العمل الدّرامي لا نستمتعُ بالشرّ في ذاته، وإنّما نستمتعُ بقدرة الفنّان وبراعته على تمثيل الشّرّ...

وتعالوا بنا نبدأ ببعض الشخوص والأمثلة كثيرة، ولكن لعلّي أصيبُ إنِ اخترتُ شخصيةً - كنموذج أجمع عليها المشاهدونَ - وأفْرِدُ لها المجالَ بالتّوضيح؛ وهي شخصيّة بامسي الخجول والبريء والطفولي والقوي والجريء ومُحبّ الجهاد وملاقاة الأعداء، لديه قدرة عجيبة على رسم البسمة والدّعابة، انظر إليه وهم ذاهبون لإنقاذ تورغوت من القلعة ومعهم آيكيز فتتصرّف برعونة وتهوّر مع الأسير الصليبي، فيقول: آه تورغوت آه.. يا لشفقتي عليك.. إنْ نجا فهذه مشكلة، وإن لم ينجُ فمشكلة أكبر، فيضحكون جميعًا لكلمته.

لم تخالف شخصيّته ما رُسم لها على مدار المسلسل (حبّه لسيفه، وتعنيفه لمَن يحدّثه عن الزّواج، ثم لقاؤه بهيلينا وحبّه لها، وحياؤه المستمرّ منها، حتّى بعد زواجه منها فتجد أرطغرل وتورغوت يحتضنُ كلّ منهم زوجتَه بعد العودة من الحرب، بينما يقف بامسي حياءً وخجلًا من الناس!! حتّى حصانه قد أخذَ منه هذه الجرأة وغليان الدّم وهيجان المشاعر القتالية فتجدُه لا يهدأ كبقيّة الأحصنة؛ بل يفور وهو واقفٌ كصاحبه.. حتّى هيلينا عندما قرأتْ شخصيّته لم تخرجْ عن هذا المعنى قائلة له: كم أنت شخصٌ مُضحك، لا يحزن مَن يحيا بجوارك. ويبدو حبّه للجهاد وقتال المشركين من أهمّ السمات الشخصية له والمشهور بها بين إخوانه فها هو يجلسُ على المائدة رافضًا الطّعام مُكتئبًا بسبب هزيمتِه أمام تيهو النّصراني، ويحاول معه تورغوت وعبد الرّحمن، ولكنّه يرفض الطعام، ثمّ يقول له أرطغرل - الذي يفهمُه-: في الغدِ لدينا حربٌ يا بامسي. فيقول: نعم،
أريد قطعَ رأس الكفّار، أريد الانتقامَ يا سيدي، فيقول أرطغرل: إذًا كلْ طعامَك يا أخي لتقوى. فيلتَهِمُ الطّعام.

ثمّ انظر إليه وهو يرى أرطغرل يعانقُ حليمة أمام القبيلة بعد إنقاذِه لغوندوز

ابنه، وبامسي يشيح بعينيه بعيدًا، ويضع وجهَه في الأرض حياءً من الموقف!! حتّى عند مغازلته لزوجته يقول لها: ليأكل لسانُك السّكّر.. وهذا يتّسق تمامًا مع شخصيّته التي لا تعرف التغزّل ولا التفنّن في إخراج مشاعره بالكلام. حتّى لم تغبْ عنه خفّةِ الدّم في كثيرٍ من المواقف، والتي كانت سببًا في التخفيفِ عن إخوانه، فمثلًا حين كان سفيرًا لأرطغرل لدى آريس لتسليم القلعة دونَ حرب، وقف يحدّث محاربيه فقال لهم: دعونا لا نفقد شهداء قبل أنْ يسحق كلٌّ منّا ثلاثة أو خمسة منهم، حاولوا أنْ تسحقوا القادة قدْرَ الإمكان، وليبقَ الجنودُ في الوسط كالجِمَال التي فقدتْ حمارها.. ثمّ انظر إليه حين يدخل على ماريا وهي بجوار تورغوت المريض فتقول له: أيّها التركي البطل، ساعدني لنخلعَ ما عليه. فينظر لطلبِها مستغربًا، فتقول له: لا تخفْ لن آكلَ صاحبَك. فيقول بصوتٍ مسموع له: توبة توبة.. وها هو يضرب رأسه في الحائط حين كانت هيلينا مريضة، ويقول لنفسه التي تحملق فيها: يا ديّوث يا ديّوث. وتتجلى فطرته الشخصية حين يذهب ليفكّ وثاقَ تورغوت وأصليهان، وبعدما يقتلُ الحارسَ يفكّ وثاق تورغوت بالمفتاح، ثمّ يعطيه لتورغوت ويقول له: لتفكّ وثاقَ السيدة أصليهان. وفي الحلقة ١٠٤ يسأله أرطغرل: أيّ عدوٍّ تريد أن يكون التّالي يا بامسي؟ فيقول: والله يا سيدي، لا أريد عدوًّا يدخل بيننا وينشر النفاق. وهذا من بين اتّساق شخصيته، وهنا ملمحان: أحدهما أنّ ردّه جاءَ أنّه لا يريد كذا... بينما السّؤال يقتضي أن يقول: أريد كذا.. فهو قد سلبَ إرادتَه بنفسه مِن هوى نفسه، وسلّم أمره كلّه لإرادة مَن أعطاه قلبه. والملمحُ الثّاني أنّه شخص واحدٌ يعيش لواحدٍ وهو الله؛ لذا لا تنسجم روحُه مع النّفاق ولا المنافقين المتلوّنين أبدًا.. وكذلك جاء طبيعيًّا حزنه على لحيته التي اضطرّ لحلقها في مهمّته لإنقاذ غوندوز بن أرطغرل، وفي هذا استشعارٌ منْه لحديث النّبي *زينةُ الرّجال في اللّحى*، فهو رجلٌ إيمانُه فطريّ، وبنظرة واحدة على حيائه وخجله حين يحتضنُ أرطغرل زوجتَه حليمة تجعلك تدركُ تمامًا كيف أنّه شخصٌ بريء مؤمنٌ بفطرته.. وفي هذا السّياق عندما يعود إلى خيمته وزوجتُه حفصة تقول له: أهلكتَ نفسَك أمام المرآة يا بامسي!! فيقول لها: وكيف لا أهلك نفسي!! انْظري إلى وجهي !! حتّى أنّ الملائكة لا تأتي إلى الخيمةِ وتهرب!!:

ولعلّ مِن أفْضل الشّخوص التي تعلّقت بها عقولُ وقلوبُ المشاهدين للمسلسل كانت شخصيّة سعد الدين كوبيك، بكاريزما النّفاق والخداع؛ بل والخيانة، لم تبدُ منه حركةُ مبالغةٍ كما كان يفعل كوجاباتش - رئيس محاربي توتكين* بنظراتِ عينيْه المبالَغ فيها، بل كان كوبيك منسجمًا تمامًا مع صفاتِه الماكرة بعقلانيّة غريبة، وحتّى في طريقةِ تناوله للطّعام والمتماشية مع كوْنه أمير.

كذلك شخصيّة آرتوك المتّزنة على طول الخطّ، لم يخرج أبدًا عن هذه الكاريزما العاقلة الجادّة، حتّى في اللحظة التي كلّف فيها بامسي أنْ يفاتحه

عن الزّواج، لم تختلّ تيمةُ الشخصية، بل استمرّت على هذه الصّفة الجادّة والحازمة.

كذلك أمير حلب برقّته الشّاعرة ورهافةِ وجدانه، وهو ما يتّفق تمامًا مع حبّه للأدب والشّعْر، ظهر ذلك أيضًا في اهتمامه بمظْهَره وهندامه، بخلاف السّلطان مثلًا الذي لم يكن يبالغ في زينته.

كذلك شخصية دراغوس الحقيقي أو زانغوتش بأدائه التحوّلي في اللحظة الواحدة بين الشخصيّتين لا يعني قدرةَ الممثّل - فقط - على التحوّل وتغيير النّيمة أو *الكاراكتر*، ولكنّ انفعالاته وتعبيراتِ وقسماتِ الوجه... كلّها مؤشّراتٌ دلاليّة على الحالتين بانفراديةٍ بديعة متميّزة.

كذلك كلّ محاربي الكايي لهم طريقةٌ في تقديم التّحية للقائدِ والسّادة تختلفُ عن قبيلة تشافدار، وعنْ محاربي القصر، وهذا اتّساقٌ كامل متواترٌ في رسم شخصيّة المحارب، والتّفرقة بينه وبين محاربي القبائل الأخرى.

ناهيك عن:

- العقليّة المفرطة لجوندودو..

- والحماسة المفرطة والاندفاع أيضًا لتوتكين..

- والحكمة والاتزان الانفعالي لعلي يار..

- وامتلاء شخصية أورال بالحقد والغلّ والحسد..

- والاضطراب وزوغان البصر والوجل الدّائم في شخصية الأمير بهاء الدين، بما يتّفق مع طبيعة الخائن..

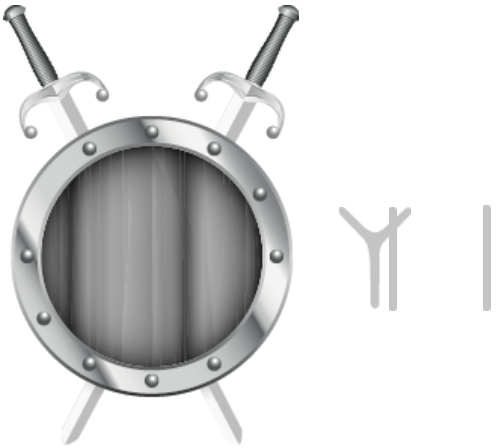
- والاتساق الكامل بين شخصيّتي نويان وألينجاك المغوليّين..

والأمثلة كثيرة... لكنّي أردت الوقوف فقط على البعض ممّا يؤكّد أستاذيّة العمل والأداء.

***

1 المقالة بجريدة الأهرام المصرية، بتاريخ ١٥ / ٨ / ٢٠١٤.

القيم التربوية المبثوثة في المسلسل



التّربيةُ.. ومفهومُها الأرْحَب

لم يحتلّ مفهومٌ من المفاهيم موقعًا هامًّا مثلما احتلّ مفهوم التربية، ولا شُغلتِ الكتبُ بمثل ما شغلتْ بالتربية لكوْنها لا تقفُ عند مرحلة، فيظلّ الفرد يتلقّى التربية في مراحل عمره المختلفة وإن اختلفتْ مسمّياتها - مباشرة أو غير مباشرة - ولا تتوقّف على بيئةٍ فيتلقّاها المرءُ في الحضر والقرى والنّجوع والخيام، وحتّى فيمَن يفترشون العراء، ولا ترتبطُ بالعلم فيتلقّاها العالم والأميّ، وكذلك يمارسُها الحاصلُ على أعلى الشّهادات والأميّ البسيط بفطرته...

وفي تعريف العلماء لها أنّها عملية مستمرّة لا تقف على مرحلةٍ عمرية معينة، وإنّ التربية الحقيقيّة المؤثرة هي التي تعتمدُ على الموقف بتأثيراته لا على التّلقين، فتستثير الموقفَ لصناعة الأثر المَرْجو، إمّا لتقوية سلوكٍ موجود بالفعل وذلك بتدعيمِه، أو بالحثّ على التخلّي عنْ سلوك سيّئ بتشويهِ صورته وتقبيح نتيجتِه وعواقبه.

التّربية عمليّة فطريّة تتولّد من عاطفةٍ تربط بين المربّي والمربَّى فتجدها بين الوالد وولده، والأستاذ وتلميذه، والشّيخ ومريده، والقائد وجنوده، بيْن الزّوج وزوجه، والحماة وكنّتها... لذا إنّ أثرَها متعدّد؛ حيث من المُمكن أنْ يتلقّاها المرءُ مِن طرق عدّة، وهناك مَن يوفّق لكلّ ما سبق فيتلقّاها مِن هؤلاء جميعًا

على مراحل حياته المختلفة.

ولعلّ أكملَ أنواعِ التّربية الحقيقية - من وجهة نظري - حين تشمل جوانب الفرد التّكوينية؛ فتشمل جانبَه العاطفيّ فتربّيه على التعاطف وحبّ الجمال والميل للصّفاء والودّ والاتزان القلبي... وكذلك تشمل جانبَه العقليّ فتنمّي ملكة التّفكير والتحليل والرّبط بين المواقف للوصول لنقطة تفسيرية صحيحة... وكذلك تشمل جانبَه الحركيّ فتعوّده عدمَ الكسل أو التكاسل وممارسة رياضةٍ معينة وتنمّي مهاراته الحركيّة إنْ وجدت... كذلك لا تغفلُ عن جانبه المَهاري فتنقّب عن مهاراته، وتعمل على تغذيتِها وتترك له المجال لتنميتها... كذلك تضعُ نصبَ عينها على جانبه السّلوكي فتصنعُ الموقف بنفسها، والذي تقصدُ منه تعويدَه على سلوك معين.

ولقد كان من بالغ الاهتمام بذلك أنْ رأينا ذلك كلّه بين ثنايا العمل، وعلى اختلاف شخوصه وتنوّعات مواقفه.. ومن بين ذلك:

يجلس أرطغرل مع ابن عربي ويشعر بالألم والضيق فيقول له ابن عربي: أنت تعرف طريقة صنع الفأس؟ فيقول له: نعم. فيقول: بالدّقّ والضّرب يتحوّل الفولاذ إلى شكل فأس. وهل تعرف كيف يصنع الصّائغ الجواهر؟ والدبَّاغ الجلود؟ لولا أن ضُرب عليه كثيرًا فإنّ ما تلبسه عليك من الجلد كان سيكون مجرّد قطعةٍ قذرة لو لم يدخلْ إلى النار لكان المعدنُ الذي على خصرك مثله مثل حجارة الجبل، حسنًا وأنت يا أرطغرل، هل تعرف ما كان سيحدث إنْ كنت لم تُمتَحَن؟ فيردّ عليه: المسألةُ ليست أنْ أمْتَحن فقط.. أصدقائي، رفقائي في القتال، عائلتي، مخيمي الذي يثقُ بي، والوزير الذي يريدُ مساعدتي، كلّهم تعرّضوا للمشاكل بسببي، ضميري يؤنبني جدًّا بسبب هذا، فيقول له ابنُ العربي: الوجودُ هو مدرسة يا بني، كلّ واحد منا يُطلب على حدة، ومُدَرّسُنا الوحيد هو الله، هو يجلّي صفاتِه ويمتحننا، ولكن القهر واللطف والرحمة والبلاء منه هو دائمًا، كلّ واحدٍ يعيش امتحانَه الخاصّ به، مَن يتخطّى الامتحان يجب أن يكون من الرجال الذين يتحمّلون يا بني. فيقول له أرطغرل: وهل الجلوس هنا والانتظارُ جزءٌ من الامتحان؟ فيردّ عليه: الله يحبّ التوكّلَ وليس التخبّطَ يا بني، إنْ وقع لك أخٌ في الضّيق فالتوكل هو أن تبحث عن طريقةٍ كي تخرجَه من ذلك الضيق دون أن تنسى وجودَ الله، هيا انْهض؛ امتحانُ البطل يكون شديدًا. (الحلقة ٧)

وحينَ يخرج ديلي دمير من خيمة السّيادة مقيّدًا بعد حديثه مع كورت أوغلو فيقول له الناس: قل لسيّدنا إنّ قلوبنا تحترق. فيقول لهم: طالما وقفتُم؛ فالكفرُ سيستمرّ، الظّلم لن يدوم، الخائنُ الذي كنّا نبحث عنه طوالَ الوقت في هذه الخيمة، احذروا. (الحلقة ٢١)

ويجلس ديلي ديمير مع مجموعةٍ من الأطفال يحدّثهم بحماسةٍ كأنّه نذيرُ جيش، في حين أنّه يحكي لهم حكايةً عن الظّالم الخائن الذي قتل الأب والأمّ،

وقد ظفر به، فاسمع ماذا يقول: هل أتَعامَى عنك بينما أمسكتُك يا هذا؟ ألنْ أسحب سيفي الأسود؟ ألن أقطعَ رأسك؟ ألن أوقع رأسك المشئوم هذا على الأرض؟ ألن آخذَ انتقام إخوتي؟ أصبحت عيناه مثل الوحش، وخرجت النار من فمِه كالتّنين، لكنّ أكبر الوحوش تخرجُ من داخلنا يا أولادي، إيّاكم أن تنسوا كلامي هذا، ليحفظ الله الأخَ من خصام أخيه، والمسلمَ من خصام المسلم، كائنًا مَن كان الذي شرب من قطرات الوحدة والتوحّد وذاقَ قوّتها ويكبر العالم في صدره سيكون بحرًا له، وكائنًا من كان الذي يريد الانقسام فلا يخرج في طريقه وسيكون بائسًا مذمومًا، الله القادرُ على كلّ شيء ليحفظنا من الاحتياج للجُبناء، ثمّ يقول وهو ينظرُ للأطفال: الذين يقولون آمين ليروْنا وجوههم.. (الحلقة ٣٢)

وفي نفس سياق عتابِ هايماه على ولديها تقول: إنْ كان والدكم سليمان شاه على قيد الحياة ما كانَ يقول بفعلكما؟! ماذا كان يقول؟ (وهما طوال الحديث يضعون رأسيهما في الأرض، ويشعران بالخزي) واجهنا المصاعب وأبعدنا الشر من بيننا نحن بحاجة إلى الوحدة والتعاون، ماذا تفعلون إذًا؟، كيف تقدرون على مواجهة الأهالي وأنتم ترفعون يدكما على بعض في هذا الوقت الصعب؟ لا أسامحكما، ولا أسامحكما على تعبي، هل كلامي واضح؟ تصافحوا وتسامحوا أمامي الآن، (فيفعلان مباشرة ثم يقبل كل منهما يد أمه) (الحلقة ٣٢)

وها هي هايماه تجلس وجوندودو وسالجان على المائدة، وتتذكّر شكلَ المائدة أيّام سليمان شاه، وتقول: يومًا ما كانت هذه المائدة تُشْبع عدّة أشخاص، ثمّ تقول: لم أنجحْ في تحقيق الأمان للقبيلة. فتقول لها سالجان: لمَ هذا الكلام يا أمي؟ فتقول: إنْ لم يكنْ هناك اطمئنانٌ على المائدة فلنْ يكون هناك مَن يأكل، وإنْ لم يكنْ هناك مَن يأكل فلا يوجد وحدة. (الحلقة ٣٤)

وحينَ يتحدّث ديلي دمير مع الصّغير تورالي فيقول له: يا بنيّ، حين لا تهتمّ الأهالي برجالها، حينها يكون الوقتُ الذي يتدمّر فيه الأهالي، وحين يترك الأسيادُ رجالهم وحيدين حينها يكون اليوم الذي يقتلون بعضهم فيها. (الحلقة ٣٧)

ونحنُ على اختلافِ هذه المواقف - التي أوردها هنا - نجدُها تجمعُ حتّى الآن معانٍ شتّى، وأريدُ منها الإشارة إلى أنّ التّربية متنوّعة ومتشعّبة، ولا يمكن أن نقصرها على الوالدين لأولادهما وفقط، ولكن تمتدّ بصورها الشّاسعة لتتّسع الصّورة، ويزدادَ الأمرُ وجاهة ووضوحًا..

يدخل تورالي على آرتوك ويسأله: هل سيعود سيدي جوندودو إلى القبيلة؟ (وقد ذهب ليخلّص سالجان من يدِ نويان الذي اختطفها) فيقول له آرتوك: هل يعودُ محاربٌ إلى قبيلته دونَ الانتقام لشقيقه، أو سيّد دون الانتقام لمحاربيه؟ أو هلْ يعود رجلٌ دونَ محاسبة من آذى زوجته؟! فيقول تورالي: لا يعودُ يا

سيدي آرتوك. فيقول له: أحسنتَ يا بطلي. (الحلقة ٤٦)

ينام أرطغرل منتظرًا ولادةَ حليمة، فيرى والدَه في المنام يقول له: يا بنيّ، حينما يموت الحيوانُ يبقى أثرُه، وحينما يموتُ الإنسان يبقى أثرُه، وأجملُ أثرٍ للأب هو أبناؤه، وإذا أردت أن تصبح سيّدًا يجب أن تحبّ أهلَ القبيلة، ويجب أن تشعر بحبّ أطفال قبيلتك كما تحبّ طفلك، والآن ليكنْ طريقك طريقَ الفتوحات الذي سيكون بها طريق أطفالك، والآن الذي سيأخذ طريق أجدادنا هو أنتَ ونسلك، لا تملّ ولا تيأس، وقاومْ بكلّ طاقتك وقدرتك، وليكنِ النّصرُ في طريقك وطريق أطفالك. (الحلقة ٥٥)

يقع غوندوز بن أرطغرل على وجهه فتوبّخ حليمة الخادم، وتأتي هايماه على المشهد فتقول لها: ابنتي، البطلُ الذي تقولين عنه يكبرُ مع الوقت، الأمّهات موجوداتٌ من أجل أن يقمن بحدِّه مثل السّيف، إن كنتِ ستعانقينه كلّما وقعَ وتمسحين دموعه فستربّين جبانًا وليس شجاعًا. (الحلقة ٦٢)

يحمل أرطغرل الدّرعَ، ويمسك ولدُه غوندودو بالسيف يلاعبه، يتصنّع أرطغرل أنه وقع فيقول: لقد هزمتني، أنا أستسلم.
فيرفع غوندودو السّيف ليضربه فيقول له أرطغرل: العدو الذي يستسلم يصبح أسيرًا، ونحنُ لا نقتل الأسرى يا بطلي. يقبّله ثمّ يقول له: ما علّمته لك ستعلّمه لأخيك عندما يكبر. (الحلقة ٧٠)

تجلس هايماه مع أرطغرل تهنّئه بفتح السّوق والنصر، فتقول له: مهْما شكرنا الله لأنّه أعطانا ولدًا مثلك؛ فهو قليل. فيقول لها: ليسَ فقط سوقُ الخان، بل حتّى لو فتحتُ العالم كلّه فلا شيء يجعلني أفتخرُ أكثرَ من كوْني ابنَك يا أمّي. (الحلقة ٧٠)

يبدأ أرطغرل تجهيزَ الخان لمحاكمة أورال على جرائمه، فيقول ديندار: حتى المحاكمة كثيرة على أورال ذاك. فيقول أرطغرل: أنت سيّد يا ديندار، إيّاك أن تنسى هذا، إنْ ترِدْ جميع الناس الذين يتبعونك أنْ يلحقوا بك سوف تتصرّف بعدالة، لهذا السّبب سيقيم الله المحكمةَ الكبرى ويقعُ على عاتقنا السّير في طريقه. فيقول: أنت محقّ يا أخي. (الحلقة ٧٥)

يدخل أرطغرل خيمتَه فيجدُ حليمة تقف مع غوندوز الذي يلوّح بالسيف فيقول له: ماذا تفعل؟ فيقول: أعطي محاربيّ التّعليماتِ يا أبي. فتقول حليمة: يغضب على محاربيه منذ الصّباح. فيقول: متى رأيت تعليماتٍ كهذه؟! فيقول غوندوز: استحقّوا يا أبي. فيقول أرطغرل: هل أعلّمك كيف يدرّب السّيدُ محاربيه؟ فيقول: نعم. فيقول أرطغرل: أوّلًا ستعطي قلوبهم الشجاعة.
فيقول: كيف يا أبي؟ فيحمله على كتفِه ويقف به ويقول له: ارفعْ سيفك، يا رجالي، يا أبطالي، ذوي القلوب الجريئة عندما كان جبلُ الحديد يذوب، وعندما كان النّهرُ الهائج يصمت مَشَيْنا في الطّريق ووضعنا أثرَنا واسمنا، عندما كتبنا

اسمَنا على الحجر وختمَ بختم الإيمان على قلوبنا ثقبْنا السّماءَ الزرقاء، وأرْجَفنا الأرضَ القوية، جعلنا من الشمس بوصلةً، ومن السماء خيمة، وصرخنا لجميع العالم العدالة والحرية إلى الأبد، مَن نحن؟ نحن الشّهداء الذين يموتون في سبيل دعواهم، نحنُ الأبطال الذين يغيّرون نظامَ العالم، نحن الذين دينُهم الإسلام، المسمّون الأتراك. فيرد غوندوز: اسمنا أتراك، اسمنا أتراك. (الحلقة ٧٩)

يركب غوندوز بن أرطغرل الحصانَ، فيقول لوالده: أبي، لماذا عندما أركبُ الخيل لا يقفُ في الهواءِ مثلك؟! فيقول له أرطغرل: الخيلُ تفعل مثلَ صاحبها يا عزيزي غوندوز، عندما تقفُ أنت ستقفُ هي أيضًا. (الحلقة ٨٣)

بعد مقتل دوغان يجلس ديندار يعاتبُ ويعنّف نفسه بسبب خطئه، فيقابله ابنُ عربي فيقول له: يقول رسولُنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - إنْ لم نرتكب ذنبًا، فالله يهلكك ويخلقُ عبيدًا يرتكبون الذنب ويتوبون من خلفه، وحكمةُ ذلك هي كالتالي.. الأخطاءُ والآثام هي مِن أجلنا نحن البشر، يجب أن نتوب ونلتجئ إليه.
فيقول له ديندار: سيدي.. ماذا إنْ ذهبت روحُ إنسانٍ بريء بسبب هذا الخطأ، وبقيت زوجتُه الحامل التي تبكي خلفه؟ فيقول ابنُ عربي: ديندار ألب، لا يوجد أيّ إثم أكبر من رحمة الله، هو يعفو ويحبّ العفو، المسألة ليست أنْ نرتكب خطأً؛ بَل أنْ نأخذ درسًا من الخطأ ولا نكرّره. (الحلقة ٨٧)

يدخل ابن أرطغرل غوندوز حاملًا سلاحَه قائلًا: أبي أنا جاهز، فلتودّعني أمّي أيضًا للحرب. فيحملُه ويقول له: إنْ أتيت معي فمَن سيحمي والدتَك يا ولدي؟ مَن سيهتمّ بقبيلتنا؟ فيقول: قلت للمُحاربين، هُم يحْمونها. فيقول له: لا يصلح، بينما أنا في الحرب ستكونُ أنت على رأس القبيلة. (الحلقة ٩١)

يحكي غوندوز لأمّه وجدّتِه أنّه فقأ عينَ أريس بعدما أخذوا منه سيفه (الخشبي!!) فتقول له أمّه: أجلْ لقد خافوا بالطّبع، هذا يعني أنّهم عرفوا ماذا يمكن أنْ تفعل لو كان لديك سيف!! ما شاء الله يا عزيزي غوندوز. (الحلقة ١٠١)

يجلس أرطغرل مع هايماه وحليمة يخبرهم بوظيفتهنّ في غيابهم لفتح القلعة، ويدخل غوندوز ويقول لأرطغرل بعد أنْ يعطيه تحيّة المحاربين: أريدُ أن تعطيني وظيفةً أيضًا. فيتذكر أرطغرل أنّه أفشى سرّ فتح القلعة من قبل دونَ قصد، فأرادَ أن يربّيه على حفظ السّر؛ فقال له: ستفتحُ عينَك وأذنك ولكن.. يجب أن تتحكّم بلسانِك أوّلًا،
بالأخصّ إن كان سرًّا مهمًّا، قال أجدادنا إنّ السّر الذي لا يبقى في فمِك كيف يبقى في فم الآخرين!! المحارب لا يقول ما سمعه في كلّ مكان، اتّفقنا؟ ثمّ يشرح له وظيفته فيقول: بعد أن نذهب، أنت رجلُ قبيلتنا وخيمتنا، أنت المسئول عن أمانهما إلى أنْ نعود من الحرب. فيعطيه تحيّة المحاربين ويقول

له: الأمر لك يا سيدي. (الحلقة ١٠١)

وفي الخيمة تجلسُ هايماه مع حليمة وحفصة ترتّبان أمرَ العزاء لأسَرِ الشهداء، فيدخل غوندوز، ويقول: وأنا أريدُ أن أشارككم. فتقول له هايماه: ادخلْ معنا خيمةَ العزاء، لدى الشّهداء أطفال، هُم إخوانك، تظهَرُ الأخوّة والصّداقة في هذه الأيام، حسنًا يا بطلي؟ فيقول: حسنًا يا جدّتي. وعندما يعودُ تقول له أمّه حليمة: هل تحدّثت مع إخوتك يا عزيزي غوندوز؟ (وانظرْ إلى ثمرة التربية حين يقول لها): تحدّثت يا أمّي، واسيتُهم جميعًا، قلتُ لهم تعالوا إليّ إنْ كان لديكم هَمّ. (الحلقة ١٠٢)

هذه التربية التي تؤتي ثمارها في وقتها وقد تبدّت هنا في مشهد لغوندوز بن أرطغرل حين تمّ فتحُ القلعة، وجاء آرتوك يبشّر بذلك، فيسأل غوندوز عن ماريّا: هل هي بخير؟ وقد كانت تقومُ بمساعدته حين كان مخطوفًا في القلعة. (الحلقة ١٠٣)

يقف أرطغرل يحاسب ابنَه غوندوز الذي أعطى المالَ للمرابين للتّجارة به من غير أنْ يعرف، فيقول له: كيف تأخذ كسبَك من دون أن تعرف إذا كان حلالًا أم حرامًا؟!! فيقول غوندوز: أبي، أنا... فيقاطعه ويضربُه على وجهه ويقول له: إيّاك أنْ تقول لي أبي، اغربْ عن وجهي. ثمّ يخرج في مهمّة بعدها فيأتي إليه غوندوز ويقول له: أردتُ قبلَ أن تذهب أن أقبّل يدَك وأنالَ رضاك. فيسحبُ يدَه من أمامه ويقول له: مَن لا يأخذْ رضا الله لا يأخذْ رضانا أبدًا يا بنيّ. (الحلقة ١٢١)

يجلس أرطغرل مع هايماه وسالجان وأولاده وسليمان بن جوندودو، فيقول سليمان: نحنُ نشعر بغيابِ والدي دومًا، وكأنّ عمودًا من خيمتنا ناقص. فيقول أرطغرل له: لمَ الأبناء موجودون يا عزيزي سليمان؟ أنتم الذين ستحلّون مكاننا، إنْ لم يكنِ الأبُ موجودًا فأنت ستكونُ العمود، لن نكونَ نحن موجودين دائمًا يا سليمان، عندما نهاجر من هذه الدّنيا التي فيها مجيءٌ وذهاب، والتي آخرُها الموت إلى دار البقاء ستبقون أنتُم مكاننا، إنْ كنا نحنُ قد زرعنا بذرةً فأنتم ستكبرونها، إنْ كنا قد زرعنا غرسةً فأنتم ستكبرونها، وتجعلون منها شجرةَ جمّيز، الفتاةُ لا تأخذُ بالنصيحة إن لم تعلّمها أمّها.. والابن لا يحضرُ طعامًا للمائدة إن لم يعلّمه أبوه، ماذا يفعل الابن إن لم يبقَ له مالٌ من أبيه؟ وما الفائدة من أموال الأب إن لم تكنْ لنا دولةٌ فوق رأسنا؟ من الآن وصاعدًا أنتم جميعا أبناءُ دولةٍ تجعلون اسمَ أجدادكم يستمرّ، ليحمنا الله جميعًا من شرّ البقاء من دون دولة. (الحلقة ١٢٩).. تأمّل معي كيف أنّ أرطغرل صرفَ ذهنَه إلى معنًى يريده منهم كمربٍّ، وقدْ كان من المُمكن أن يطمئنَه بوجوده جانبه، وأنّه مثلُ أبيه وفي مقامه، ولكنّ التّربية الحقيقيّة التي تصنعُ الطّمأنينة بصناعةِ الرّجولة والمقْدِرة.

تدخل حفصة على هايماه تحدّثها في هموم بامسي وتغيّره بعدما عزله

أرطغرل من رئاسة المحاربين، ولم يسمحْ له بالحرب في صفّه بعدما أنقذ ابنه آيبارس، فتقول لها هايماه: بامسي أراد إنقاذَ ابنه، ولكنّ السيدَ ابن السيد لا يقوم بالتّفرقة بين أولاده وأيّ طفلٍ في قبيلته، هل تظنّين أنّ حال آيبرس لم يحرقْ قلبَ أرطغرل؟ ولم يثقلْ كاهله؟ كان على بامسي الطّاعة والصّبر، وأنتم كزوجٍ وزوجة تمرّون بأيام صعبة، وهذا هو امتحانكم، وأفضلُ طريق وأكثرُ شخصٍ يتّضح عند الصعاب، القرارُ النهائي بحقّ بامسي سيصدره سيدُنا. فتقول حفصة: ماذا لو أصدرَ السيد أرطغرل حكمًا قاسيًا على بامسي؟!! فتقول لها هايماه: ماذا يمكنه أن يفعلَ عندها؟!! فتقول حفصة: من الممكن أنْ يترك القبيلة، فليس لدينا حلّ سوى أن نحمل خيمتنا ونرحل. فتقول لها هايماه: عزيزتي حفصة، هذه قبيلةُ الكايي، إنّها ليست خانًا للقوافل، يستقرّ فيه من يأتي ويرحل منها مَن يريد، قد تسقطون مِن العين بالخطأ الذي ترتكبونه في وقتٍ ما وتتحمّلون عقابكم وتدخلون في العيون مجدّدًا، ولكنْ إنْ حاولتم الرّحيل ستسقطون مِن القلوب، ومَن يتمّ مسحُه من دفتر القلب لا يمكن كتابتُه مجدّدًا أبدًا. (الحلقة ١٤٤)

لقد ألحّ العملُ على تأكيد هذا المعنى - التربية الصحيحة - مرارًا وتكرارًا، وكأنّه عملٌ ترسيخيّ يحاولُ مؤلّفه أنْ يرسّخ هذه المبادئ في نفوس مُستهدفيه - الوطنيّين والعالميّين - بما يحقّق تصحيحًا لمسار البيت والمجتمع معًا.. كقيمة من قيم البقاء والاستمرار.

***

الأمومةُ مَعينٌ لا يَنْضب

احتلّتِ الأمومةُ مساحةً كبيرةً من العمل؛ تجلّتْ في كلّ أجزائه الخمسة (هايماه - حليمة - سالجان - حفصة - بانو شيشيك-..) وتحتلّ في ذلك هايماه موقعَ الصّدارة لكثرةِ مواقفها، ولتواجدِها في جميعِ أجزاء العمل؛ جاءتْ تربيتُها لأولادها على الرّجولة، بل وحتّى مَن تعتبرهم في منزلة أولادها كـ (تورغوت ودوغان وبامسي)، وبدتْ سافرةً نصائحُها التي لا تنفكّ عن كلّ المواقف، تهدي الطّريق، وتبيّن الحقيقة، وتثبّت على الأمور.

إنّ هذه المشاعر لتُدهشُ المُشاهدَ بتعبيراتِ الوجه في لهفةٍ غيرِ مفتعلَةٍ يشعرُ بها طبيعية، حتّى عند فقْدِ أحدهم وتغيّبه تظلّ على ثقةٍ أنّه عائدٌ لها لا محالة، وكأنّ القلبَ موصولٌ بحبل القضاء لا يفقدُه أبدًا، ها هي تضعُ لابنها سنغورتكين ملعقتَه على المائدة، وهو الذي تغيّب لأكثر من عشرين سنة، ومع ذلك له مكانتُه على المائدة حتّى يعود، حتّى إذا عادَ جسّد المسلسلُ لحظةَ تقابلهما معًا في صورةٍ بديعةٍ تقشعرّ لها الأبدان، فنجدُ هايماه تتفحّص كلّ جزء في وجْه ابنها، وتمسّ - في رقّة - ضفائرَ شَعْره وتقاسيمَ وجهه.. ثمّ إنّها في عزّ مشاكل القبيلة والتي لا تحتملُ غيابَها - حينها - نجدُها تذهبُ مع ابنِها المريض جوندودو لعلاج ذراعِه من الدّامل، وكانَ من المُمكن أن تتركَ معه زوجتَه، لكنّه قلبُ الأمّ الذي ينبض طوالَ العمل بالحبّ والعطاء والحرصِ على أولادها، أمّا لحظة معرفتها بأنّ ابنها أرطغرل مازالَ على قيْد الحياة وأنّه ذهب ليفتح القلعة ويأسرَ آريس، فحدّث ولا حرجَ عن الجَمال والرّوعة وصدمةِ التّلقي المروّعة غير المتوقّعة في مشاعر الأمّ المتداخلة بين الفرحة والدّهشة والضّحك والبكاء!!!

جاءَ العمل مُظهرًا لهذه القيمة أيّما إظهار، فتجلّى ذلك في كثيرٍ من المواقف، نذكر منها:

تدخل هايماه على خيمة النّساء الأسيرات؛ حليمة وجوكتشا وآيكيز وسالجان، فتقول لها جوكتشا: خفتُ عليك كثيرًا يا أمّي. كيف نعيش من غيرك؟ فتقول لها هايماه: آه يا ابنتي الجميلة، الخوفُ لا يليق بنا، إنْ هُدمنا هكذا فإنّنا ستُفرح هؤلاء الظلمة (وتقول وهي تبتسم لها) امسحي دموعَك ولتتفتّح ورودك في وجهك. فتسألها حليمة: كيف حالُ سيدي سليمان شاه؟ فتقول لها: سليمان شاه مثل الأسد يا ابنتي، إنّ ما يقع علينا فعلُه هو أن لا نفقدَ أملنا، كما قال نبينا الكريم أنْ نسلم أمرنا كلّه لله تعالى. (الحلقة ٢١)

وها هي هايماه تقفُ في عتابٍ على ولديْها (أرطغرل وجوندودو)، اللّذيْن تشاجرا (وهما طوالَ الحديث يضعان رأسيْهما في الأرض، ويشْعُران بالخزي): واجهنا المصاعب وأبعدنا الشرّ من بيننا، نحنُ بحاجةٍ إلى الوحدة والتعاون، ماذا تفعلون إذًا؟، كيف تقْدِرون على مواجهة الأهالي وأنتُم ترفعون يدَكما

على بعضٍ في هذا الوقت الصّعب؟!! لا أسامحكما، ولا أسامحكما على تعبي، هل كلاميَ واضح؟ تصافحوا وتسامحوا أمامي الآن، (فيفعلان مباشرة ثمّ يقبّل كلّ منهما يدَ أمّه) (الحلقة ٣٢)

ثمّ لا تغفل الأمّ حقيقةَ المشاكلِ التي تدبّ بين ابنِها وزوجته، فعندما يضرب جوندودو زوجتَه تذهب أمّه إليه وتأمرُه أن يعيدَ زوجته إلى خيمتِه، وتقول له: هل يليقُ أن ترفعَ يدَك على زوْجتك؟! بني، أنتَ ابنُ السّيد! أنتَ إنْ فعلت هذا فماذا يفعلُ الأهالي!! في عرفنا لا تُرفع اليدُ على المرأة، هيّا انهض؛
فالمسكينةُ أصبحتْ حالتُها مزْرية منذ ليلة أمس. ثمّ تأتي سالجان إلى هايماه بعد ذلك، فتستقبلُها بمشاعرِ الأمومة، وتقول لها: سالجان، أنت لستِ زوجةَ ابني، أنتَ ابنتي، لا تقولي هذا. في هذه الدنيا هناك حلّ لكلّ شيء إلّا الموت. اجلسي واهدئي واجْمَعي قواكِ، ثمّ نتكلّم. (وتمسح دموعها) (الحلقة ٣٢) حتّى عندما يصل الأمرُ إلى درجةٍ لا يتحمّل معها جوندودو العيشَ مع زوجته ويقرّر الزّواج بأخرى تتحرّك بمشاعرِ الأمومة لا بمشاعر أمّ الزوج؛ فتدخل هايماه على ابنها جوندودو بعد خطبته لغونجاجول، وتقول له: زفافك بغونجاجول قريب، الله يسعدُكم دنيا وآخرة، أنت ولدُ السيد، أنتَ مكلّف بفعل كلّ شيء بأحسن أداء.
انظرْ يا ولدي، سالجان هي امرأتُك وابنتي أيضًا، لا تتجاهلْها أبدًا، كلّ وقتٍ اسأل عن حالها وخاطرها، لا تهْمِلها وحيدةً في خيمتها، عشْ قليلًا بجوارها. (الحلقة ٤٢)

انظرْ إليها (والكلامُ مازال مستمرًّا عن هايماه) حين يدخل دومرل عليها، ويخبرها أنّ كوركوت (أخاها، زعيمَ قبيلة الدّودورغا) أرسل المحاربين خلفَ أرطغرل بعد أن طردته أمّه من القبيلة لخطأ ارتكبَه، وكانتْ متعَبَةً جدًّا فتهمّ بالحركة، فيقول لها جوندودو: أمّي، أنت متعبة جدًّا، دعيني أنا أتكلّم مع خالي. فتقول له: يكفي هذا يا بني، قد حان وقتُ إيقاف هؤلاء عند حدّهم، وقد تأخّرنا حتى، ماذا يعني أن يرسلَ المحاربين خلف ولدي الذي طردتُه؟! أيتقصّدون روحه؟! (الحلقة ٣٤)

وما أجملَ التّعبيرَ الصّادق حين تبثّ ما بداخلها فتقول في إحدى الجلساتٍ مع جوندودو: في داخلي أعيشُ الحربَ، إنّ الأمّ هايماه تعِبَتْ من السيدة هايماه. (الحلقة ٣٥)

وها هي تجسّد في كلماتٍ بسيطةٍ حقيقةَ الأمومة حين يجلس سونغورتكين معها، ويقول لها: قد تألّمتِ كثيرًا لكلّ واحد منّا على حدة، ومازلت تتألّمين، لو كان حجرًا لانفلق، قبل أن ينتهي همُّ أحدِنا يبدأ الآخر! فتقول له: إيه يا بني! الأمومةُ ليست سهلة، التي تكون أمًّا تتخلّى عن نفسها وألمها. (الحلقة ٤٩)

وما أجملَها حين توصي مَن في منزلة ابنتها، فتجلس مع جوكتشا (أخت سالجان، والتي قامت بتربيتهما بعد موت أبيهما)، تجلس معها بعدَ زواجها مِن

توتكين وتقول لها جوكتشا: سيدي توتكين قد جنّ جنونُه بسبب ما حدث، صارَ يغضب لكلّ شيء. فتقول لها هايماه: أنت الآن زوجةُ السيد، وهو حتّى لو كان مثلَ النّهر يفيض ويصْخَب، ستكونين أنت مثلَ المحيط وهو سيصبّ عندك ويتوقّف، مهْما عشتِ لا تنسي كلامي هذا، من بعد الآن لا تأتي إليّ كفتاة صغيرةٍ كلّما وقعتْ في ضيق، قفي شامخةً مثل زوجة سيد حقيقية. (الحلقة ٥١)

وفي نفْسِ السّياق تجلسُ هايماه مع حفصة تلقّنها حقيقةَ الأمومةِ وأصولَ التّربية، في مقارنة بديعةٍ للسيّد والسيّدة في القبيلة، فتقول: إنّ السّيدَ هو الذي يُحارب.. لكنّ السّيدةَ هي التي تَغْلي القِدْر، السّيّد هو الذي يُبْقي القبيلةَ واقفةً.. لكنّ السّيّدة هي التي تَجْمعُها، السّيّد هو عقْلُ القَبيلةِ.. لكنّ السّيّدة هي روحُها. ثمّ تقولُ لها: لقدْ سمعْتِ منّي الآنَ فلتسْمَع منْكِ ابنتُكِ غدًا. (الحلقة ١٥٠)

ويظلّ دعاؤها لا ينقطعُ عن أولادها، بل وأحفادِها، فتحمل حفيدها غوندوز وتقبّله وتدعو له قائلة: ليبارك الله قدرَك، وليزدْ نسلك ويحفظْ أصلك، وليبعدْك الله عن المصائب، وليعزّك الله في الدّنيا، ولا يحرمْك من رحمة والدك وشفقةِ أمّك، ليكن مجيئك بركةً للقبيلة.
والكل يردّد حولها آمين مع كلّ دعوة. (الحلقة ٥٦).. ألَا ما أجملَ الدّعاء حين ينطلق من قلب الأمّ الذي لا يعرف الكَراهية أو الشّحناء!! ثمّ تتوجّه بكلامها إلى حليمة التي تداعبُ صغيرها بحديثها فتقول لها: عندما يكبر غوندوز فأنت أيضًا ستحملينَ يومًا العبء الذي أحمله مع أربعةِ أولاد مثل الأسود، من أجل أن تجمعيهم معًا، ومن أجل أن تريْنهم سعداء، ومن أجل أنْ لا تنقص المائدةُ واحدًا منهم؛ سوف تتخبّطين عندما يصبح لديك ولدٌ آخر، وعندما يحدث الشّقاق بينهما، عندها سوف تتذكّرين كلامي، عندها سوف تفهمينني، أصعبُ وظيفةٍ للأمّ هي إزالةُ الانقسام من بين أولادِها، لا تنسي كلامي هذا. (الحلقة ٥٩)

ثمّ ها هي تجلس تهدهدُ المهدَ الفارغَ من حفيدها بعد قرار أرطغرل أن يهاجر وزوجته وطفله، وتقول (حسرةً على فقد أولادها وتشتّتهم كلٌّ في مكان): يا ربّي، لا تسمح لأولادي أن يَفْرطوا ويتناثروا مثلَ حبّات المسبحة، لا تجعل النّزاع يلتهمُ خيمةَ سليمان شاه، خذْ روحي يا ربي ولا تجعلني أعيشُ هذا الألم. (الحلقة ٦٠)

وحين يجلس أرطغرل مع أمّه هايماه يطلبُ منها السّماح لأنّه سيهاجر، فتقول له: وماذا أفعل في قلبِ الأمّ الذي لديّ؟! بينما أفديك بروحي كيف أقول لك اذْهب؟! في اليوم الذي أخذتُك فيه في حضْني قد سامحتُك، كيف لا أسامحُك يا بني؟!
لا تأخذْ قلبي وتذهب يا بني.. (وتنظر إليه نظرةَ استعطافٍ) فيقول لها: أنت

أيضًا تعالي معي يا أمّي، لا تتركي حليمة وغوندوز ودوندار وحدَهم. فتقول له: كيف أترك سونغورتكين وجوندودو وابنتي سالجان وحدَهم؟! وهل يليق بي الذّهابُ وترك خيمة والدك؟! (الحلقة ٦١)

وفي لقطةٍ لها مع حليمة تتحرّك داخلها عاطفةُ الأمومة الموجّهة لكنّتِها كيف تربّي ولدَها، فحين يقعُ غوندوز بن أرطغرل على وجهِه، وجدنا حليمة توبّخ الخادم، فتأتي هايماه على المشهد فتقول لها: ابنتي، البطلُ الذي تقولينَ عنه يكبرُ مع الوقت، الأمّهات موجوداتٌ من أجل أن يقمنَ بحدِّه مثلَ السّيف، إنْ كنت ستعانقينه كلّما وقعَ وتمسحينَ دموعَه؛ فستُربّين جبانًا وليس شجاعًا. (الحلقة ٦٢)

وتجلس هايماه مع حليمة وأصليهان، وبعد أنْ ترى أنّ أصليهان تتحدّث عن أرطغرل وتنظر إليها حليمةُ بغيرةٍ، فتتحرّك مشاعر الأمومة المربّية داخلها فتبثّ روح الثقة والطمأنينة في قلب حليمة، فتقول هايماه: أذكرُ أوّل يوم أتتْ فيه السيدة حليمة إلى المخيم، لم أصدّق ما قالتْه لا أنا ولا السّيدة سالجان أبدًا، لكنّها انشغلت وجاهدت، وجمعتْ ألوانًا لم نرَها في حياتنا على سجّادانا، وليس هذا فحسب، بينما كنت أقول أنا وسليمان شاه إنّ هذه البنت لن تنجح، ولا يمكن أن تعطينا حفيدًا صالحًا؛ دخلت حياتنا، ومِن الجيد أنّها فعلت، ليجعل الله من نصيب كلّ أمّ كنّةً مثلها. ثمّ تقول موجّهةً كلامها لأصليهان: آملُ أن يرزقك الله - أيضًا - شخصًا شجاعًا، يناسب نسبَك يا ابنتي أصليهان. (الحلقة ٦٦)

وفي نفس السياق، تشعر أنّها لا بدّ أن تقومَ بتربية حليمة في كيفية التّعامل مع زوجها والردّ عليه، فحين تجلس حليمة مع هايماه وتقول لها بعدَ ما استشارهم أرطغرل في قبول الدّية من أورال: ماذا إنْ خرجَ هذا الرّجل ذاتَ يومٍ وأصبح سيدًا لقبيلة تشافدار؟ ماذا سيكون حالنا في ذلك الوقت؟ فتقول لها هايماه: حليمة، متى كانتِ النّساء تحاسبُ أزواجهنّ على أوامرهم؟ العملُ لمَن يعرفه، والسيّد لمَن يتقلّده يا ابنتي، تقومين بعملٍ طفوليّ يا حليمة، عودي لرشدك. (الحلقة ٧٧)

وحين يعنّف أرطغرل أخاه ديندار بعد خطئه أمامَ الجنود، ثمّ عندما يذهب لأمّه في الخيمة يجدُه عندها، فيقول لها أرطغرل: بعد إذنِك، أريد أن أتحدّث كلمتيْن مع أخي يا أمّي. فتقول: حسنًا يا بني... (ثمّ توجّه الكلامَ لهما) أبنائي، لا تنسوْا أنّ الأخ مأوًى لأخيه، ليس لكم مكانٌ تلتجئون إليه غير بعضكم. ثمّ تربّت على صدر ابنِها ديندار كأنّها تشدّ من أزره ليتحمّل ما سيقوله له أخوه الكبير. (الحلقة ٨١)

وتتجلّى هذه الرّوح الغَيورة على أولادها حين تعنّف حليمة غونيلي بعد أخذِها المنسوجات من صندوقِ حليمة، فتقفُ أصليهان وتقول لحليمة: أعلمُ أنّك لا تحبّين هذه المرأة، ولكنْ إن فعلت ذلك فلنْ تجدي مَن يكون صديقًا. ثمّ تقول

لهايماه: لن يسيرَ الأمر هكذا يا أمّ هايماه، اسمحي لي أنْ أكلّف غونيلي بعملٍ آخر. فتقول هايماه: لا يُمكن يا ابنتي، السيدة حليمة ستجتازُ هذا الامتحان. الخسارةُ سهلة.. المهمّ في الأمر هو كسبُ الإنسان. (الحلقة ٨٢)

الأمّ هنا تنظرُ إلى كنّتها - سيّدة القبيلة - والتي يجبُ أن تتعهّدها بالرّعاية، فهي لن تتركَ الموقف سدًى، ولكن أرادت أنْ تصقلَ خبرتها وتزيدَها حِنكةً في كسب القلوب أكثرَ مِن كسب المواقف.

وفي مشهدٍ آخر، تجلس هايماه مع حليمة تنتظرُ قدومَ أرطغرل مخلّصًا لأخيه ديندار من الأسر، فتقول حليمة: كمْ هو صعبٌ مشاهدةُ الطريق ويدُك على قلبك؟! فتقول هايماه: ولدُك الآن همّه همّ الطّعام فقط، ليكبرَ ويصبحَ شابًّا، وليمتطي خيلَه؛ حينها ستفهمينَ ما هي الأمومة؟ وما هي معاناة ألمِ الابن؟ وما هو خوفُ غيابهم؟ أنا عشتُ هذا يا ابنتي. (الحلقة ٨٥)

وبنفس العاطفة تتحرّك روح البنوّة في قلب حليمة، فحين تلحق هايماه بحليمة وهيلينا (حفصة بعد إسلامها) وهما ذاهبتان إلى مصنع السّجاد، تقول حليمة: أمّي، لا تأتِ اليوم، نحن سنتدبّر أمرَ مصنع السّجاد. (وهي تشفقُ عليها حين رأتْ حزنها على فقْد ولدها ديندار، وتركه للقبيلة) فتقول لها هايماه: كمْ من الأمّهات يذهبنَ إلى العمل وقد استشهِدَ أبناؤهنّ.. كيفَ لا أذهبُ أنا؟! (الحلقة ٨٦)

ثمّ ها هي حليمة التي تربّت على مائدةِ الأمّ هايماه تحيى بعض هذه المعاني، فحين يتمّ اختطاف غوندوز تجلس حليمة تبكي وبجوارها حفصة، وتقول: لأفدي كلّ مكانٍ لمستَه وكلّ شبرِ ترابٍ وطأته، هناك أثرٌ من غوندوز في كلّ مكانٍ يا حفصة، أراه في كلّ مكانَ أنظرُ إليه، هذا الألم يأكلني وينْهيني. (الحلقة ١٠٠)

وفي ملمحٍ آخر يجسّد قيمةَ الأمّ التي تربّي وترعي حتّى غير أولادها فتَنْعَم بالبنوّةِ منهم، فها هما تورغوت وبامسي يبكيانِ لمرض هايماه ووقوعها المفاجئ، ويتذكّران دورَها معهما بعد فقْد آبائهم، فيقول تورغوت: إنّ داخلي يتمزّق ويأكلُ بعضُه بعضًا، لا بدّ من أنْ نجد شفاءً للأمّ هايماه. (الحلقة ١٠٥)

وها هو ابنُ عربي يشرح لحليمة معنى الأمومة فيقول: لا تنسي يا ابنتي، الأمّ تعني الموقد، تجمع الجميعَ حولَها وتدفئهم، الأمّ تعني الموطن تُشبعُ وتهتمّ وتحافظ، الأمومةُ مقامٌ مقدّس هكذا. (الحلقة ١١٠)

ولكَ أن تنظرَ إلى حفصة بمشاعرِ الأمومة المتفجّرة لديها، والمتمثّلة في نظراتِ عينيها وحركاتِ يدِها المضطربة وعدمِ توازنِ حركةِ جسدها؛ حين تمّ اختطاف ابنِها آيبارس، ومِن قبْل كيفَ كانتْ ستأكلُ الجنود المُهاجمين بأسنانِها دفاعًا عن ابنها وابنتِها أصليهان الصّغرى!!

ثمّ عندما يعود آيبارس إلى القبيلة مع أبيه بامسي؛ ها هو عثمان - عندما يرى

لحظةَ الشّوق والحبّ لحفصة معَ ابنها حين عودتِه سالمًا - يشتاقُ إلى أمّه حليمة، التي لمْ يرها، فيسأل سالجان زوجةَ عمّه: هل أمّي كانت مضحّية مليئةً بالحبّ؟ فتقول: كلّ الأمّهات كذلك. أتعرفُ معنى الأمومة؟ الأمّ يتجمّد قلبُها عندما يهطلُ الثّلجُ على رأس ابنِها، وإذا لامستْ أشعّةُ الشّمس جلدَ ابنها يحترق قلبها. (الحلقة ١٤٤)

إنّ هذه الصّور الحيّة لتجسّد بما لا يدعُ مجالًا للشّك أنّ العملَ يحوي كثيرًا من الدّلالات التربوية لكلّ أمّ تريدُ الحفاظ على مكتسباتِ تربيتها، بما يضمنُ لها البرّ منهم فيما بعد.

إنّ هذا الحشد الهائل من المواقف التي تتجسّد فيها الأمومة في أبْهى صورها وأخلصِها لم يأتِ من فراغٍ ولا سدًى؛ وإنّما هو إلحاحُ دراميّ بديع لتأصيل هذه القيمةِ الفطرية التي لا غَنَاءَ عنها للطّرفين - الأمّ والولد-؛ وما أجملَ الاسْتشهاد هنا بقولِ الرّافعي في ذلك المعنى: لا تعتقدِ الأمّ أنّها تمنّ على ولدِها حينَ ترضعُه؛ بل هو الذي يغذّي لديْها إحساسَها بالأمومة حينَ ترضعُه.

وهكذا ستظلّ فكرةُ الأمومة محوطةً بسياجٍ من الحماية الرّبّانية حين ارتباطها بتوْحيده عزّ وجلّ وعبادته، وكذلك الحماية المجتمعيّة بما تعارفتْ عليه القلوبُ من انسجامٍ مع الفطرة الإنسانية النقية.

***

الأبوّة جبل يندَكّ حين الوجع

الأبوّة قيمةٌ لها دلالاتُ العطاء المتّزن، والتي سارت على خطّ مستقيم ومتزامنٍ مع الأمومة على حدّ سواء في كلّ شخوص العمل (سليمان مع أولاده الأربعة - أرطغرل مع ولديْه، وشوقه لابنه عثمان قبل أن يولَد - ديلي دمير مع ابنته آيكيز - جاندار مع أولاده الثلاثة - كوركوت مع ابنه توتكين - تكفور مع ابنته هيلينا).. وأنا هنا سأكتفي بثلاثة نماذج فقط حتى لا يتّسع المجالُ فيأتي على حساب قيمة أخرى:

سليمان شاه: هو مِن أبرز الشّخوص التي يمكن أن نستلهمَ منها المواقف، والذي بدتْ مواقفه الأبوية المربّية والحاضنة والرّاعية كثيرة، وكأنّنا في عملٍ اجتماعي يهتمّ بقيم التّربية والتنشئة أكثرَ من مضامينه الأخرى، فتجده - سليمان شاه - يعيش على ثلاثةِ معانٍ طوال المسلسل؛ عشقه لزوجه، وتربيته لولده، وإخلاصه لقضيته.

انظرْ إليه وهو يتحرّك مُعتمدًا على ابنه جوندودو بعد استردادِ القافلة، وبعدما يجلس يقول له: رأيت اليوم نظراتِك تجاه أرطغرل، أنتَ أخوه الكبير، والأخُ الكبير لا ينظرُ لأخيه نظرةَ حقد، بالإضافة أنه خاطرَ بحياته من أجل إنقاذك. (الحلقة ٤)

وتتجلى معاني الأبوّة دون كلام أو توجيهٍ منه حين تجلس هايماه بجوار ديندار على فراش المرض وتقول له: روحُك الحلوة التي أعطاك إيّاها الله ذهبتْ لنزهة، أمْسِك بها، لو كان لديك روحٌ في جسدك يا بنيّ أخبرني لأفديك برأسي. (يقف سليمان على باب الخيمة يهمّ بالدّخول ولكنّه يرجع، وينسحب مستمعًا لها وهو يبكي وتسيلُ دموعُه لألمها على ولدها). (الحلقة ١٥)

وتتصدّر التّربية والأبوّة هذه المعاني حتّى في لحظة وفاتِه بين يدي ولديْه أرطغرل وجوندودو، يهتمّ برابطتهما وعدم فرقتهما وثباتهما على قضية الحقّ، وحياتهما على قلبٍ واحد، وديمومة الوحدةِ بينهم. قلبُ أبٍ كبير يسعُ أولاده وأولادَ قبيلته، يبثّ في حناياهم العزّة والأنَفَة وطلب الشهادة في رضًا وتضحية وعدم فرار.

فحينَ تتعانق الأبوّة، وتتعاظمُ لتغطّي فقدَ الأمّ، تلعب دورَها مرّتين لتعوّض حنانَ الأم، وذلك يتجلّى مع ديلي دمير، ذلك العجوز الشّاب، المعلّم المربّي، كان لابنته آيكيز الأبَ والأمّ والمربي على مبادئ الحياة العزيزة الأبيّة، على الرّغم من كونها بنتًا، واعتقاد البعض أنّ الذي يصنع التّناسل والذّكْر هو الذّكَر، ولكنّه هنا يعطي درسًا قيميًّا أنّ البطولة والذّكْر لا يرتبطان بنوْع الولد، ولكن بالتّربية والتنشئة؛ انظرْ إليه يوم عرسها وهو يقول لها: ليت أمّك كانت موجودةً في مثل هذا اليوم.. انظري يا ابنتي، حتّى اليوم لمْ أطعمْك لقمةً حرامًا، وأنتِ أيضًا لا تُطْعمي أولادَك، كوني صادقةً مع زوْجك، ولا تقولي له

كلامًا يكدّره، ولا تثني له كلمة، وكوني إلى جانبِه دائمًا. وعندما يدخل عليه تورغوت ليأخذ عروسَه يقول له: انظرْ يا بني، قد اعتبرتُك ولدي دومًا.. اعلمْ هذا، لا تُحْزِن ابنتي، ولا تُظْهِرْ لها الرّجولةَ بالقوّة والغِلظة، فهي أمانةُ الله ثمّ أمانتي عنْدَك، فلا تجرَحِ الأمانة. (الحلقة ٢٣).

ثمّ هذا شاهدُ المسلسل - أرطغرل - يقف شامخًا بمواقفِه المتعدّدة، والتي تثبتُ روحَ الأبوّة في قلبِ هذا المحارب، والذي يلتمسُ الولدَ الصّالح قبل مجيئه حينَ يجلس أرطغرل بعد صلاته بينما حليمة تلِد، وأخذَ يدعو: يا رب أعطِ القوّة لحليمة، وخفّف عنها وجعَ الولادة، وبارِكْ في ولادتها، أنتَ الشّافي اشْفِها يا رب، واجعلْ طفلَنا بين أيدينا، وكنْ معَه، واجعلْه مِن خيْرِ ذرّيّتنا، واحْمِه من المصائب والمحَن، واحْمِه من شرّ الشّياطين، وجمِّلْ في أخْلاقه، ولا تُبْعدْه عن طريق الصّواب، ولا تنسِه طريقَ جهادِ أجدادنا، وأكْرمه في هذه الدّنيا والآخرة، آمين يا ربّ. (الحلقة ٥٥).

ثمّ وهو يدرّبه على القتال بالسّيف الخشبي داخل الخيمة يتظاهر بأنّه هُزم واستسلم، ولكنّ غوندوز ابنَه يحاول ضربَه بالسّيف، فيقول له أرطغرل مربّيًا له: العدوّ الذي يستسلم يصبحُ أسيرًا، ونحن لا نقتلُ الأسرى يا بطلي، ما علّمتُه لك ستعلّمه لأخيك عندما يكبر.

وها هو يقول له: متى سأصبح سيّدًا يا أبي؟ فيخلع قبعتَه، ويضعُها على رأس ابنه، ويقول له: ها أنت أصبحت الآن سيدًا يا عزيزي غوندوز، ماذا تريدُ أيضًا؟ فيقول: هل يكون السّيد بلا سيف؟ فيقول: مَن نسمّه سيدًا لا يأخذ قوّتَه مِن سيفه؛ بل يأخذها من قلبه ومن عقله، الآن ستستمعُ لما تقوله أمّك حتى تكبرَ أكثر وأكثر، وتصبحَ محاربًا في البداية، وإنْ أذن الله تصبح سيدًا. (الحلقة ٧٨)

انظرْ إليه وهو يوصيه حين كان مغادرًا للغزو: بعد أن نذهب أنت رجل قبيلتنا وخيمتنا، أنت المسئول عن أمان قبيلتنا وخيمتنا إلى أنْ نعودَ من الحرب. فيعطيَه تحيةَ المحاربين، ويقول له: الأمر لك يا سيدي. (الحلقة ١٠١)

ثمّ ها هو أرطغرل يجلس مع ابنه عثمان - وقد كان معترضًا على زواج أبيه من إيلبيغي - ويشرح له معنى الأبوّة الحقيقي فيقول له: منزلُ الأب دافئٌ لدرجة أنّك لن تبرد أبدًا، حتّى وإن لم تشتعلِ النّارُ في الشتاء لأنّ قلب الأب الذي يحترق من أجل أولاده يدفئهم جميعًا، فهل يمكنُ لمنزلٍ كهذا أن يدفئ أحدَ أولاده ويبردَ الآخر؟!!

كلّ هذا يعطي مؤشرًا نبيلًا على حرص العمل على أن يبثّ روح الأبوّة وقيمها وضوابطها في ذهن الآباء والمربّين... ويا ليت شعري ونحنُ نسمع في بعض البيوتات مَن يقول لولده (باللّهجة العاميةِ المصرية):
تفّ على عمّو يا حبيبي!!! هل هذه ضوابطُ ووسائل التربية الحقيقية؟ وهل هذا حقّ قيام الأب بدوْره في غرس القيم والآداب في نفس أولاده؟!!

إنّ المشاهد ليقف مشدوهًا أمامَ هذه المعاني الأبويّة المبثوثة بالعمل، ويدرك - تمام الإدراك - أنّ الاستمرار والبقاء والانتشار الذي كتب له لم يأتِ من فراغ.

***

البنوّة.. شجرةٌ لها جذور

ليسَ هناك مِن شعورٍ بجميلِ الأثر مثْلَما هو بيْن الوالد وولده، ثمّ تأتي في المرتبةِ بعد ذلك بقيّةُ مراتب التّربية، ذلك لأنّه حتّى في الموروث الشّعبي أنّه لا أحد يتمنّى أحدًا أفْضل منه سوى الوالدِ لولده؛ لذا فإنّه حينما يأتي وقتُ ردّ المعروف وجني الثّمار تكون سعادةُ المربِّي فوق ما يمكنُ وصفها.

إنّ البنوّةَ هي ثمرةُ حياةِ الأب، ومعينُه الذي يغرفُ منه طيلةَ حياته، تُشْعره بالأمان بقدْر ما يُعطي من أمانِه لولده، فإذا انقطعتِ الحياة بموتِه كُتبتْ له الحياةُ من جديدٍ بولَدِه، وإنّ أكثرَ ما يصبّر الوالدينَ على مشاقّ التّربية ومُعاناةِ المحن هو إيجادُ ذلك في قلوب الأولاد؛ ذكورًا وإناثًا، ولقد لمسنا ذلك في أرطغرل وإخوته مع أبيهم سليمان، وغوندوز وعثمان مع أبيهم أرطغرل، وأيكيز مع أبيها ديلي دمير، وأصليهان مع جاندار أبيها،...

كان إبرازُ هذا الجانبِ بالغَ الأهمية طيلةَ العمل؛ في جلساتِ الوالد مع ابنِه المنفردة، وفي تعاملاتِه معه حين توريثِه قيمةً من القيم، وفي استشعارِ الأثر المرْجو حينَ العتاب بينهما بشكلٍ راقٍ مهذّب، وحين العودةِ من الغزو، وحين المُناسبات..

ولعلّ اقتطافًا سريعًا لبعض المواقف يبرز لنا هذا المعنى بصورة لائقة، ومن ذلك:

يدخل أرطغرل على حليمة وهايماه بعدما خرج غاضبًا من تصْويتهم ضدّه في الاجتماع على خروجه من صفوف المحاربين، فتقول له هايماه: أعلمُ أنّك غاضبٌ منّي. فيقول لها: كيف أكونُ غاضبًا منْك يا أمّي!؟ لديّ روحٌ واحدة وهي فداءٌ لك، لك حقّ الأمومة. (الحلقة ٣١)

في نفس سياقِ عتاب هايماه على ولديْها تقول: إنْ كان والدكم سليمان شاه على قيْد الحياة ما كان يقولُ بفعلكما؟! ماذا كان يقول؟ (وهُما طوال الحديث يضعان رأسيهما في الأرض، ويشعران بالخزي) واجهنا المصاعب، وأبعدنا الشرَّ من بيننا، نحن بحاجة إلى الوحدة والتّعاون، ماذا تفعلون إذًا؟ كيف تقدرون على مواجهة الأهالي وأنتم ترفعون أيديكما على بعضٍ في هذا الوقت الصّعب؟ لا أسامحكما، ولا أسامحكما على تعبي، هل كلامي واضح؟ تصافحوا وتسامحوا أمامي الآن، (فيفعلان مباشرة، ثمّ يقبّل كلٌّ منهما يد أمّه) (الحلقة ٣٢)

تسأل هايماه حليمة عن مكانِ أرطغرل فتردّ عليها بعدم علمِها، وعندما لا تصدّقها هايماه تقول حليمة: أنا أحترمُك بقدرِ أنْ أصمت عمّا أعرفه من أجل أنْ لا أكذب عليك. (الحلقة ٣٢)

تجلس هايماه مع حليمة بعد عودة أرطغرل، وتقول لها: لقد وقفتِ ثابتةً

بشجاعتك، ورأيت الطريقَ الصّحيح مباشرة، وأريتنا جميعًا كيف تكون زوجة السيد (وكانت حليمة ترفض بيعَ السّوق والهجرةَ بعكس هايماه) فتقول حليمة: لقد تعلّمنا منْك كيف تكون زوجةُ السّيد يا أمّي أدامَكِ الله. وتقبّل يدَها وتحتضنُها. (الحلقة ٩٦)

وحين كان غوندوز في الزّنزانة مخطوفًا داخل القلعة تدخلُ عليه ماريا فيقول لها: لا بدّ أنّ أمّي تبكي في الخيمة كثيرًا يا ماريا. (الحلقة ١٠٠)

وحين تمرضُ هايماه، ويجلس أرطغرل بجانبها، وعندما تفيق ترى الدّموعَ في عينيه، فتقول له: ما هذه الدّموع التي في عينيك؟ يقول: بجانب المحنِ التي عانيتِها من أجل أبنائك، بجانبِ الدّموع الكثيرة التي بكيتِها، ماذا تكونُ دموعي يا أمّي؟! كيف أوفّيك حقّك. (الحلقة ١٠٥)

ثمّ ها هو عثمان في لحظةِ مقارنة بينه وبين آيبارس بن بامسي حين يعود إلى أمّه بعد الاخْتطاف، فيجري عليها فتحتضنُه وتقبّله، حينها يتذكّر عثمان أمَّه ويشعر بافتقاده لها واحتياجه لمثْل هذا الحبّ وهذا الاحتضان، فيدخل الخيمةَ ويُمسك بأحدِ أغطية رأسها ويقبّله ويبكي. (الحلقة ١٤٤)

ألا ما أجملَها مِن جلسةٍ حين يحتضنُ الوالدُ ابنَه بشكلٍ ودودٍ، وهُما مستلقيان على الفراش أو على الأريكة يشاهدانِ حلقةً من حلقاتِ هذا العمل النّبيل، فيأتي موقفٌ مِن مثل ما ذكرتُ هنا؛ فينظرُ الوالدُ نظرة ودّ تلقينيّة موحيةٍ أنّي أنتظرُ ردّ الفعل هذا منْك حين أكبر، والولدُ ينظر له نظرةَ رحمةٍ وعرفانٍ بالمعروفِ والجميل، وبينهما تعهّد أنّ الله لنْ يضيع أجرَ مَن أحسنَ عملاً.

***

الرّجولةُ المبكرة..وصناعة المستقبل

ربّما ترتبط الرّجولةُ المبكّرة وتتماسّ مع مفْهوم التّربية عمومًا؛ حيث تتضافر جهودُ الوالدين لإنشاءِ ولدٍ صالح يعي تمامًا ما له وما عليه، وهذا ما يجعلنا نربطُ بين المَعْنييْن بشكلٍ أو بآخر، تتجلّى الرّجولة المبكرة في نشئ يفرض نفسَه في مواقفِ التّمييز، ويعرض نفسَه في مواقفِ الاحتياج، وتأتي تصرّفاتُه أكبرَ من عمره الزّمني، يقفُ شامخًا واثقًا في ذاته، بل وقدراته، يمكنُ الاعتمادُ عليه وتوقيره في مواقفِ الحياة اليوميّة بين أهله وفي وجود الغرباء أيضًا، لا تدليلًا ولا تعاطفًا من الوالدين؛ ولكنْ لكوْنه يستحقّ أن يتصدّر المشهدَ ويرتادَ مجالس الكبار.

الرّجولةُ المبكّرة مفهومٌ يتعدّى مقاييس المراحل العمرية ليمزج بين الخبرة والبراءة، بين الطّفولة والكهولة، بين العفوية والتروّي..

الرّجولةُ المبكّرة تعني تفوّقَ الرّجولة على الطفولة في كيان الفرد..

الرّجولةُ المبكّرة تفرض على الوالدين طريقةً وأسلوبًا مختلفًا مغايرًا لما يمكن أنْ يكون مألوفًا بين الناس؛ حيثُ طبيعة الطّفولة التّدليلُ، ولكنّنا هنا نجد احترامًا للعقليّة ومراعاةً للوجدان وتحفيزًا للهمّة، وتحميلًا للمسئولية.

عجّ المسلسل بمثلِ هذه المواقف، والتي امتدّت عبْرَ أسَرٍ كثيرة، وآباء وأمّهات كثر، وقبائلَ عدّة، فتراهم يكبرونَ أولادهم ويقدّمونهم في المحافل والاجتماعات العائلية، بل ويتصدّرون المجالس في بعض الأحيان، وليسَ ذلك من فراغ، ولكنّها موروثاتُ قبائلهم التي تناقلوها جيلًا بعد جيل، **انظرْ معي وتمعّن فيما يلي:**

يجلس يغيت مع ديندار، وبجوارهما حليمة وهايماه يستمعانِ إليهما فيقول ديندار: عن قريب ستنتقمُ لوالدك أيضًا مِن قاتله. فيقول له يغيت: ليدخل سيفي في السّماء ويخرج أحمر فسوف آخذُ انتقامي، وأنتَ قد أفسدتَ لعبة فرسان المعبد وأنقذتَ القبيلة. فيقول له ديندار: الحمدُ لله لقد قلنا للكفار توقّفوا، هيّا لنتجوّل في القبيلة. (الحلقة ٢٥)، ثمّ تنظر هايماه وهي تبتسم لحليمة وتقول لها: إنّ رجولةَ الرّجال تتّضح في هذا العمر يا ابنتي، انظري إليهما وهما كالمهر الجامح، كأنّهما يريدان الخروجَ لفتح الدنيا، انظري يا ابنتي، الرّجال مثل الفرس المجنون، وهذا الجنون هو الذي يمسكُ الخيمة لتبقى واقفة، وبالطّبع ستطعمينه مثل السّائس، وسوف تروّضينه، ولن تقصّري في خدمته، عندها تلك الفرس سوف ترميك بأوّل رفسة. فتردّ عليها حليمة: قد صار حَلَقًا في أذني يا أمّي. (الحلقة ٢٥)

يدخل أرطغرل على حليمة ويغيت أخيها ليأخذها أرطغرل إلى حفل الزّفاف،

فيقول له يغيت الصّغير: أنا لا أئتمنك على أختي فقط، بل على كبدي وروحي، حافظ على أمانتي جيدًا يا سيّدي أرطغرل، بقوّة حربك للكفار أظهرْ رحمتك بأختي. ليسعدكما الله. ثمّ يدفعُها قليلًا بيده في ذراعِها لتذهب معه. (الحلقة ٢٥).. والله إنّها لكلمات ووصية لا تخرج إلا من أب عركته الحياة بمحنها حتى تكسبه هذه الخبرة بل وهذه البلاغة المختصرة للوصية!!

تقف حليمة مع ديلي دمير وتورالي الصّغير، وتقول له: ما الأمر!! لماذا وجهُك شاحبٌ يا تورالي؟ فيقول لها: المسألة كبيرةٌ يا سلطانة حليمة، لا أستطيع القول. فتقول وهي تنظر إلى ديلي دمير: آه. ما المسألة الكبيرة؟ فيشير لها ديلي دمير بيده بإشارة المقصّ. (دلالةٌ على عملية الطّهارة له). (الحلقة ٤٥)

يدخل تورغوت ورشةَ ديلي دمير بعد وفاته، فيجد تورالي الصغير يجلس على الأرض، فيقول له: خيرًا يا تورالي! هل اشتقتَ لأبي دمير؟ فيقول له: اشتقتُ له يا سيدي، ألم تشتقْ إليه أنت؟! ليلة أمس جاء أبي دمير إليّ وتكلّم معي في الحلم، رأيته بجانبي.. فيقول تورغوت: وماذا قال لك أبي دمير؟ فيقول تورالي: قد صنع لي سيفًا وكنتُ سأحارب بذلك السيف مع سيّدي أرطغرل. سيدي أرطغرل قد جعلني محاربًا، سأصبح محاربًا كبيرا جدًّا، فيقول له تورغوت: إن شاء الله يا أسدي. (الحلقة ٥٠)

يدخل تورالي الصّغير على أرطغرل وتورغوت وبامسي، فيقول له بامسي: قل لنرى، إن ذهب السيّد أرطغرل حتّى الصين فهل ستذهب معه؟ فيقول تورالي: إن ذهب السيّد أرطغرل إلى النّجوم فأنا أركبُ جناحًا وأطير خلفه، ألا تعلم يا بامسي ألب؟! فيقول له بامسي: ما شاء الله ما شاء الله. فينظر تورغوت إلى أرطغرل ويقول له (متحدّثًا عن تورالي الصّغير): بوجود محاربين كهذا؛ فلا يوجد مكانٌ لن ندخله، ولا بلدٌ لن نفتحها، كن مرتاحًا. (الحلقة ٥٢)

يدخل تورالي الصّغير على سالجان (وهو يمشي برجليْن مفتوحتين نظرًا للختان) ويقول لها (وقد ذهبَ زوجُها جوندودو مع هايماه إلى أيروزوم للعلاج): لا تحزني لذهاب سيدي جوندودو يا سيّدة سالجان، ولا تخافي؛ فقد أقسمت على حماية نساءِ القبيلة. فتقول له وهي تبتسم: ما شاءَ الله، إذًا فأوّل ذهبيّة للمحارب تكون مِن السيدة سالجان لك. وتعطيه واحدة ثمّ تقول: إذًا مِن بعد الآن فلا خوفٌ لنا. (الحلقة ٥٥)

تلد حليمة ابنَها الثاني - سافجي - فيدخل ابنُها غوندوز ويقول لهم: لأرى أخي، إنّي بحاجة لمُحارب، دعيني أراه، وبعدما يراه يقول: سأذهبُ وأصنع سلاحًا لأخي؛ انتبهوا له. (الحلقة ٨٨)

تبكي حليمة بعد موت أرطغرل - وكانت لا تعرف أنّها مكيدة منه - فيقول لها غوندوز ابنُها: لمَ تبكين؟ فتقول: اشتقتُ إلى والدك يا بني؟
لو كان والدُك موجودًا لما غرقنا في كلّ هذه الهموم. فيقول لها: لا تنهمّي يا

أمّي، قريبًا سأصبح سيدًا وسترتاحون جميعكم. ويقبّل يدها، فتقول له: إنْ شاء الله ستبعث الخوفَ للأعداء، والأملَ للمظلومين. (الحلقة ٩٥)

يأخذ قائد القلعة غوندوز الصّغير ليضعَه في السجن، وبينما هما في الطريق يقول له غوندوز: أبي سيهدمُ عليكم القلعة، أنا غوندوز بن السيد أرطغرل، سترون ماذا نفعل بكم أنا وأبي. ويأتي لزنزانته الحاكم آريس وبجانبه ماريا، فتقول لغوندوز: تعال خلفي. فيقول لها: لا أخاف من أحد؛ الشّجاع لا يختبئ خلفَ امرأة.. ثمّ يجلس بمفرده ويدعو قائلًا: يا ربي، لا تُحْزن أمّي وأبي وجدّتي، امنحني القوّة كي أخرجَ من هنا.. وتدخل عليه ماريا بالطعام فيرفض.. فتقول: إنْ لم تأكلْ فلن تصبح محاربًا قويًّا. فيقول: لا أحتاجُ إلى طعامكم حتّى أصبح محاربًا، لقد أصبحت محاربًا بطعام أمّي أساسًا، غوندوز بن أرطغرل لا يستسلم أبدًا. (الحلقة ١٠٠)

يجلس غوندوز يصنع سهمًا فتسأله جدّتُه عن السبب، فيقول لها: سأعطيه لأبي يا جدّتي، حتّى لو لمْ أذهب إلى الغزو، لو تمّ ضربُ العدوّ بسهْمي فكأنّني أنا الذي ضربتُه. فتقول له جدّتُه: لتكنْ جدّتُك فداءً لقلبك الطيّب والشجاع هذا يا أسدي. (الحلقة ١٠١)

يذهب غوندوز لزيارة قبر أمّه حليمة فيلحق به ابنُ العربي، ويدعو له بالخير، فيقول له غوندوز: أنا أحاولُ أنْ أقفَ بمتانةٍ ولكنّي حزين جدًّا على أمّي. (الحلقة ١١٨)

وعندما أرادَ أرطغرل الهجرةَ وقف ابنُ عربي يوصي ابنه غوندوز أنْ يكون لائقًا بأبيه، فقالَ له غوندوز: وأنا سأنفّذ وظيفةَ الأخ الأكبر بما يليق، وسأصبح مع إخوتي أبناءً لائقين بأبينا.

تذهب ماريا بالطّعام لغوندوز وهو في زنزانةِ القلعة فيضرب الصّينيةَ التي في يدها بقدمِه، ويقول: لا أريدُ الطّعام، أنا لا آكلُ من طعام العدوّ. فتقول له: أنا لستُ عدوًّا لك، ولا أريد لك الأذى. فيقول: لا، أنتِ لا تختلفين عنهم، جميعُكم متشابهون. (الحلقة ١٠٠)

بمثلِ هذه الوّقفات والسّلوكيات ينشأ ناشئُ الفتيان على ما قدْ عوّده أبوه ونشّأه عليه.. وبمثلِ هذه الأطفالُ تنهضُ الأمم، ويعْلو قدرُها.. وبمثلِ هذه النّوعية من الأعْمالَ الدراميّة تُبعث الأمّةُ من جديد لتلقي في روْع أبنائها كلّ ما يحفّزهم ويضعُهم على جادّة الطريق، ليعلموا أنّهم رجالٌ ورثوا الرّجولةَ عنْ آبائهم؛ فلا يعطونَ الدّنيّة من دينهم ولا أوطانهم، ولا ينزلونَ أبدًا على رأي الفَسَدة؛ فتسعدُ بهم أوطانُهم.

***

الأخوّة.. السندُ الحقيقيّ

المرء قليلٌ بنفسه، كثيرٌ بإخوانه ذلك لأنّ علاقة الأخوة فيها مِن الحبّ وسلامة الصدر والتباذل والإخلاص والوفاء والتكافل والتّعاون ما فيها، فضلًا عن أن تكون وسيلة مباركة لغياب التباغض والتناحر والتصارع على عرضٍ زائل من الدنيا.

فما مِن أزمة إلّا وتؤكّد أنها هيّنة في ظلّ أخوّة طيبة مباركة، تستمدّ عافيتها من الله الذي ألّف بين القلوب، وجمع لها طرق الخير تسعى فيها على بصيرة أنّ ما عند الله خير وأبقى.

والأخوة لا تقف عند حدّ الكلام والادّعاء، بل تتعدّى ذلك فتجد القلوب والعقول والأجساد والمصالح والنفوس وحدةً واحدة لا تتجزأ ولا تتفتّت. والأخوة عقدٌ قلبي يعلو على عقود الدنيا، ويوثَّق بأختام القلوب واعتمادِ الله - عزّ وجلّ - لها؛ فهي ملكُه سبحانه وتعالى.

وإنّ المتأمّل لتاريخ الدعوات يجد أنّ الله عزّ وجلّ قد آخى بين النبيّين - عليهم السلام - رغم البعد الزّمني بينهم؛ لتتواصل اللُّحمة بينهم، ويشدّ تاريخُ وعطاءُ وبذلُ أحدهم الآخرَ، ليعلم أنه ليس بدعًا مِن الرسل، فيقوَى ساعدُه ويشتدّ عزمُه، ويؤتى مِن الإرادة فوقَ إرادته، ومِن الهمّة ما يفوق همّته..

هذا وغيره كثيرٌ وجدناه ولمسْناه حقيقةً في أحداث المسلسل، من علاقاتٍ أخويّة لا تقف عند حدّ الكلام، بل جاءت شواهدها جمّة متفرقة ومؤكَّدٌ عليها..

انظرْ إلى سليمان شاه وهو يربّي أولاده عليها، وكذلك جاندار وهو يؤكّد عليها لأولاده، بل إنّ هايماه نفسها تهتمّ لهذا الأمر وتؤكّد عليه؛ فحين يتشاجر أرطغرل وجوندودو، وحين تتدخّل *هايماه* تقول: ما معنى أنْ يتشاجر أخوان كلّ يوم!!؟ هل ربّاكم والدُكم من أجل مثل هذا اليوم؟ أصبحتْ قوّتي لا تكفي لكم.. كرّروا هذا التهوّر مرّة أخرى ولنْ أسامحكم بالحليب الذي أرضعتُه لكم. (الحلقة ٣٢)

في نفس سياق عتاب هايماه علي ولديْها تقول: إنْ كان والدُكم سليمان شاه على قيد الحياة ما كان يقول بفعلكما؟! ماذا كان يقول؟ (وهُما طوال الحديث يضعون رأسيهما في الأرض، ويشعران بالخزي) واجهنا المصاعبَ، وأبعَدْنا الشرّ من بيننا، نحنُ بحاجة إلى الوحدة والتّعاون، ماذا تفعلون إذًا؟ كيف تقدرون على مواجهة الأهالي وأنتم ترفعون يدكما على بعض في هذا الوقت الصّعب؟ لا أسامحكما، ولا أسامحكما على تعبي، هل كلامي واضح؟ تصافحوا وتسامحوا أمامي الآن. (فيفعلان مباشرة ثمّ يقبّل كلّ منهما يدَ أمّه) (الحلقة ٣٢)

وهذا أرطغرل بعدما يتشاجر وجوندودو، يذهب إلى الجبل، ويجلس مستندًا

إلى شجرة قائلًا لنفسه: شجار الأخويْن سيجعل الأهالي في حالةٍ مزْرية، لو أصبح لساني أخرسًا، ولو كُسرت يداي، لو أنني تحكّمت بغضبي لما كان قد حصل هذا. (الحلقة ٣٢) كيف وصل به الحال في معاتبة نفسه على إيذائه لأخيه!!

ثمّ ها هي الأخوّة الحقيقيّة التي ما انقطعت طوالَ المسلسل عن البزوغ بين تورغوت ودوغان وبامسي، ففي ثورة الغضب لديندار بعد علمه أنّ أرطغرل قد مات بالسمّ الذي أحضره تورغوت، وشكّوا فيه؛ يهمّ ديندار بقتْل تورغوت ويرفع السّيفَ ليقتله، وبينما يهوي به يضعُ بامسي رأسَه فداءً لأخيه تورغوت!! مضحّيًا بحياته في سبيل إنقاذ أخيه الذي يثق به.. (الحلقة ٦٩)

هذا هو بامسي رمزُ الأخوّة الخالصة والحبّ الصّادق لأحبابه، يجلس ومعه تورغوت على الطّعام، وهُما يتذكّران دوغان في أوّل جلسةٍ لهما بعد موت دوغان، وصارا يستدعيان بدموعِهما ذكرياتِهما معه، ويتعاهدا على الأخذ بثأره، ثمّ بعد قتل الخونةِ الذين أرشدوا على دوغان وأدّوا إلى موتِه أثناء مهمّته، يذهب أرطغرل وبامسي وتورغوت إلى قبر دوغان فيقول أرطغرل: أخذنا بانتقامِك يا دوغان؛ نمْ في سلام. ويقول تورغوت: ابنُك وزوجتُك أمانة لدينا يا أخي. ويقول بامسي: لا تقلقْ يا أخي أبدًا، سيهتمّ دبّ الجبال (ويقصد نفسه كما كان يحبّ أن يطلقَ عليه دوغان) بابنك مثل عينيه، عمّه سينشئه كالأسود، وسأعطيه سيفيْن. (الحلقة ٨٥)

إنّ هذه الرّوح المُفْعمة بالصّدق لتتجلّى دومًا مبثوثةً في الأحداث دون تكلّف أو حشوّ، بل هي تنسابُ سجيّة في الشّخوص، حتى النّساء؛ فها هي حفصة زوجة بامسي، حين يلمّح لها برغبتِه في الذّهاب لتناول الطّعام مع إخوانه فيجدُ منها موافقةً ضمنية، فيقول لها: لكني قلت لهم إنّ بامسي ألب لا يتركُ زوجته وحيدةً في الخيمة ويذهب. فتقول له: هيّا اذهب. وقل لهم: إنّ السّيدة حفصة تتفهّم الوضع، إنْ كان سيقضي الوقتَ بجانب إخوانه الذين يحبّهم ويكون سعيدًا فتستطيعُ هي مراقبة طريقِه والصّبر. (ها هي تستشعر محبّتَه لإخوانه، وتدرك تمامًا سعادته معهم) فيبتسم لها ويقبّل رأسَها، ويقول: أكون فداءً لمَن أعطاني إيّاك. وبينما ينتظره تورغوت وسامسا وجونكوت على مائدتهم يقول سامسا: لقد تأخّر بامسي فهل يُعْقل أن يترك الحبيبة ويأتي؟! فيقول تورغوت: سيأتي يا أخي سيأتي. (وها هو تورغوت يثقُ في أخيه أنّه لا يستطيع مقاومةَ حبّه للجلوس وتناول الطعام معهم) ثمّ يدخل بامسي مباشرة ويقول: أتيت يا إخوتي. فيقول تورغوت: قلت لكم إنّ الأخ بامسي لا يتركنا لوحدنا. وعندما يحدّثونه كيف تركتك زوجتَك حفصة؟ فيقول: هناك امرأة تفتح الورودَ في قلب الإنسان، وهناك امرأة تنهيك بالسّموم. (الحلقة ٨٧)

ولك أن تقف في (الحلقة ٩٠) مع دموع أرطغرل - وهو يبكي بكاءً حارًّا - وهو يتذكّر أخاه دوغان حين دخلت عليه بانوشيشك زوجة دوغان بابنها تحمله على

يديها وتطلب من أرطغرل أن يسمّيه، فيبكي ويسمّيه دوغان لتحيا ذكراه في النفوس حيّة.

وبعدما يزول الخلافُ بين بامسي وتورغوت بسببِ اختطاف تيتان لأصليهان وحفصة يتدخّل آرتوك للصّلح بينهما، ويقول لهما: تصافحا. فيقول تورغوت لبامسي: أخطأتُ يا أخي. فيقول له بامسي: كلنا بشر يا أخي.. جميعنا بشر. (الحلقة ١٠٨)

يجلس أرطغرل بين السّادة في القبيلة ومن بين ما يقول لهم: لقد اقتنعت أنّ سامسا والمحاربين معه نالوا عقابهم بسبب خطئهم في خطف ابني غوندوز وقد عفوت عنهم. فيقول بامسي مدافعًا عن أخيه سامسا: سيدي، لقد كان كبد أخي سامسا يتقطع لخطف غوندوز. (الحلقة ١٠١) وهذا من حبّه لإخوانه.. حتّى إنّه ليسمّي ابنته أصليهان إكرامًا لأصليهان وصاحبِه تورغوت زوجِها.

وفي موقفٍ آخر، تتمّ إصابةُ بامسي أثناءَ إعدام دراغوس حيث تعرّض غوندوز للقتل على يد محاربٍ بيزنطي وفداه بامسي وتلقّى الضربة عنه، وحين يخبر الحارس هايماه وسالجان بذلك تتذكّر سالجان مباشرةً زوجتَه حفصة، وتقول: أمي، إن سمعت حفصة فلن تستطيع الوقوف مكانها، سيتوقف قلبها. (الحلقة ١٤٥) ثمّ في مشهدٍ آخر يقف تورغوت وآرتوك بجوار بامسي على السّرير، فيقول تورغوت: كان يجب أن يتواجد هنا اللّبن واللحم الكثير، (لعلمه أنّ أخاه بامسي أكول)، (ثمّ يتذكّر موقفًا لهما معًا فيقول): ذات مرّة ذهبنا إلى الحرب يا سيد آرتوك، وحينها نسي أنْ يضع اللّحمَ معه، ثمّ أصيبَ في الحرب، حينها شعرتُ أنّ روحي أنا قد احترقت، نحن خلطنا دماءنا معًا وأصبحنا إخوةً بالدّم، ثمّ ضمدنا له جرحه، واستيقظ، كان يصرخ قائلًا: أعطوني اللّحم، وإلّا فإنّ الدّماء لن تذهب إلى الرّوح، وكنت أنا قد قسمتُ اللّحم الخاصّ بي بيدي وأطعمته إيّاه كلّه، لم يتبقّ لي أيّ لقمة لأتناولها، ولكنْ عندما رأيت أنّ روحَ أخي قد عادت إليه حينَها لم يبقَ لديّ جوع ولا أيّ شيء آخر، نحن خضنا الحرب مجدّدًا وقاتلنا معًا ظهرًا لظهر، حينها عادت إليّ روحي، ليستعيدَ أخي روحَه حينها ستعودُ روحي إليّ. (الحلقة ١٤٥)

وفي لحظةِ مفاصلةٍ لتحديد الأخوّة الحقيقية والارتباطِ الفعلي حين يسأل أرطغرل إيلبيلغي عن فعْلها إنْ علمت أنّ ألباستي هو أخوها بيبولات؟! فتقول: إنْ كان ألباستي هو أخي، فدمُه حلالٌ عليك. في مفاصلة فارقة للتخلّي عن الأخوّة التي تجلب العارَ والفضيحة والمساءلة أمام الله، وكأنّي أتذكّر هنا قول الله عزّ وجل:
إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ... الآية ٤٦ من سورة هود. (الحلقة ١٤٥)

يا لَهُ من حبّ ودفْعٍ للضرّ عن أخيه، ومحاولة لتجميل صورته أمام قائده! وكذلك السّائرون على درْب النبيّين، العاملون في حقل الدّعوة المباركة

ينبغي لهم هذا التآخي؛ ليعذرَ بعضُهم بعضًا، ويعينَ بعضهم بعضًا.

***

العشقُ.. مفْعولُ السّحر

إنّ قيمةَ وتيمةَ العشْق في العمل بدثْ عفيفةً شفيفة، متّفق عليها من جميعِ الطّوائف، وليست مستغربةً في هذه البيئات بما يوحي بمدى الإقرار بشفافيتها وأحقية من يريد الحصول عليها والتنعم بها.

جاءت حكايات العشق في الأعمال الدرامية القديمة بما يرسخ لبعض التساهل في اللقاءات والحوارات

العشق: سليمان وهايماه.. أرطغرل وحليمة.. بامسي وهيلينا.. تورغوت وآيكيز.. دوغان وبانو شيشك.. حتى سعد الدين كوبيك وأصليهان من طرفٍ واحد.. وكذلك نويان وحبّه لغونجاجول..

إنّ مشاعرَ العشقِ بين سليمان وهايماه صادقةٌ وطبيعيّة للدّرجة التي تقنعك أنّ هذه علاقةٌ طبيعيّة وليست تمثيلًا، انظرْ إليها - وبعد هجرة أرطغرل - ترى سليمانَ في المنام، يأتي إليها ليُعطيها أمانةً معيّنة؛ هو يخرجُ ما معَه مِن الجراب، وهي تنظرُ إليه وتلمسُ وجهَه ويدَه، ولا تترك وجهَه من عينيْها أبدًا، ولمْ تنظر إلى ما يفعله؛ بل كلّ تركيزها على وجْهه، حتّى وهي تأخذُ المصْحف من يدِه تنظرُ إلى وجهه أيضًا، ثمّ تحملُ المصحفَ وتقبّله. فيقول لها: القرآنُ الكريم كتابُنا العظيم الذي يدلّنا على الطّريق.. ثمّ يعطي لها علمَ القبيلة، ويقول: العلمُ يستحقّ أكبرَ جهدٍ لنربّي في ظلّه نسلَنَا، ثمّ يعطي لها السّيف ويقول: أمّا السّيف فهو بابُ الفتح والعقاب، اذهبي، فتقول له: كيف أتركُ خيمتَك وأذهب؟! فيقول لها: كلّ شبرٍ من الأرض فيه القرآنُ هو خيمتُنا يا هايماه، المكان الذي يجبُ أن تكوني فيه هو بجانب أرطغرل يا هايماه.

يعودُ أرطغرل من حلب، ويحصل على الوطن الجديد، ثمّ يذهب ليقابل حليمة ويعطيَها هديّته (مرآة)، ويقول لها (بينما ينظران في المرآة معًا): أردتُك أنْ تريِ الجمالَ الذي أراه. (الحلقة ٣) بعدها يذهب أرطغرل إلى خيمته، وتأتيه أمّه فيقول لها: أمّي، كيف تكون الأختُ جوكتشا حبيبةً لي؟ فتفهمُ أنّه يقصد حليمة (أنّ رغبته في حليمة)، فتقول له: جوكتشا ابنةُ سيّد، بينما حليمة ضيفة، اليومُ موجودة وغدًا لا، لا نعرف مَن تكون. فيقول لها: أمّي، الحقّ أخرجَها أمامي بواسطةِ غزالة كنت أطاردُها، كيف أفرّط بتلك العيون الجميلة؟ بذلك اللّسان المعسول؟ إذا أتتني الشّجاعة في يوم وسألتُها هل تحبّينني.. وقالت لي بأنّ طريقك هو طريقي، كيف أقول لها اذْهبي يا أمّي؟! (فترقّ له بنظراتِ الأمومة الوادعة، وتقرّ قلبه على هيامه ولا تعنّفه على مخالفته لأمر أبيه سليمان والذي كان قد اختار له جوكتشا). (الحلقة ٣)

يجلسُ تورغوت ودوغان مع بامسي الذي يقول لتورغوت: أيّها الحسّاس، لو فكّرت أربعين سنةً لما خطرَ بعقلي أنّ سيدنا أرطغرل سيتنازل مثلك لأمورِ العشْق هذه!! فيقول له تورغوت: هذه الأمورُ لا تتّضح يا أخي، قد يُصيبك أنتَ

أيضًا هذا الأمر، أنت تظنّ أنّ الدّنيا لو اجتمعتْ لن تهدمَك، لكنْ بنظرةٍ إلى عينين تسقط على الأرض. (الحلقة ٥)

يذهب ديلي دمير إلى قبْر زوجته على مشارفِ القَبيلة قبل الرحيل إلى الوطن الجديد، ويقرأ لها الفاتحة، ويقول: أنا ذاهبٌ يا عزيزتي آيبالا إلى وطنٍ جديد، لكن هذه المرّة لنْ تكوني معنا، بعد نصبِ المخيّم أوّلُ عملٍ سأقوم به هو تزويجُ ابنتنا آيكيز، في ذلك اليوم أنا سأبكي في زاويةٍ مُنْعزلة بعيدًا عن الأنْظار، ولأنّك لست موجودة معي فلنْ تستطيعي مسحَ دموع عيني، قلبي الذي جرّب الحربَ والضربَ سيتعبُ أكثر بسبب غيابك. (الحلقة ٦)

ترقدُ حليمة تعاني بعد تلقّيها السّهم بدلًا من أرطغرل فيجلسُ بجانبها، وعندما تفيق يقول لها: ذلك اليوم الذي فتحتُ لك فيه قلبي أنتِ أنكرتِ وأنت تفديننني بروحك، ولكن لماذا تُخفين عنّي ما في قلبك؟ فتقول له: عندما يعلمُ الإنسان أنّه لن يجتمع بالعشق الدّنيوي فإنّه يضحّي لكي يجتمع بالعشقِ الإلهي. (الحلقة ٧)

يحدّث أرطغرل حليمةَ وقد رآها مهمومة: ما الهمّ الذي في قلبك ولا يصلُ إلى لسانِك يا سلطانة حليمة؟ منذ أيّام وأنت صامتة، إنْ كنتُ قلتُ كلامًا سيئًا ليتعفّن لساني، وإنْ كنت كسرتُ قلبَك دون أنْ أعلم ليُنتزعَ قلبي، فتقول له: إنْ كان سيأتي كلام سيئ فليكنْ من لسانك الحلوّ يا أرطغرل، طوالَ الوقت وأنت زوجي وبطلي، لا سمعتُ منك كلامًا سيئًا ولا كسرت قلبي. (الحلقة ٢٧)

تحاولُ جوكتشا أنْ تضعِفَ حبّ هايماه لحليمة، وتقلّل من قيمتها فتقول لها: حليمة ليست فتاةً قويّة حتّى ترى أخطاء أرطغرل وتدلّه على الطّريق الصّحيح، تريدون أشياء كثيرةً من امرأة لا تليق بالسيّد. فتردّ عليها هايماه: جوكتشا، تلك المرأة هي عشقُ أرطغرل، وستبقى كذلك إلى يوم القيامة. (الحلقة ٣٢)

يجلسُ تورغوت ودوغان وعبد الرحمن مع أرطغرل في خيمة جيكلي ويتذوّقون الطّعام الذي أعدّه تورغوت، فيقول له: لقد علّمتك صنعَه أختي آيكيز. فيتذكّرها تورغوت ويحزن، ثمّ يهمّ بالوقوف، ولكنْ يقول له أرطغرل: اجلسْ يا أخي وكُلْ طعامَك (فيجلس مباشرة) ثمّ يقول له: أختي آيكيز لم تمتْ بل هي شهيدة. فيقول له: أعلمُ يا سيّدي، أعلم. فيقول له: لو كنتَ تعلمُ ما حزنت هكذا، ولمَا كنتَ عانيت الألم هكذا، إنْ شاء الله يأتي يوم أنتَ أيضًا تُستَشهد وتلتقي مع أختي. فيبتسم تورغوت ويقول: إنْ شاء الله، أنتَ محقّ يا سيدي، سوف أنزعُ هذا الألمَ من قلبي. (الحلقة ٣٤)

يودّع أرطغرل حليمة ليذهب مع المحاربين فيقول لها: لم أستطعْ يومًا أن أريَك الحبّ الذي في قلبي يا سلطانة حليمة، ولم تعرفي ما هو الأمان، ولم أستطع يومًا أن أجعلك تعيشين يومًا بلا قتالٍ أو بلا ألم. فتقول له: لقد

أعطيتَني قلبَك، ألا يكفي يا أرطغرل! ألا أعرف من أجلِ مَن تجادل في هذا العمر القصير!؟ يكفيني شرفًا أنْ أكون بجانب محارب مثلك. (الحلقة ٤٣)

يذهب دوغان لخيمةِ آرتوك ليأخذ منه شرابَ المنوّم للحارسين حتى يخلّص بانو شيشك، فيقول دوغان: قاتلتُ في حروبٍ كثيرة ولم أخفْ من الموت أبدًا، ولكن الآن أخافُ أن يحصل شيء ولا أستطيعُ حماية بانو شيشك، ليتَك تصنع شيئًا لقلبي أيضًا. فيقول آرتوك: إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون؛ أرحْ قلبك يا دوغان. (الحلقة ٥٠)

وانظر إلى ما يسمّى الآن بالإتيكيت، فها هو أرطغرل حين ينهي كلامَه مع أمّه وأخيه جوندودو بحضور حليمة، وهو غاضب من حديث أخيه، وعندما يهمّ بالخروج يقف على ستارة الخيمة، ويفتحها أمام حليمة حتى تمرّ بسلامٍ وهي تحمل طفلَها غوندوز الصغير. (الحلقة ٥٩)

وفي لمسة حانية من الأمّ هايماه نراها حين يغضبُ أرطغرل بسبب بامسي الذي أسَرَه فاسيليوس ويساومُه عليه، فيقول: آه يا بامسي آه، بسببِه اضطررت أنْ أترك فاسيليوس، فتقول هايماه: لا تغضبْ على بامسي يا بني، إنّه لا يدركُ ما يفعل، الحبّ قد سلبَ عقله من رأسه. (الحلقة ٨٠)

تقف حليمة تودّع أرطغرل قبل ذهابِه للحرب، فتقول له: لحظةُ الفراق مؤلمة، أنا لا أشعر بطمأنينة الاجتماع بك! فيقول: لا.. ليس لديّ فراق حتّى يكون هناك وصالٌ يا حليمة. أنا معك دائمًا، مطمئنّ دومًا، المحبّة ليست بتقابل العينيْن؛ بل باتّحاد القلوب. فتدعو له حليمة: أدعو أنْ لا يلتوي معصمُك، ولا ينحني قلبك، كنْ مطمئنًّا. فيقول لها: أنت سلطانةُ نفسي، وسيّدةُ هذا البيت، لا ينغمّ قلبُك، ولا تدمع عيناك، لا تقلقي علي. (الحلقة ٨٢)

تقفُ حليمة تودّع أرطغرل وهو ذاهبٌ لحرب المغول وتبكي، فيقول لها: متى ما ودّعتني بدموعك إلى الحربِ يبقى قلبي هنا ولا يتحرّك سيفي. فتقول له: رأسي مرفوع وقلبي مطمئنّ يا أرطغرل، ألا تعرف أنّي أحبّ.. أشتاق.. أبكي.. أنتظر.. أصبر.. لتكنْ دموعي رفيقتَك، وليكن حبّي درعَك. فيقول: لتكن السّماءُ الزرقاء صديقتك، والأرض كاتمةً لأسرارك، إنِ استمعت إلى الرّياح الشّديدة فستسمعين ما أقوله،
سيهطلُ المطر على جَمالك يا حبيبتي. أنت مَحْبوبتي التي منَحَها الله لي، فلتصبري ولتقفي باستقامة. (الحلقة ٩١)

انظر للعشقِ الجميل والعلاقةِ بين الرّجل وزوجته التي تجعل أرطغرل في وسط كلّ همومه هذه، والمؤامراتِ؛ لا يغفل عن أنْ يجلسَ مع حليمة في خيمته، ويمشّط لها شعْرَها.. بكلّ أريحيّة وحبّ وودّ... (الحلقة ٩٦)

وها هو سعد الدين كوبيك - المعروفُ بالقسوة والشدّة واستسهال إراقة الدّماء - يقفُ عاجزًا أمام قلبه الذي أسَرَتْه أصليهان، فيقول لها: إنْ كان

العشقُ هو تخبّط طائرٍ سقطَ مِن عشّه فسأتخبّط من أجلك طوالَ عمري يا أصليهان.

وحين تستبدّ الشوق ويطول مقام الهجر بسبب البعد، فتحترق القلوب وتتّقد، تجلس حليمة مع أرطغرل للاستراحة وهُما في الطّريق للقاء السلطان، وقد مرّ عليهما وقتٌ طويل انشغلَ فيه أرطغرل بتأسيس سوغوت والسّوق والخان وإدارة وفتح القلعة، فتقول له (وقد أمسكت بيديه): لقد اشتقتُ إلى التّسابق على الخيول معك يا أرطغرل، نتنفّس بجانب جذعِ شجرةٍ كبيرة عينًا لعيْنٍ وركبةً لركبة. فيقول لها: هل تعتقدينَ أنّني لم أشتَقْ إلى ذلك يا حليمة؟! فتشعر أنّه أخذ على خاطره إذْ سلبت منه روحَ الاشتياق فتقول له: لا تأخذْ على خاطرك من قولي. أعلمُ حِمْلك يا أرطغرل، تعلم أنّه تكفيني أنفاسُك الحارّة على فراشنا. فيقول لها: إنّني أحملك أنت أيضًا في نفسي إلى أيّ مكان أذهبُ إليه يا حليمة. فتقول: يكفى ألّا يحرمنا الله منك. (الحلقة ١٠٦)

أَلَا ما أروعَ العشقَ، وما أجملَ الشّوقَ حين يتمّ تأطيره بالشّرعية والحلال، وما أنفعَ أن يتمّ غرسُ مثل هذه المَعاني التي لم يستحِ منها كبيرٌ ولا صغيرٌ في العمل إلّا وأظهرها المؤلفُ على تصرّفاته، وأظهرتْ خلجاتِ روحِه الهائمة، ممّا يزيل صدأ المفاهيم المغلوطة التي تربّى عليها بناتُ وشبابُ المسلمين من تبريرِ الارتباط أيًّا كان شكلُه أو إطارُه أو مجالُه، بما يبرّر للمراهقين سبلَ التخفّي والوقوعِ في الحرام، فانتشرَ الزّواج العرفي - على اختلافِ المراحل العمريّة - بصورةٍ مُريعة جرّاء ما بثّته وسائلُ الإعلام والأعمالُ الدّرامية من استسهال للألفاظِ الخارجة البذيئة، ومِن الإسقاطات العشقيّة بل والجنسيّة، ناهيكَ عن العلاقات المشبوهة التي عجّت بها أعمالُهم، ولم يخجلْ أصحابُها حتّى من العنونة لها على الملأ بما سمعناه من عنواناتِ أفلام، من مثل: علاقة مشبوهة - رغبة متوحشة - ما تيجي نرقص - لحم رخيص.. ألاَ ما أبشعَ ما وصلوا إليه من عريّ وتحلّل أحالَ المجتمعاتِ بأبنائها إلى هاويةٍ سحيقة من التفسّخ والامتهان والسّقوط؛ في الوقتِ الذي تسعى فيه المجتمعاتُ المحترمة بفنّها الأصيلِ من مثلِ هذا المسلسل الذي حبّب إلينا صورةَ العشق وأعادنا للزّمن العفيف؛ تسعى إلى غرسِ ما أصلّه حتى الدين الحنيف من براءة وجمال العشق بين الزوج وزوجه، ولنا أن نرجع في ذلك إلى مواقف الحبّ بين النبي - صلّى الله عليه وسلّم وعائشة رضي الله عنها.

***

الزّوجُ.. نصفُ قلبٍ ينْبض

لعلّ ممّا ترسّخ في الذّهن لدى جميع البيئاتِ ومختلف العصور أنّ العلاقة الزّوجية هي أهمّ وأقْدس العلاقات على وجْه الأرض؛ ذلك أنّها الميثاقُ الغليظ، الذي تحمّلَه الطّرفان بإرادة الله عزّ وجلّ، ولعلّ من أهمّ مؤسِّسات وثوابت هذه العلاقة الحبّ والودَّ بين الطّرفين؛ ذلك لأنّها علاقةٌ تبادلية لا تتمّ من طرفٍ واحد.. إلّا أنّنا حين نتلمّس دهاليزَ الأمر ودروبَه نعلم أنّ الزّوج يقع عليه القسطُ الأكبر في إنْجاح الأمرَ وإدارة دفّة البيت؛ بل وإدارة قلبِ زوجته في الأصْل، وربّما هذا المعنى يمثّل صورةً من صور القَوامة المنوطَ بها الزّوج أنْ يدير كلّ شيء بحكمةٍ وحبّ وودّ وتفاهم.. ولقد أكّد المسلسل على هذا الأمرِ بصورةٍ شديدة الرّسالِيّة والوضوح على كافّة الأصّعدة والشخوص، بل والدّيانات (المسلمون - النّصارى)، وعلى اختلاف الشّخوص (السّيد، والقائد، والجندي، والأمير، والسّلطان)... الكلّ تجسّدت فيه كلّ معاني الزّوج الحريص على زوجته، ولعلّ استعراضًا بسيطًا لبعض المَشاهد يُبرز لنا صحّةَ وصدقَ ذلك؛ فها هي..

تدخل هايماه مُتضايقة على ديندار وبجواره سليمان شاه، فيسألها: ما الذي حدث؟ فتقول له: لا شيء. فيقول لها: إنْ لم أفهم بنظرةٍ أنّ ثمّة شيئًا يضايقك بعدَ كلّ هذه السّنين فلا أصلحُ أن أكونَ سيّدًا، أو حتّى رجلًا. (فتربّت على يده). (الحلقة ١٥)

ويذهبُ أرطغرل لتخْليص تورغوت، ولكنّ الأخير يَجْرح أرطغرل ويعود محمولًا إلى القبيلة، فتقعُ هايماه عند سماعها الخبرَ، فلا يتحرّك سليمان وراء ولدِه الجريح، ولكنّه يظلّ بجوار زوجته، لا يفارقها، وعندما تفيق تقول: أرطغرل؟ فيقول لها: لا تتركي قوتك يا زوجتي، أنت لست أما لأولادك فقط بل أم للقبيلة كلها، إن هدمت أنت فكيف يمكنني أن آمر المحاربين الشباب بالموت؟، فتقول له: لدي قلب بحجم القبضة، كم من القوة سيتحمل أيضا يا سيدي؟ (الحلقة ١٦)

ثمّ انظرْ إليها وهي تغسل قدميْه قبلَ نومه، وتصبّ له الماء، وتحضرُ له المِنْشفة، وانظر إليه عندما يرى الهمّ من نظرةٍ عينيها دون أن تتكلّم فيخفّف عنها.. (الحلقة ٨٢)

وفي مشهدٍ يتجاوز الأعمار الصغيرة، يسأل عثمان أباه أرطغرل أنْ يحدّثه عن أمّه التي لم يرها فيقول له (وهو هائمٌ يتذكّر خصالَها، ويستحضر صورتَها، ويوقظ المشاعرَ التي تحت رماد الشّوق): أمّك ذاتُ عيني الغزال، عندما نظرتْ لي عينُ أمّك لأوّل مرّة فهمتُ أنّ كلّ الكون أصبحَ لي، كانت غزالةً جميلة جعلتني ألاحقُها، عندما كنت أذهبُ للحرب كانت تنتظر ليلًا ونهارًا دون أن يرفّ جفنُها، إنْ أتت المصائبُ وقفتْ بثباتٍ مثل الجبال الصامدة، كانت

تدفئ الخيمة، وكانت تديرُ أمورَ القبيلة، وفوق كلّ هذا كانت أمًّا أنجبتْ ثلاثة أسود، كانت لونَ الحياة، تحافظُ على المنزل، وتحافظُ على دفئه، كانت الماءَ المتدفّق بعظمة، مهدًا لأولادها، ودرعًا لقلب زوْجها، كانت تساوي الكون، وأعْطتني ثلاثةَ أكوان أخرى، ثمّ ركبت خيلَ الأجل.

ما أروعَه من وصفٍ لزوجٍ عاش حياةَ العشق والوَلَه، أفضى بكلّ ما يُضمر، وكأنّ حرارة الارْتباط حيّةٌ حتّى هذه اللحظة، إنّ مثلَ هذه المشاعر من الزّوج لتوحي بقيمةِ الوفاء الذي يبثّه العمل.

لكَ أن تستدعي صورتَه حين يعودُ من الغزو ويدخلُ القبيلة، وترى - بقلبك - لحظةَ اللقاء والقرب، واحتضانَ العينيْن لبعضِهما البعض، ولمسةَ اليدين الموحيةَ بكلّ معاني الاحتواء من الزّوج والشّوق والافتقار مِن الزّوجة.. وما كان لهذه المشاعر أن تبدو لوْ كان زوجُها قاسيًا جافَّ المشاعر والأحاسيس!!

ألَا ما أحوجَ الأزواج - الآن - إلى اسْتشعار معنى أنْ يكون زوجًا حنونًا عطوفًا، يدرك قيمة لجوء زوجتِه إليه، واعتمادِها عليه في كلّ ملمّاتها.. فها هي هايماه تشتاقُ لزوجها بعدَ سنواتٍ من وفاته، وتتذكّره في أفراحها وأتراحها، وها هي حليمة تجدُ أرطغرل مدافعًا عنها في كلّ المواقف، واعِدًا لها بكلّ ما تتمنّاه، بل ومحققًا له، وها هي آيكيز تصبرُ وتثابرُ.. بل وتشاركُ في عودةِ خطيبِها تورغوت من أسْرِه في القلْعة، وها هي.. وها هي...

ولعلّ من أعظم وأقْدس معاني الزّوج الحقّ أن يكون وفيًّا لزوجته بعد وفاتها، ولنا أنْ نتذكّر رسولَ الله - صلّى الله عليه وسلّم - حين يدافعُ عن خديجة أمامَ عائشة ويذكُرُها بالخير، ويودّ بعضَ صويحباتِها، وحين تسأله عائشةُ يقول: هذه - أي المرأة الزائرة - كانت تأتينا أيّام خديجة. ألَا ما أرْوعَ المعْنى!!

وأنتَ هنا - عزيزي القارئ - واجدٌ ما يشبِهُ ذلك، وهو ما يحاولُ العمل أنْ يعود بنا إليه من السّيرة العَطِرة - عن غيرِ مباشرةٍ، ولا تعمّدٍ للوعظيّة - فترى أرطغرل يذكرُ زوجتَه بالخير والبرّ بعد وفاتِها، بل ويعيشُ عازفًا عن الزّواج بعدها سنواتٍ طوال، مع العلم أنّ هذه البيئاتِ القبليّةَ مترسّخٌ فيها موضوعُ الزّواج بواحدةٍ واثنتيْن وأكثر.. ومع ذلكَ يتجلّى الوفاءُ في طول مدّة العزوف، وفي ذكْرها بالخير دائمًا.

كل ذلك يعطي مؤشرا بليغا أن العمل يسير في خطوط مستقيمة متوازية للزوج مع الوالد ليقوم الرجل بدوره كاملا ويؤدي حقوق بيته عليه.

***

الزوجة.. نصف قلب ينبض

تظلّ الزّوجة - إنْ كانت صالحة - نبضَ زوجها الحاني، ومؤشّرَ حرارة البيت الهادئ، تعْطي من قلبِها قبلَ وقتها في سبيلِ رضا الزّوج واستقرارِ الحياة على الودّ والتّفاهم والرّضا... وما مِن امرأةٍ صالحةٍ مُرَبّاة إلّا وتعلم أنّ قلبَها مشطورٌ، وشطْرُه لدى زوجها إنْ شاءت وصلتْه وعاشتْ عزيزةً ودودةً، وإنْ شاءت - أيضًا - قطعتْهُ وماتتْ غيرَ مأسوفٍ عليها مِن قوانين الحياةِ الزّوجية.. ويا لَسوءِ ذكرِها إنْ كانت قد أنْجبت فيظلّ تشرّدُ وضياعُ أولادها لعنةً تُلاحقها في الدّنيا والآخرة - إنْ كانت هي المخطئة.

كثيرٌ من المُجتمعات تعلمُ هذه الحقيقة، وتؤكّد عليها، وتحاولُ ترسيخَها في نفوسِ نسائها، وكثيرٌ - أيضًا - من المُجتمعات مَن تعرفُ ذلك ولكنّها استسلمتْ لموْجات التّحرّر والنّديّة بين الرّجل والمرأة فانْهارتِ البيوت وتصدّعت المجتمعاتُ حين تركتِ الحبلَ على الغاربِ للمرأة تفعلُ ما تشاء وتتعلّل بما تشاء، فشُوّهت أنوثتُها، ومُزّقتْ فِطرتُها، ثمّ اتّجهت للرّجل وعملتْ على إقناعه أنّ ذلك مِن أساسيّات المجتمعات المتحضّرة فانسلخَ من رجولتِه وتخلّى عن دوْره، فأصبح مسخًا ممقوتًا!!

إنّ نظرةً متأنّية لحال الزّوجة اليومَ في كثيرٍ من المجتمعات العربيّة يجدها ممزّقةً بين بيتِها باحتياجاتِه، وزوجِها بمتطلّباته، وعملِها بضروراتِه، وهي غير قادرةٍ على الوفاء بكل ذلك؛ ومن ثَمّ ضاعتْ اهتماماتُها هي كامرأةٍ تريدُ أن تعيشَ معزّزة محْبوبةً مَطْلوبة؛ وما ذاك إلّا نتيجةٌ طبيعيّة لتخلّيها عن أنوثتِها وفطرةِ الله لها.. أنْ تعيش في كنفِ زوْج محِبّ ودودٍ يُعْطي من قلبِه ما تحلُمُ به زوجتُه..

لعلّ هذه المعاني وهذه الصور المؤلمة حينَ تردُ على الذّهن الآنَ فإنّ ورودها نتيجةٌ طبيعيّة لما رأيْناه في المسلسل من عكسِ ذلك تمامًا؛ فقد أعادنا العملُ إلى صورةِ الزّوجةِ الحنون الواعيةِ القريبةِ من زوْجها، المدركةِ لطبيعتِه، وما يصلحُ به حالُها معه، فرأينا استقرارًا في الخيام لا ترْقَى إليه القصورُ الفخْمة الآن، ورأيْنا تفاهمًا بيْن الزّوجين لا ترقَى إليه عقولُ الأزواج الحاصلينَ على أعْلى الشّهادات الآن، ورأيْنا الرّضا بالمَقْسوم على قلّتِه بما لا ترقَى إليه مدنُ الأثْرياء الآن!!!

الزّوجةُ في المسلسل هنا لم يكنْ لها دورٌ فيصليّ في الأحداث، لكنّها كانت محورَ كلّ الأحْداث، وكأنّ العمل - بسلاسةٍ - يريد أنْ يؤكّد أنّ المرأة حين تعلمُ قيمتَها كزوجةٍ تحيى هادئةً مؤثّرة، تنعمُ بكلّ شيء، ولا تتحمّل أيّ شيء، تأخذ أكثرَ ممّا تعطي.. ولكنْ حين تدركُ رسالتَها، وحقيقةَ أنْ تكون زوجة.

رأيناها وهي تخفّف الألمَ عن زوجها، وتشعرُ بمصابه وجرحه.. حينَ يخرج سليمان شاه لإعادةِ ابنه جوندودو الأسير، فيقول لزوجته: هايماه، هذه

الدّمامل تؤلمني، كأنّها سكّين مغروزٌ في ظهري. فتقول له: ألمُك هو ألمي، آه يا زوجي آه، ولكن ليس بيدي شيء سوى الدّعاء لك ولأولادي، رأينا الكثيرَ يا سيّدي، رأينا الأعراسَ والمواليدَ الجدد وفصولَ الربيع، ورأينا النّصر أيضًا، وسنرى المزيدَ إن شاء الله، أنت سرتَ على الطّريق الصّحيح، لم تنحنِ ولمْ تلتوِ، هل يُرى عيبٌ في مَن سار على الطّريق الصّحيح؟ ليكن الله بعونكم، أنا سامحتك. (الحلقة ٣) وكأني أستحضرُ سيرةَ أمّ المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - حين قالتْ لرسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - والله لا يخزيك الله أبدًا....

وانظر إلى جمال وداعها لزوجها حينَ يذهب أرطغرل لتخليص تورغوت من سجن القلعة، فيودّع حليمة أوّلًا فتقول له: فتحَ الله طريقَك، لا حرقتِ الشّمسُ جلدَك، لا جعل المطرُ روحَك تشعرُ بالبرْد، لا أصابَ قدمَك حجرٌ بأذى، اذهبْ وعدْ لقبيلتك كذهاب الماءِ وعودته. (الحلقة ١٦)

وتظلّ الثقة محورَ الحبّ فتجلس هايماه مع سليمان صبيحةَ انتخابات السّيادة، ويقول لها: لا تقلقي فإنّي أفعل الصّحيح، كلّ شيء سيصبح أفضلَ يا امرأة. فتقول له: وهل هناكَ ما قمتَ به بشكلٍ خاطئ يا سيّدي!!؟. (الحلقة ١٦)

يجلس سليمان شاه مع هايماه بعد نجاتِهم من القتل، ويقول لها: أرطغرل حذّرني كثيرًا من كورت أوغلو، وأنت أيضًا كذلك، كلّ ما قلتموه كان صحيحًا، قد أخطأت كثيرًا بعدمِ سماعي لكم في ذلك الوقت. فتقول هايماه: قلت إنّك لا تريد خدشَ العدالة، وكلامك صحيحٌ، المكان الذي ليس فيه عدالةٌ والذي يخجلُ أطفالنا من العيش ليَحْمنا الله منه، كلّ شيء سيكون جميلًا، اليوم جمعة مباركة، والله ينصفُ عبادَه المظلومين. فيربّت على كتفِها مُبتسمًا ويقول: أدامك اللهُ فوق رؤوسنا. (الحلقة ٢٢)

وإنْ كنّا نعترفُ بقيمةِ الحبّ والوصال بيْن الزّوجين في الحياة؛ فإنّ الوفاء والتذكّر والحنينَ بعد المماتِ يكونُ آكدَ وأرقّ فتتذكّر هايماه زوجَها سليمان شاه، بعد مشاجرةٍ ولديْها، فتقول: آه يا سيّدي آه، كمْ أنا محتاجةٌ لك الآن، ليتَك كنت حيًّا وكنتَ بجانبي. (الحلقة ٣٢)

وتبدو قيمة الزوجة الحقيقية في أحلك الظروف، حين تظل الدنيا في وجه الزوج ولا يجد معينًا وقد ضاقت عليه لحظتُه.. هنا تظهر الزوجة كرافد من روافد الثقة اليقين بالنصر، فيدخل أرطغرل على حليمة ويُخبرها بخسارتِه في أمر السّيادة فتقول له: هكذا بالطّبع يا أرطغرل، هل كانت السّيادة هي التي ستغلبنا في كفاحنا المبارك؟ هل سنتراجعُ عنْ أحلامنا بسبب خسارتِنا للسّيادة؟! لتكنْ هذه الخسارة، الذي ينظرُ في عينيْك يرى خلاصَ كثيرٍ من الناس،
قلنا مِن البداية إنّه إنِ اضطررنا نذهبُ وحدنا، أدامَكَ الله فوق رؤوسنا يا أرطغرل. (الحلقة ٦٠)

في نفس الموقف تبدو عقلانيّة الزوجة وحكمتُها في موقف فارقٍ يستشعر به الزوج رجاحة زوجتِه فيطمئنّ قلبه.. تخبرُ حليمة أرطغرل أنّ جوندودو بعد فوزِه بالسّيادة قد أعدّ مائدة وَدَعانا أيضًا، فيقول لها: هذه المائدةُ لم يعدْ لها طعمٌ بعد الآن. فتقول له: واضحٌ أنّ أمّي ستنتظرُك بترقّب يا أرطغرل، ربّما ترى أولادها وكنّاتها وحفيدها مُجْتمعين للمرّة الأخيرة، لا تستكثرْ هذا عليها، لا تتركْها وحدَها محنيّة الرّأس. (الحلقة ٦٠)

ويكون مِن رزقِ الله للزّوجة الصّالحة أنْ تُرزَق بأمّ زوجٍ تعرفِ قيمتَها، وتدافع عنها؛ بل تشعرُ بأحزانها وما يتحرّك به قلبُها من دونِ أنْ تلفظَ بكلمةٍ واحدة، فها هي هايماه تجلسُ مع حليمة وأصليهان، وبعد أنْ ترى أنّ أصليهان تتحدّث عن أرطغرل وتنظرُ إليها حليمة بغيرة، تقول هايماه: أذكر أوّلَ يومٍ أتتْ فيه السيّدة حليمة إلى المخيّم، لم أصدّق ما قالتْه أنا والسّيدة سالجانَ أبدًا، لكنّها انشغلت وجاهدت، وجمعت ألوانًا لم نرَها في حياتنا على سجّادانا، وليس هذا فحسب، بينما كنت أقول أنا وسليمان شاه أنّ هذه البنتَ لن تنجح، ولا يمكن أن تُعْطينا حفيدًا صالحًا، دخلت حياتنا، ومن الجيّد أنّها فعلت، ليجعل اللهُ مِن نصيب كلّ أمّ كنّة مثلها. فتقومُ إليها وتقبّل يدَها قائلة: أدامَكِ الله يا أمّي. ثمّ تقول هايماه لأصليهان: آملُ أن يرزقَك الله - أيضًا - شخصًا شجاعًا يناسب نسبَك يا ابنتي أصليهان. (الحلقة ٦٦)

انظر إلى حليمة وهي تغسل قدمي زوجها قبْلَ نومِه، وتصبّ له الماءَ، وتُحضر له المنْشَفة، وانظرْ إليه عندما يرى الهمّ من نظرةِ عيْنيها دون أنْ تتكلّم؛ فيخفّف عنها.. (الحلقة ٨٢)

تجلس هيلينا مع النّساء قبل زواجها ببامسي، وتضع هايماه الحنّاء بيدها، وتخبرها أنّ ذلك مِن عاداتهم، فتقول لها مُتفاعلةً وصادقة: أشعرُ بالرغبةِ في البكاء، لا أعلم السّبب، ولا أستطيعُ إيضاح هذا، لكنْ أشعرُ بالفرح والحزن معًا، (وهو صدقٌ في الشّعور، وفي رسْم الشّخصية؛ فهي عاداتٌ غريبة عليها، ولكنّها تعيشُها بكامل الصّدق والإحساس) تقول لهم: أريدُ أن أتعلّم عاداتكم. فتقول لها هايماه: سيكون بامسي ألب بعد الآنَ زوجَك وصديقَكِ يا ابنتي، سيعلّمك كلّ شيء يعرفُه، ولتكوني طالبةً جيّدةً عنده. (الحلقة ٨٥) اللهَ الله.. ألا ما أجْملَ الوصيّة، أنْ تكون طالبةً جيّدة لدى زوجها، وما يستدعيه هذا اللفظُ من معاني الإنصات والإذعان، والتّسليم، والإقرار بأستاذيّة الزّوج حين التّلقّي... اللهَ الله مرّة أخرى.

يجلس بامسي مع زوجته حفصة - هلينا سابقًا - ويلمّح لها برغبته في الذّهاب لتناول الطّعام مع إخوانه، فيجد منها موافقةً ضمنيّة،
فيقول لها: لكنّي قلت لهم إنّ بامسي ألب لا يترُك زوجتَه وحيدةً في الخيمة ويذهب. فتقول له: هيّا اذهب. وقل لهم إنّ السيدة حفصة تتفهّم الوضْع، إنْ كان سيقضي الوقتَ بجانب إخوانه الذين يحبّهم ويكونُ سعيدًا فتستطيع هي

مراقبةَ طريقِه والصّبر. فيبتسمُ لها ويقبّل رأسَها ويقول: أكون فداءً لمَن أعطاني إيّاك. وبينما ينتظرُه تورغوت وسامسا وجونكوت على مائدتهم، يقول سامسا: لقد تأخّر بامسي، فهل يُعقل أن يترُكَ الحبيبة ويأتي!!؟ فيقول تورغوت: سيأتي يا أخي سيأتي. ثمّ يدخلُ بامسي مباشرة، ويقول: أتيتُ يا إخوتي. فيقول تورغوت: قلتُ لكم إنّ الأخ بامسي لا يتركُنا لوحْدنا. وعندما يحدّثونه كيف تركَتْك زوجتُك حفصة؟ فيقول: هناك امرأةٌ تفتحُ الورودَ في قلب الإنسان، وهناك امرأةٌ تُنْهيك بالسّموم. (الحلقة ٨٧) والله إنّه لمشهَدٌ يُكتَبُ بماء الذّهب.. ما هذه الانْسيابيّة والرّقي!! زوجةٌ تعلم أنّ راحةَ زوْجها في مقابلتِه لإخْوانه وأنّ جلوسَه متضرّرًا لن يجدي فتأذنُ له، وزوجٌ يعرفُ قيمةَ حقّ زوجته في القربِ منْه فيَسْتأذنُ منها ويَسْترضيها ثمّ عندما توافقُ يُعطي لها قيمتَها ويُشْعرها أنّ ذهابَه فضْلٌ منها عليه، وإخوةٌ يثقونَ في عاطفة أخيهم ورغبتِه في الجلوس معهم في ذلك الوقْت... اللهَ الله!!!!

وهذه درّةٌ أخرى في ميزانِ العَمل توضَع تاجًا على الرّأس، حين تجلس زوجتان معًا، لا في مجلسِ نميمةٍ، ولا في مجْلس تفاخرٍ أنّ كلًّا منهما تُمْسك بزمام زوْجها وتتحكّم فيه، أو تحاولُ الوقيعةَ بيْنها وبين زوْجها لتبدو - هي - النّاجحة الوحيدة في المكان، ولكنّها جلسةُ ودّ وتفْهيم وتوْضيح؛ بل وتعليم... فتجلس حليمة وبانوشيشيك مع حفصة أثناء زيارة السّلطان علاء الدين للقبيلة، وتقول هلينا: لا يشبهُ السّلطان علاء الدين الإمبراطورَ مطلقًا، كمْ هو شجاع!. فإنّ قدومَه إلى هنا ليسَ من عمل العقْل. فتقول حليمة: السّلطان ليس سلطانًا ما لم يكن واحدًا من رعيّته يا حفصة، هو منّا ونحن منه، فتقول حفصة: الآن علمتُ ماذا تعني أنْ تكوني امرأةً تركية. فتقول لها حليمة: الذي يجعل السّيّدة التركية قويّةً وشريفةً هي المتاعب التي تعانيها يا حفصة، هو وفاؤها لزوْجها وإيمانُها به، إيّاك أن تفقدي إيمانَك. تقول حفصة: كلّما ذهب بامسي للحربِ كأنّي ذاهبةٌ معه. كمْ هو امتحان صعب! فتقول حليمة: زوجةُ المحارب يجبُ أن تكون متينةً يا حفصة، ويجبُ أن تكون قوية، يجب أن تتحكّم بإرادتِها، يجب أنْ تأخذ الرّياح والسيول همَّها حتّى تستطيعَ استقبالَ زوجها عندما يعود من الحرب. (الحلقة ٨٩)

وحين يتمّ اتّهام أرطغرل بتسميم السّلطان علاء الدين، تذهب هايماه وحليمة لمقابلة ماهبري زوجة السّلطان، والتي تتعدّى باللّفظ على أرطغرل، فتقول حليمة: السيّد أرطغرل لا يتحرّك بالطّمع والتّكبّر، كلّ هذا هو افتراءٌ جافّ، همّ السيد أرطغرل ليس حفنة ترابٍ ولا منصب يا سيّدة ماهبري، هو ينحني أمامَ الله فقط، ويخدم قضيةَ الله فقط، لكنّي أرى أنّكِ كجميعِ مَن في القصر تنْحنون أمامَ المنصب. (الحلقة ١٠٩)

تدخل حفصة خيمةَ العلاج التي يرقدُ فيها بامسي مجروحًا من السّيف حين تنفيذ حكمِ الإعدام بدراغوس، فتقولُ له: عزيزي بامسي، الرّجلُ الوحيد الذي في داخليَ، يا مَن أشتاقُ إليه باسْتمرار، أنتَ كنت قاسيًا على الأعداء وصاحبَ

كلامٍ جميل معنا، زوجي بطلُ الأوغوز، ذو القلبِ الشّجاع، انْهض من أجل أولادِك؛ فهُم ينتظرونك. (الحلقة ١٤٥)

أجدُني في الختامِ لهذه القيمةِ أقفُ إجلالًا لكلّ زوجةٍ في العمل قامتْ بإيصال رسالةٍ قيّمة لكلّ زوجةٍ تريدُ أن يعلو ذكرُها في قلبِ زوْجها، ولا أخصّ المؤلف بذلك الثّناء؛ ولكنْ روعةُ الأداء وصدقُ التّعبير كان كفيلًا برسْم صورةٍ من القناعةِ للمُشاهد أنّ هذا هو الخلقُ القويم، فاللّهم أصلح نساءنا.

***

الحكمة.. ورصيد من العمر المُضاعَف

يقولونَ كلّما علا صوتُ الحكمةِ في عملٍ كلّما بانت رساليّته، واتّضح المقصودُ منه، وأننا هنا داخلَ العمل نلحظُ إصرارًا قد يبدو صارمًا على بثّ هذا المعنى والتأكيد عليه، فلا تكادُ تخلو حلقةٌ من حكمةٍ، بل تكادُ بعضُ الحلقات لا تنفكّ تصرّ على علوّ صوت الحكمة التي جاءتِ متنوّعة ومتعدّدة على لسان كثيرٍ من الشّخوص، حتّى تورالي - الطّفل الصّغير الذي ماتَ والداه وتكفّل به ديلي دمير - جرتِ الحكمةُ على لسانه، وهذا يدلّ على وعي الكاتب بقيمةِ عمله ومدى تأثيره على العامّة ومدى وضوح الرؤية والهدف لديه، بل واقْتناعه بجاهزيّة المجتمع للتفاعل مع ما يُلقيه عليهم، وما يريدُ - هو - أن يتلقّوه على مدار الحلقات.

صوتُ الحكمة هنا طاغٍ، ومسيطرٌ، ويعلو على كثيرٍ من أهداف العمل، ولا ينازعه في ذلك غيرُ التّركيز على العادات والتّقاليد التركية...

إنّنا هنا أمامَ عملٍ قيَمي بكلّ ما تحملُ الكلمة من دلالات، جاءت الحكمُ مُنسابة بلا تكلّف ولا تعمّد للَيّ عُنق الحوار حتّى يتيح مساحة لمراد القول، ولكنّها جاءت بأريحيّة بديعة يحتاجُها الموقف بلْ وربّما لا غنى له عنها في حينه!!

وعلى الرّغم من أنّ الحكمةَ هي محصّلةُ سنواتٍ من العمر جاءتْ عن تراكمات حياتيّة أكسبت صاحبَها الخبرةَ والحنكة، إلّا أنّنا نجدُ الحكمة لا تأتي فقطْ على لسان الكبار، ولكن هذا هو تورالي يحدّث أرطغرل عن أنّ *وجود الله يحمي من كلّ الشّرور*!!

إنّ قراءةً متأنّيةً ومتابَعَةً هادئة لصوتِ الحكمة داخلَ العمل يجعلنا نقفُ مبْهورين أمامَ هذه القدرة العجيبة على التّوظيف والتّخليق، ثمّ هذه الفنّية العالية في الأداء، والذي يتناسب بانسيابيّة مع المعْنى المُراد، سواء كان: قتاليًّا جاء صارمًا، أو إيمانيًّا جاء هادئًا مستريحَ النّفس، أو اجتماعيًّا جاء بشيء من الإقرار والتعوّد...

لم يخلُ صوتُ الحكمة في كثيرٍ من المواقف من التّأكيد على العادات والتقاليد حتّى مع الكفّار ممّا يعني ثباتَ القيمة وديمومةَ التّمسك بها، **ومِن بين ما اخترتُ من مواقف ما يلي**:

يأخذ كارا تويغار جوندودو أسيرًا، ويريد مقابلَ إطلاق سراحه أنْ يأخذ نعمان وحليمة ويغيت، وعندما تعلم سالجان بخبر أسْر زوجها جوندودو بسبب حليمة وعائلتها، تقول: إنّ هؤلاء لديهم سرٌّ يخفونه عنّا، ولكنّي سأعرفه، ثمّ سأحاسبهم عليه. فتقول لها هايماه: سالجان، الجبالُ تُثبِت الأرض، والتّقاليد تثبتُ الأشياء. يا ابنتي ما تقولينه عمل الرجال. (الحلقة ٣)

يقف تورغوت ويغيت في سجن القلعة مقيّدي الأرْجل والأيدي، فينظر له تورغوت ويقول له: أيّها البطل، لا تستسلمْ، الصّبرُ مرّ، ولكنّ ثماره حلوة، اتّفقنا يا أسدي؟ فيقول له: أنا بخير يا أخي تورغوت، فقط تعبتُ قليلًا. فيقول له: أحسنت يا كبشي. (الحلقة ٧)

يجلس درويش مع ابنِ عربي ويتحسّر على فِعْل بعض الأمراء وصراعِهم على السّلطة، فيقول له ابنُ العربي: ليكتب الظّالمون من الظلم ما شاءوا؛ سيأتي يوم يُمسح فيه، كما يُمسح فيه الحبرُ من الورق، أمّا اسم يوسف فهو مكتوبٌ في لوْح الرحمن.، من هنا يصفو قلبُ الإنسان. (الحلقة ١٣)

ترفض سالجان طلبَ هايماه بالرّحمة والعفو عن آيكيز في أمر الجلد، وتقف لتنفّذ الأمر فتقول هايماه بصوتٍ خافت في نهاية الجَلْد: مِن الواضح أني عاملتك برخاء جدًّا يا سالجان؟ فلتخافي منّي بعد الآن، مَن لا يرحم لا يُرحم. (الحلقة ١٣)

يجلس أرطغرل مع حليمة وتقول له: لقد خفتُ كثيرًا ألّا نجتمع، لو حصل لك شيء ماذا كنت سأفعل؟ فيردّ عليها: الأجلُ يحمي الإنسانَ من الموت يا سلطانة حليمة. (الحلقة ٢٣).. (وهذا المعنى متكرّر كثيرًا جدًّا على مدار العمل ومع كلّ مكيدةٍ فاشلة).

يصدُرُ القرار بنفي حمزة وعبد الرحمن ودوغان وتورغوت، وبعدما يذهبوا يقول جوندودو لديلي دمير: هذا الوضع يُحرق روحي أيضًا يا ديلي دمير. ولكنْ ليس هناك حلٌّ آخر، يجب أنْ نجعل هذا المدعو بوركلو يتكلّم مهْما كان، فيقول له ديلي دمير: هل معرفة الحقيقة مِن بَعْد كسْر قلوبِ الجميع ستجلبُ لك الاطمئنانَ يا سيّدي جوندودو؟ (الحلقة ٢٩)

تكشفُ حليمة الغطاءَ عن يد أرطغرل المُصابة، وتفزع، ثمّ تقول له: أرطغرل، كيف ستمسك السّيف بيدك هذه؟!! فيقول لها: السّيفُ لا يُمسَك باليد يا حليمة، بل بالقلب. (الحلقة ٣٠)

يسير أرطغرل مع ابنِ عربي ويقول: المغول قد ثاروا على المسلمين، وقبيلة الكايي في الهلاك. فيقول ابنُ عربي: لا تذكُرِ البلاءَ يا بني، تذكّر أحلامك، إنّ الأحلام تكوّن الأمل. (الحلقة ٣٥)

يجتمع ذوو اللّحى البيضاء (قادة الخدمة) مع الأربعة والعشرين شخصًا المختارين من قبائل الأوغوز، من بينهم أرطغرل عن قبيلة الكايي، وآرتوك عن قبيلة الدودورغا، ويقول كبيرهم: لنهضة الترك فإنّه يُتجَهّز الآن للمقاومة الكبرى. فيسأل أحدهم: بينما فسدتْ معايشُنا، والمغولُ يحرقون في كلّ الاتّجاهات.. كيف تكون تلك القيامة يا سيّدي؟ فيقول: كلّما زاد الظلام حلكةً فاعلمْ أنّ الشّفق يلوح عن قرب، أيّامنا البائسة التي تبثّ الدّعة واليأس والخوف ستعطينا روحًا جديدة. أحفاد الأوغوز الأربعة والعشرين، لا تنسوا يا

أولاد.. ليس النيرانُ بداخل أبنيتنا ولكنّه حلمُ الدّولة في روح التّرك، وكلّ تركيّ دولة، إنْ عاش على الأرض تركيٌّ واحدٌ حتّى؛ فهو بالنّسبة لنا دولة. (الحلقة ٤٢)

يدخل ابنُ عربي على أرطغرل في الخان، ويعجب بالمكان، ولكنه يقول لأرطغرل: كمْ هو مباركٌ أنْ تفتح مكانًا ما، ولكنّ الفتحَ الأساسي هو فتح القلوب. (الحلقة ٨٠)

يقول أرطغرل لعلي يار بعد علمِه بانضمام ثلاثة سادة من قبائل التّرك إلى أورال ضدّهما: لا تغضبْ يا سيّد علي يار، عندما يتّحد الرّجالُ يتّحد الشّر. (الحلقة ٨٢)

يدخل أرطغرل على ابنِ عربي بعد فراقِ أخيه ديندار للقبيلة لاعترافه بخطئه، فيقول له: تهرب طمأنينة مَن يبحثُ عن طمأنينة الدّنيا يا ولدي، ما الأمر الذي أزعجك من جديد؟ فيقول أرطغرل: قبل أن يهدأ ألم دوغان قام أخي ديندار بترك القبيلة، فيقول له: صاحبُ المنصب يكون همّه كبيرًا يا ولدي، العفو عمّن أدرك خطأه هو واجبُ ديننا. بني أرطغرل، الأخوّة مثل المسبحة إنْ أوضحوا صفوفَهم ونظامهم فهُم سادة مثل إمامَ المسبحة تمامًا، (ويشير إلى الشّاهد في المسبحة). (الحلقة ٨٦)

تسأل أصليهان أرطغرل بعدما تمّ تسميمُها وتورغوت: لماذا أطلقتَ سراحَ بهادير، ومحاربُه هو الذي أعطى السمّ لأسماء لتضعه في الشّراب؟! فيقول لها أرطغرل: توجد بعضُ الأسرار عبئُها أثقلُ من الجبال، إنْ قلتها قبل أوانِها يبقى الجميع تحتَها. (الحلقة ٩٩)

ثمّ ها هي مجموعةٌ من الحكم المبثوثة، خرجتْ في مواقفها المُحتاجة لها، والتي كانت علامةً على ارتفاعِ صوت الحكمة في العمل بشكلٍ يوحي بقيمته القيميّة:

- مَن ينهضْ بالغضب يجلسْ بالخسائر.
- وجودُ الأب مثل شجرة الدّلب إنْ لم تثمرْ فظلّها يكفي.
- اللّحّام همّه اللحم، والخروف همّه روحه.
- مَن ينَمْ مع الكلب يقمْ وقدْ أصبح مثله.
- مَن تكنْ قيامته من خلال الظلم تكن نهايته وخيمة.
- العدوّ العاقل خير من الصديق الجاهل.
- إن الحصى الصغيرة لا يمكنها أن تقف أمام خرير الماء.
- مَن لا يأخذ رضا الله لا يأخذ رضانا يا بني.

- دخول القبر بشرف خير من الانحناء ودخول الجحر.
- الشهادة جمع للمّ الشمل.
- إنّ فتحَ القلوب أفضل من فتح الأماكن.
- إنْ لم تعرف عدوّك فلن تهزمه أبدًا.
- إنّ الحصان يلزمه رجل، والرجل تلزمه الشجاعة.
- عُشّ الأفعى لا يخر ج منه إلّا الشر.
- لا تبقى أي خيانة دون عقاب.
- طريق الرجال لا تذهب لغير الصواب.
- مَن يرتدي تاج الخيانة لا يمكن أن يصبح حاكمًا.
- لا تنتهي اللعبة قبل موت الملك.
- مَن يأتِ بالدّم يذهب بالدم.
- الغربان لا تأكل مع النسور، والقطط لا تأكل مع الأسود.
- ليس عليك أنْ تسعى خلفَ الصّيد في الضباب، سيأتي الصيد إلى فخّك.
- الحبلُ لا ينقطع إلّا مِن حين أصبح رفيعًا.
- إنْ لم تسحق الأفعى التي بقربك وتسمح لها أن تكبر؛ فإنّها ستغرز أسنانها فيك أنت أوّلًا.
- أظلمُ لحظة هي أقربُ لحظة للنور.
- يوجد خيرٌ في كلّ شر.
- إنّ المرء يدفنُ نصفَ قلبه في التراب مع مَن يحب.
- إنّ الثّور الذي أتي أجلُه يقوم بلعْق سكّين القصّاب.
- إنْ دخلتَ جحرَ الأفعى ينبغي أن تكون معك سميّة أكثر منه.
- الذين يختبئون في ظلام الخيانة محكومٌ عليهم أن يُكْشَفوا في شمس العدالة.
- العمّ نصفُ الأب.
- إنّ الخلّ القويّ يضرّ إناءه.
- التّدبير منّا، والتّقدير من الله.
- العيشُ بشجاعة أصعبُ من الموت بشجاعة.

- إنّ الحبال التي تطوّق رقابَ الثّعالب لا تجدي نفعًا مع الذئب.
- شرّ النهار أفضلُ من خير الليل.
- مَن يَدهَس التّقاليد يأتِ عليه يومٌ يُدهَس فيه.
- بعدَ بروز الشّمس لا يمكنك الاسترشاد بالنجوم .
- الأفعى لا تستخدمُ الباب.
- الإنسانُ لا يكتسبُ قيمةً بناءً على أحْواله التي هو عليْها، بلْ مِن خلالِ الأحْوالِ التي يسْعَى إليها.

***

الدعاء مِعْراجُ الأرواح

ممّا لا شكّ فيه أنّ أيّ عملٍ يرتبط تحقيقُه بمدى إخلاص فاعلِه من جهة، واعتمادِه على ربّه، ووثوقِهِ به من جهةٍ أخرى، وبين الجهتيْن يبدو جسرُ التّواصل ممدودًا لمَن ملكَ الوسيلة، وضمِنَ الوصول، وهذا لا يتأتّى إلّا بالدّعاء، ولقد كان العملُ حريصًا أيّما حرص على التأكيد على هذا المعنى، فنجد الابنَ يطلبُ من أمّه الدّعاء له وهو خارجٌ لمهمّة معينة، وكذلك في أنْ يطلب الزّوج من زوجته ذلك، ولقد كان الحوارُ موفّقًا في انتقاءِ ألفاظ الدّعاء بما يحمل قيمةً ورسالة حقيقيّة صادقة عند الطّلب كأنْ تقول هايماه مثلًا لسليمان وهو خارج للغزو، أو تقول حليمة لأرطغرل وهو خارج للمواجهة.. بل وحتّى الطّفل الصّغير غوندوز حين أسَرَه البيزنطيّون تراه يجلسُ في الزّنزانة يدعو ويتضرّع إلى ربّه عزّ وجلّ.

وقسْ على ذلك ما كان على مدارِ العمل في كافّة مواقفه، ناهيكَ عنْ أمر ابنِ عربي المتغلغل في المواقف الحرجة، فتنكشفُ الغمّة باللّجوء إلى الله والتضرّع له، وكذلك في لحظات الافتقار والعَوَز؛ بل وفي لحظات الانتصارِ والفتح والتّمكين.

كلّ ذلك ليؤكّد بما لا يدع مجالًا للرّيبة أنّ العمل له رسالةٌ حقيقية وواضحة؛ أنْ تعود المجتمعاتُ التي تريد المَنَعة والنصر إلى ربّها، ولا تعتمدَ فقط على قوّتها وعنفوانها، حتّى الأفراد في ذاتيّتهم وأمور حياتهم ينبغي لهم الوقوفُ مع هذا المعنى ليتمّ مرادهم وتتحقّق غاياتهم.

وهو الفهم الذي تؤازره كثيرٌ من المواقف الحرجة التي لم يكنْ فيها الخلاصُ إلّا باللجوء إلى الله، فها هُم أرطغرل ومحاربوه يلجئون إلى الله بزيّهمُ الحربيّ في أرض الغزو أن يتمّم الله لهم الظّفرَ والنّصر. وهذا المعْنى مخبوءٌ في حنايا مواقفِهم القتالية كلّها مبدوءة بقولهم: الحقّ هو الله، الحيّ هو الله، يا الله... بما يستدعي اتّصالهم بالمدد الحقيقي.

لقد تجلّى الانتصارُ للدّعاء وقيمته تجليًّا أساسيًّا لكلّ الشّخوص، وحتّى مع اختلاف الديانات والأيديولوجيّات؛ فها هو الكاهنُ المغوليّ يتنبّأ بما سيحدُث من خسائرَ لنويان في المستقبل، وهي الحالةُ التي عاشَها نويان مع الكاهن وتحوّل بها إلى لحظةِ الهُيام والغياب في حضرتِه المزْعومة بما يغذّي هذه الحالةَ الرّوحانية حسبَ ظنّه، ويسترضي معبودَه، بل ويستشيره في كثيرٍ من المواقف، فيجلس نويان يتحدّث مع شامان الحكيم، ويقول له: ماذا تقولُ الأرواحُ لي يا عظيمَ الحُكماء؟ فيقول له: إنْ لم تقطعْ شريانَ أرطغرل فسوف يكون وجهُ الأرض له ولأولاده، وسوف يملُك كلّ شيء على وجه الأرض. (الحلقة ٣٤)

كذلك وقوفُ آريس - قائد قلعة كاراجسيار - وطلبه من ربّه النّصر والظّفر

على الأتراك، وهو يجثو على ركبتيه.. أيضًا حالةٌ من طلب الروحانية أو المدد.

ولكنْ جلّ المواقفِ التي تجلّى فيها هذا المعنى في العمل كانت متأرجحةً بين أرطغرل وابن عربي.. والتي نذكرُ منها ما يلي:

يذهب أرطغرل يطلب وطنًا جديدًا من العزيز في حلب، أعدّ له الصليبيّون - بمعاونة أعوانهم من المسلمين - مكيدةً بوضْع البخور المخدّر في الشّمعة؛ فوقع مغشيًّا عليه، بينما ابن عربي في حضرةٍ في مكانٍ آخر إذْ به يشعرُ بأرطغرل وبالضّيق الذي يمرّ به، فيتوقّف عن الذّكر بصيحةٍ ثمّ يقول: انهضْ يا ولدي. حتّى أنّه يعترف له بعد ذلك عند رؤيتِه لاحقًا بأنّه دبّر له فرسانُ الهيكل مكيدة، ولقد رأيتُك في منامي. فيقول له: إنّ ذلك بفضْل الله.. ولقد كانت هذه المعيّة على الرّغم من تأكيدِ العمل عليها إلّا أنّها أخِذَت عليهم بمأخَذِ الركون إلى التّصوّف الممجوج الذي اعتبرَه البعضُ شيئًا من الشّطحات التي كان ينبغي أنْ يخلو منها العمل.

يأخذ أرطغرل حليمة والأمير نعمان وولده لإيصالهم إلى عزيز حلب، فيرسل كورد أوغلو جنودَه ليأسروا أرطغرل، ويكون
ابنُ عربي في حضرةٍ أيضًا، وفي لحظةٍ يتوقّف الذّكر بصيحةٍ من ابن عربي ليدركَ أرطغرل بروحِه أنّ هناك خطرًا فيتوقّف لمواجهته.

وفيما يلي بعضٌ من هذه الشّواهد مطعّمة بأشخاصٍ أخر:

يضرب ديلي دمير وأرطغرل الحديدَ في الورشة (وكلّ منهما يصيح بكلمة ذكْر لله) ويقول أرطغرل: حتّى الحديد لم يتحمّلْ ذكرَ الله وآمن. (أي لان) (الحلقة ١)

يجلس ابنُ عربي في مجلسِ ذكْره يحدّث الناس بقصّة الرّجل الذي أراد أنْ يقتل النبي-صلى الله عليه وسلم - وسأله: مَن يُنقذك منّي الآن؟ فقال النبي: الله. فسقط السيفُ من يدِ الرّجل. نبيّنا الكريم قال *الله* مِن قلبه بطريقةٍ جعلت الأرضَ والسّماء تئنّان. القلبُ العامر بالإيمان مهْما يواجِهُ من خطرٍ يعلم أنّ الإيمان سيرشده للطّريق الحقّ. (الحلقة ١٥)

يدخل أرطغرل على ابنِ عربي فيقول له ابنُ العربي: سمعت أنّ ربي يرسلُ الرّحمة عليك مدرارًا. (وقدْ مرّ أرطغرل حينَها بكثيرٍ من الصّعاب!!) فيقول له أرطغرل: الرّحمة!! فيقول ابنُ العربي: نعم، البلاءُ والمصائبُ لديك لا تنتهي. فيقول أرطغرل: اليومُ بلا مصيبةٌ أصبحَ منكرًا!!. (الحلقة ٥٧).. وهذه صورة تجسد الحالة الراضية بقضاء الله وقدره.

يفقد أرطغرل سيادةَ القبيلة في الاجتماع، ويفقدُ معها حلمَه بإقناع النّاس بالهجرة معه إلى حدودِ بيزنطة، فيجلس ابنُ عربي، ويقول له هدفُ كلّ الهجْرات، يا ولدي عندما تنتهي الهجرة يبدأ كلّ شيء مِن جديد، يجبُ أنْ

تكون هجرتُك من أجل إنقاذ كلّ الناس، إنْ شاء الله يكون ربي عونًا ومعينًا لك. (الحلقة ٥٧)

يأتي أرطغرل إلى القبيلة وقد أنفقَ الذّهب في عتقِ رجلٍ نصرانيّ، فعاتبه أهلُ القبيلة قائلين: هل بعتَ أرزاقنا لتعتِقَ هذا الكافَر؟! فقال لهم: منذُ متى وأنْتم تلاحقون الأرْزاق؟! هل نسيتُم اسمَ الله الرّازق؟! هاتشاتوريان هو ضيفُ الرّب، والضّيف يأتي برزْق عشرةِ أشخاص، يأكلُ واحدٌ ويبقى تسعة. (الحلقة ٦٢)

يأتي أرطغرل إلى المحاربينَ في المكان الذي حدّده لهم آرتوك، ويدافع عن تورغوت قائلًا: تورغوت ألب بينما يظنّ بأنّه يساعدنا لكنّه حمل إلينا سمومَ الشّيطان، ولكن فاتهم أنْ يحسبوا حسابَ شيء واحد، مهْما نصبَ الشّيطان من فخّ، لكنّهم لم يحسبوا حسابَ صاحب الفخّ الحقيقي. (الحلقة ٦٩)

يدخل ابنُ عربي على أرطغرل في الخان، ويُعجب بالمكان، ولكنّه يقول لأرطغرل: كم هو مبارَكٌ أنْ تفتح مكانًا ما، ولكنّ الفتحَ الأساسي هو فتحُ القلوب. (الحلقة ٨٠)

يذهب أرطغرل بعد تعْنيفه لأخيه ديندار بسبب خطئه، يذهب إلى ابن عربي، فيقول له ابن عربي: سيّدنا عندما كان ينشئ الإسلامَ في المدينة قد عاشَ كثيرًا من المصاعب، كان قائدًا ناجحًا وتاجرًا جيدًا وأبًا رحيمًا وزوجًا حنونًا، كان ينفّذ كلّ وظائفه بأهمية كبيرة، لكن من أحد أهمّ وظائفه هي تنشئةُ الإنسان، نبيّنا قد اهتمّ بطلبات أصحاب الصّفّة بنفسه، بعد ذلك هؤلاء الشّباب كانوا مستقبلًا للعالم الإسلامي، من أجل التحوّل إلى المنزلة التي تريدها يجبُ عليك أيضًا أن تأخذَ بجانبك ناسًا أصحابَ لياقة، يجب عليك أيضًا تنشئة قلوبِ الشّباب، يجبُ عليك إيضاح عدالة سيادتك وإلّا فالأعاصيرُ ستدمّر ما غرسته، اجعلِ الغِراسَ المزروعة تمدّ جذرها في التّراب حتّى لا تتكسّر فروعُها في عاصفةٍ من بعدك. (الحلقة ٨١)

يدخل أرطغرل الخيمةَ على ابن عربي فيقول له: وأنا أقرأ عن هجرة نبينا - صلى الله عليه وسلم - من مكّة إلى المدينة، لقد فهمتُ من جديدِ المعاني العميقة في الهجرة وما الكنوز المخفيّة والمعجزة الكبرى فيها، فيقول له أرطغرل: لا جعَلنا الله نحيدُ عنْ طريق نبيّنا - صلى الله عليه وسلم - قائدنا فقط هو نبيّنا، صلى الله عليه وسلم، سنسير في طريقِه بما تعلّمناه منه. فيقول له ابن عربي: فليؤيّدكم الله. (الحلقة ٨٢)

يجلس ابنُ عربي يقصّ قصّة الهجرة على أرطغرل، ثمّ يقول له: سيد أرطغرل، إنّ قصصَ نبيّنا الكريم كثيرة، وما يقع علي عاتقنا هو أخذُ نصيبنا من هذه الأمثلة، وتطبيقها في حياتنا. فيقول أرطغرل: سيّدنا محمّد مُرْشدنا ومعلّمنا، سنمشي بطريقه وأساليبِه، لا أبعدنا الله عنها. (الحلقة ٨٢)

يجلس ابنُ عربي مع أرطغرل بعد موت دوغان، ويقول له: المصائبُ هي الضّيف الذي يُرسله لمَن يحبّ، تأتي وتذهب، المهمّ في الأمر هو القدرةُ على الصّبر على المصائب بإذن الذي أرسلها يا بني.. أرطغرل يا بني، عندما يختارُ الله أمةً أو شخصًا يمتحنه ببعض الامتحانات حتى يصبح أقوى وينبعثَ من جديد، تتمّة هذه الحادثة مثل دخول سهمٍ في قوسِه لأنّه كلّما اشتدّ القوس أكثر يذهب السّهمُ مسافةً أكبر، وأنت ستأخذ مَن بقوا في الخلف تحتَ جناحك، سوف تساعدهم برحمةِ الرّب. الله قادرٌ على إلهامهم الصّبر. (الحلقة ٨٤)

تمرّ فترةُ قحطٍ وفاقة بعد قطع التّجارة من قِبَل قائد النصارى فاسيليوس، فيحتاج بعض الرّوميّين النّصارى إلى المؤن والغذاء فيتطوّع لهم أهلُ قبيلة الكايي بما يحتاجون، فتخرج هايماه إلى النّاس قائلةً لهم: نساء قبيلة الكايي المضحّيات ورجالها الشّجعان.. نحن أمّة الرسول الذي لا ينامُ شَبِعًا وجارُه جائع، مسئوليّتُنا ثقيلة، يجب أن نمدّ يدَنا للمظلوم ونرحمَه دونَ النّظر إلى دينه وعقيدتِه، ستُنسَى مساعدتكم هذه لجيرانِنا غير المسلمين، ولنْ ينسوا تضحياتكم، هذه المساعدات ستكونُ وسيلةً لعدم تفكّك وحدتَنا بإذن الله، ليرضى الله عنكم جميعًا. (الحلقة ٨٧)

بعد فتح قلعة كاراجسيار يقول أرطغرل للجميع: الآن، وبعد فتح القلعة، لنعلن فتحَنا هذا بالأذان المحمّدي..
ويقف المؤذّن ليؤذّن بعدها. (وفي هذا شبهٌ بفتح مكّة، وصعودِ بلال الحبشي عليها ليعلن الأذان..) ثمّ هذا النّفس الطّويل - من قبل مُخْرج العمل - بعد الأذان يدلّ على مدى الرّاحة النفسيّة والطمأنينة التي وصلت لها القلوب. (الحلقة ١٠٣)

يصلّي ابنُ عربي في كهفِ جييكلي، ثمّ بعد الصلاة، يدعو قائلًا: يا ربي، أنت الرّحمن الرحيم، اعفُ عنّا، قد وقعنا في المعصية والذّل، وفقدنا عزّة الإسلام، لم نشكرك على نعمك التي أنعمت بها علينا، اغفرْ لنا، يا ربّ أنت الذي جعلت من الغار مخبئًا، ومن العنكبوت درعًا، ومن الطير جنديًّا، يا ربّي أخرجنا مِن هذا الوادي ومُدّنا بمددك، ارحمنا لكي يعود الفخرُ لنا لنكون لائقين بالإسلام.. دين البشرية، لا تترك رجالَك حتّى يرفعوا رأسَهم أمام الظّلّام، المددَ يا الله كي لا نعطي المجالَ للكفّار وننتصر على الدّوام.. آمين. (الحلقة ٤٨)

يقول ابنُ عربي: يا ربّ، ساعد الشّجعان الذين وضعوا أرواحَهم في سبيل إعلاء اسمِك، انْصرهم في ميدان الحرب، ارْزقهم أخلاقَ حبيبك ورسولِك في الحرب، اجعل سيوفَهم كسيفِ سيّدنا علي، كما لم تتركْ أمّتك وحدها في بدرٍ لا تتركْ مَن يسيرون على درْبِهم، نوكلك أرواحَ مَن وضعوا أرواحهم في سبيلِ القضيّة المقدّسة، أنت خيرُ مَن وكلت إليه الأرواحُ، تقبّل دعاءنا في عرشِك بجاه رسولنا الأعظم يا ربّي.. آمين. (الحلقة ٨١)

يدعو أرطغرل: يا ربّي، مالك جنود الأرض والسّموات، امْنحنا مكانًا بين جنودك العُظماء، أصلح ذريّتي، امنحنا مكانًا في دار السّعادة، لا تجعل رايتي تقع أرضًا، أعْطي قلبي الجرأة ومِعْصمي القوّة، أمنيتي هي وصولُ مرضاتك، أفسح لحُلمي طريقًا كي أحقّقه، أعطي محاربينَك الذين يحاربون لمرضاتك نصرًا عظيمًا، اجعلْ منّي ومِن ذريّتي خدمًا لدعوتك المقدّسة. (الحلقة ٨٢)

يجلس ابنُ عربي يدعو ربّه في اللّحظة التي يواجه فيها أرطغرل ومحاربوه قائدَ القلعة وجنودَه النّصارى، فيدعو ابنُ العربي: يا ربّي، أنت جاعلُ جميع أنواع الفاكهة وأشجار النّخيل ذات الأكمام، والأزهار ذات الرّائحة الطيبة في خدمة مخلوقاتك، وأنت مَن أظهر الجَمال والكمال والوحدة والغنى في جميع المخلوقات من الذّرّة إلى الشمس، لا تحرمنا من رحمتك بجاه أسمائك الحسنى، يا ربّي.. أنت مَن جعل من يوسف عزيزًا على مصر بعد أنْ كان سجينَ بئرٍ مظلم، أنتَ حامي يونس الذي سقطَ في البحر ضمن بطنِ الحوت، أنت حاميِ حبيبك المصطفى ضمنَ خيوط العنكبوت، نطلبُ العونَ منَك بكلّ عجزنا، لا تترك مَن يحاربون في سبيلك وقد تبنّوا الدّعوة في سبيلك دون صاحبٍ يا إلهي، ردّ مكْرَ مَن أراد بهم مكرًا على أنفسهم يا إلهي، المددُ منك يا إلهي، اللّطفُ منك يا إلهي، الكرمُ منك يا إلهي، بحرمةِ نبيّك المبارك تقبّل دعاءنا بلطفِك وكرمك، اللّهم تقبّل. (الحلقة ٨٧)

تقفُ هايماه بين النّساء يعددن الطّعام للوليمة، فتقول لهنّ: أيّتها السيدات، وزّعنَ اللحم على الأهالي من أفضل جوانبِه، ليشبعَ الفقراء، ولتعطَى الصدقةُ للمساكين، إنْ شاء الله بدعائهم تدفَعُ المصائبُ عنّا. (الحلقة ٩٦)

بعد فتح القلعة يجلسُ أرطغرل - وقد منعَ دخول أيّ أحدٍ عليه - منفردًا على الأرض خلفَ العرش في القلعة، ينظرُ إلى الأرض، والنّافذة أمامه تشعّ نورًا، يناجي ربّه، (مؤدّبًا نفسه وزاجرًا لها عن العُجْب والغرور، قائلًا: يا الله يا مقتدر، لا تحرمني منْك في هذه الدّنيا الفانية يا ربّ، أغثني وارْحمني يا رب، لا تأسِرْ قلبي بهذا العرشِ يا ربّي، لا تجعلني مِن عبادك الطّامعين بالمقام يا ربي، أنا أنتظرُ الرّحمة منك فقط، لا تجعلني أنهزمُ لحيَل الشيطان يا الله، لا تجعلني أرى الدنيا جميلة وأنسى الآخرة يا الله، أعرفُ أنّ النّصر منك، أعرف أنّ القوّة منك، لا تجعلني من عبادك الجاهلين يا ربي، لتكنْ روحي فداء في سبيلك، ونسْلي في طريقك.. آمين. (الحلقة ١٠٤)

قبلَ الذّهاب لفتح قلعة كاراجسيار يقف أرطغرل ومحاربوه للصّلاة، ثمّ بعدها يدعو أرطغرل: إلهي العليّ القدير، يا مَن تقول للشيء كنْ فيكون، يا مالئ قلوبنا بالإيمان، نحن خرجنا إلى الطريق لنجعلَ العدالة تحكُم العالم إرضاءً لك، فانْصرنا يا ربّي، لا تجعلنا المغلوبين أمامَ الظالمين، ولا الخجولين أمامَ المظلومين يا ربّي، لا تدعْ حدوات حوافر أحْصنتنا تتعثّر يا ربّي، لا تدع سيوفَنا العالية تذهب حدّتُها يا ربّي، فليكن إيماننا درعنا على شكلِ طبقاتٍ يا ربّي،

تقبّل دعاءنا بحُرمة سيدنا محمّد المصطفى يا ربّي. (الحلقة ١٠٣)

إنّ رحلةَ البحثِ عن الذّات المؤمنة بمسوّغات وحيْثيّات وجودِها الحقيقيّة نجده قد تجلّى بهذه الإيحاءاتِ الإيمانيّة والركائز الحواريّة المَدْعومة بتيارٍ جارفٍ من الرّوحانيات المتدفّقة، وكذلك ورودُ كثيرٍ من القَصص النّبوي وقصصِ الصّحابة معه ممّا يبرزُ بُعدًا رساليًّا قيميًّا في ترسيخ التّراث الدّيني كمُنطلق، وإفراد المساحةِ الزّمنية لها والتي قد تصلُ إلى حلقةٍ كاملة تضمّنتْ خطبةَ وصلاةَ الجُمعة كاملتيْن!!، كذلك الاهتمامُ ببعض جزئيّات السنّة النّبوية من مثلِ الأذانِ للمؤْلود ساعةَ مؤْلده وتسميتِه؛ فها هي بانوشيشك - زوجة دوغان الشهيد محارب أرطغرل - تأتي أرطغرل مع ابنِ دوغان ليسمّيه؛ وهو الأمرُ الذي يفتحُ مجدّدًا بابَ السّؤال: لماذا هذا الإصرارُ غيرُ المنقطع لإبراز هذا الجانب الرّوحاني طيلةَ العمل؟ وإنّ الإجابة عن ذلكَ لن تكونَ صعبةَ المنال؛ حيثُ التّأكيد على رساليّة الفنّ وقدرتِه حين يكونُ هادفًا ومستثمَرًا في أنْ يواجهَ التّوحّش الماديّ المسْعورَ من قِبَل المجتمعات الماديّة الجافّة الجامدة ليعلنَ صيحتَه الحقّ ويجدّد بها روحَ النّفرة، ويوقظَ الإيمانَ المخدّر في نفوس أصحابِه.

***

الأعرافُ والتقاليد تعودُ بالخير

لقد ترسّخ في الضّمير المجتمعيّ، بل وفي حركةِ العُمران البشري منذُ ظهور الإنسان على الأرض، أنّ التمسّك بالعادات والتقاليد والأعرافِ من أهمّ عواملِ البقاءِ والحفاظ على هذه الحياة المستقرّة مِن الانهيار؛ حيث يقفُ الحفاظُ على العادات سدًّا منيعًا أمام كلّ دخيلٍ مستحدث، ذلك لأنّ ثباتَ هذه الأعراف وتداولَها وتوريثَها دليلُ صحّة الحياة، حين تعلو قيمةُ الوطن على مصالحِ الفرد، وحتّى لو تكلّمنا عن المُسْتوى الفردي فإنّ الإنسان كلّما تمسّك بمبادئه وعاداته الصّحيحة كلّما كُتبَ له الثباتُ أمام المِحَن والابتلاءات، ناهيك عنْ فوائدها الجمّة له في حياته، والتي منْها: صناعةُ الذّكريات لتدومَ طوالَ العمر، وتصبحَ موضوعًا للحديث عن الهويّة والاستقلالية، وكذلك سدّ الفجوةِ بين الأجيالِ من خلالِ توارث التّقاليد من جيلٍ إلى جيل بما يُمكن الحصولُ به على روابطَ مشتركةٍ فيما بينهم من خلال الحديث عن الذّكريات والقصص المختلفة، وإنّ من أهمّ تلك الآثار الجيدةِ للفرد أنّه عندما يتّبع تقاليدَه المجتمعيّة فإنّه يجدُ نفسه ويكتشفُها دون الشّعور بالضّياع أو عدمِ الانتماء لأيّة مجموعة.. وكذلك القول على المجتمعات التي لا تريدُ الانصهارَ في ثقافات أخرى.

جاء المسلسلُ ليؤكّد على هذه العادات والأعراف في شكلٍ صارم وحاسم، ومتنوّع التلقّي والتناول.. تناغمٌ من كافّة الأعمار؛ الأطفال والشّباب، والشّيوخ والنّساء.. من السّلطان وحتى المواطن البسيط، مرورًا بالبيت وساحة القتال، وحتّى في التّعامل مع الأعداء.. في رغدِ العيش وأصعبِه.. وهذا الأمرُ لم يأتِ مفروضًا عليهم من الغير؛ بل وافقَ فيه المسلسل ما تعارف عليه العلماء أنّ العاداتِ ظاهرةٌ اجتماعية تتعلّق بأفعال الناس، ويشتقّ وجودُها من الفطرة الاجتماعيّة؛ فهي ضرورةٌ اجتماعية تصدُرُ عن المجتمع بجميع طوائفه، لا عن سلطةٍ معيّنة تصنعُها وتفرضُها عليهم، وإنّما قوامُها إيمانُ الناس بها وحرصُهم على تطبيقها.

ومِن بين الأمثلة الدّالة على حرص العمل على ترْسيخ هذه العادات والأعراف والتّأكيد عليها؛ ما يلي:

يتحدّث سليمان شاه مع أرطغرل عن وجود حليمة وأبيها وأخيها في القبيلة، وأنّ وراءهم سرٌّ خطير، فيقول: لا شكّ أنّهم ضيوفنا، تاجُ رؤوسنا، لكنْ لا يُمكننا أن نغضّ الطّرف عن هذا يا أرطغرل. (الحلقة ٣).

عندما فاتح سليمان شاه أرطغرل برغبته في زواجه من جوكتشا، قال له (وقد أحسّ برغبتِه أيضًا في الزّواج من حليمة): أيْ بنيّ، لا يُمكن أن تكون فتاةُ الغرباء فتاةً للمخيّم!!، لا تُخرج هذا من عقْلك، وعلى كلّ حالٍ.. شرُّ النّهار أفضلُ من خير الليل، تعالَ في الصّباح على الإفطار، وحينها نتحدّث.. (الحلقة

٣).

وحينَ يعلمُ الأهالي بمهاجمة القافلة، وقتلِ أولادهم فيها؛ يذهبون لخيمةِ حليمة ويرْجُمونها بالحجارة، فتأتي إليهم هايماه، وتقول: هل يليقُ بكم الاعتداء على ضيوف القبيلة!!؟ إنْ حاولتم دهْسَ التّقاليد؛ فلا بدّ أنْ يأتي يومٌ تُدهَسون فيه. (الحلقة ٤).

وها هُم يأخذون كارا تويغار، ويربطونه في جذع الشجرة، وهو يهدّدهم قطعَ نسلهم، فيتقدّم إليه أحدُ الأهالي يريدُ ضربَه، فيوقفه أحدُهم بقوله: توقّف، ماذا تفعل!! ألم تسمعْ كلامَ سيّدنا؟ أيليقُ بعشيرةِ الكايي أن تدوسَ كلامَ سيّدها؟ (الحلقة ٤).

يذهب أرطغرل ومحاربوه بالأمير نعمان وابنتِه حليمة وابنه يغيت لإيصالهم إلى العزيز في حلب، فيعترضُهم جنودُ كورت أوغلو، يريدون أسْرَهم، فيقول أرطغرل لهم: عودوا إلى القبيلة؛ فإنّي لا أريد أنْ ألطّخ سيفي بدمِ إخوتنا. أنا لا أسمعُ لكلامكم ولا لكلام كورت أوغلو، أنا أستمعُ لأعرافِ الأجداد، ولن أسلّمكم مَن التجئوا إليّ، ولنْ أريق دماء إخوتي. وينزل مِن على حصانه ومعه محارباه بامسي ودوغان، ويغرسون سيوفَهم في الأرض، ويواجهون الجنودَ دونَ السّيوف حتّى لا يقتلونهم. (الحلقة ٥).

وحينَ يتمّ أسْرُ أرطغرل ويقول له ناصر وهو يعذّبه: لو تقمْ بتسليمنا شهاب الدين أستطيع أنْ أطلب من سموّ الأمير موطنًا جديدًا لكم، فيقول له: الأرضُ المأخوذة بالخيانة ليستْ وطنًا لأجلِ أهل كايا، بل تكونُ جهنّم لهم فحسب. (الحلقة ٩).

يقف سليمان شاه يفكّر في تهديد أمير حلب إنْ لم يسلّم الوزير شهاب اللاجئ لدى قبيلة كايا، وبجواره كورت أوغلو، فيقول شهاب الدين: سليمان شاه، أنا جاهزٌ لتقديم روحي، لا أريد أن أتسبّب بموتِ أحد. فيقول له سليمان: لا يتمّ تسليم الضّيف الملتجئ للعدو في أعرافِ الأوغوز أيّها العزيز، السّهمُ خرج من القوس، إمّا أن ينغرسَ في قلوبهم أو في قلوبنا. فيقول كورت أوغلو: جيشُهم كبيرٌ يا سيدي، يجب أن نجدَ حلًّا. فيقول له سليمان: ألا تعلم أنّ الأعداد القليلة هزمتِ الكثيرَ من الكبيرة عبْرَ التاريخ يا كورت أوغلو!!؟ فيقول له: أعلم. فيقول له: إذًا؛ أعْمِل عقلَك ومعصمَك استعدادًا للقتال بدلَ أن تتعبَ نفسَك بالتحدّث عن قوّة العدو. (الحلقة ١٣).

يدخل أرطغرل على حوكتشا وسالجان يعزّيها في وفاة جنينها، فتقول له: سيّدي أرطغرل، منذ أنْ جاءت حليمة إلى هذه القبيلة والمصائبُ تتوالى علينا بسببها، فقدنا الكثيرَ من الأرْواح، لا يجبُ أن تحترق الكثيرُ من الأرواح بسبب تلك الفتاة، تصرّف كرجلٍ وأرْسِلها من هذه القبيلة.
فينظر إليها بحدّة قائلًا: أنتِ متألّمة بسبب فقْدِ طفلك، لكنّ هذه القبيلة لها

أعراف، في هذه القبيلة الرّجالُ يقومون بما يخصّهم، والنّساء يقمنَ بما يخصّهنّ، إنْ تدخّلت النّساءُ بأعمال الرّجال فسيفسد نظامُ القبيلة، وأنا لن أسمح لامرأةٍ مفسدةٍ للنّظام أن توجّه كلامًا لي. (الحلقة ١٦).

يستأذن أرطغرل على والده سليمان وأمّه هايماه، ويقول لهما: السّادة يتجوّلون في القبيلة مثلَ النّحل؛ تلك الخيمةُ لك، وهذه الخيمةُ لي. فيقول له سليمان: يصنعونَ العسلَ يا بني. الوضعُ هكذا منذ عهد جدّي أوغوز، ليس بالسّيف بل بالكلام، ليس بالقوّة بل بالتشاور والتّسامح يتمّ اختيار سادة الأوغوز، وعلينا احترامُ هذا العرفِ الكبير. فيقول له: وهل الوقتُ مناسبٌ لذلك يا أبي؟ فيقول له: وظيفةُ السيّد أنْ يرى الفتنة قبلَ وقوعها، وأن يتّخذ احتياطاتِه، فإنْ دخلتِ الفتنة إلى الجسد يصبحُ خروجها داميًا. (الحلقة ١٩).

تجلس حليمة بين بعض النساء والفتيات يجهّزْنها للزّفاف، فتقول آيكيز وتردّد الفتياتُ مِن خلفها: قدْ وضعتُ الحنّاء لك لماذا؟ تردّد الفتيات: مِن أجل أنْ أكون فداءً لمحاربي الموجودِ في الخيمة. آيكيز: ولأجْل ماذا أيضًا؟ الفتيات: لأفدي ظهرَه في عيد الأضحى، من أجل أنْ أدهنَ راحتيْ محاربي وهو ذاهبُ إلى القتال. آيكيز: وأيضًا مِن أجل ماذا؟ الفتيات: مِن أجل أنْ يردّد في آذاننا أذانُ محمّد مِن أجل أن يتقنَ أعراف أجداده دومًا.. ويردّدن جميعًا ثلاثَ مرّات: لتدمْ سعادتُكما يا سلطانة حليمة. (الحلقة ٢٥).

تذهب هايماه لتورغوت ودوغان بعد قرارِهما بالاسْتقالة من صفوف المحاربين، فيقول تورغوت: طالما أتتْ بنفسها ولم ترسلْ في طلبِنا؛ فمعْناه أنّ حالنا سيئ. تأتي هايماه وتقولُ لهما: أنتما أيضًا ربّيْتكما على يدي كأوْلادي، كيف تفعلان شيئًا كهذا دونَ أن تسألاني؟! حتّى لو تنفّست اللهبَ كما تشتعلُ النار في الفرن، فيجبُ على المحارب أن يطيعَ النّظام في القبيلة، لقد مضغتُم أعرافَكم. يحاول ديلي دمير أن يتكلّم فتوقفه قائلة: ديلي دمير، أنتَ أيضًا لا تمضغْ أعرافَك، لا تقلْ كلامًا فوق كلامي. (الحلقة ٣١).

عندما يضرب جوندودو زوجتَه تذهب أمّه إليه، وتأمره أن يعيدَ زوجته إلى خيمته، وتقول له: هل يليقُ أن ترفع يدَك على زوجتك؟! بني، أنتَ ابنُ السّيد! أنت إنْ فعلت هذا فماذا يفعلُ الأهالي؟ في عُرْفنا لا ترفَعُ اليدُ على المرأة، هيّا انهض؛ فالمسكينةُ أصبحت حالتُها مزرية منذ ليلة أمس. (الحلقة ٣٢).

يدخل غوموشتكين خيمةَ السّجن على ديلي دمير، ويسأله على أرطغرل - المتّهم بالقتل - فيقول له ديلي دمير: إذا كان أرطغرل قد خانَ قبيلته أو عُرْفه أو مجلسَه؛ كنتُ أضعُه في السّندان وأضربُ رأسَه بمطرقتي، ولنْ يتحرّك لي جفنٌ عند فعله. (الحلقة ٣٧).

تقف هايماه تتحدّث مع آرتوك قبلَ الاجتماع: أريدُك أن تقفَ بجوار ولدي في الاجتماع لمواجهةِ الكلام عندما يُقال في غيابه. فيطمْئنُها آرتوك قائلًا: حتّى لو

احترقتِ القبيلتان فلا أستطيعُ أن أقفَ بجانبِ افتراء، هذا لا يليقُ بي ولا بأعرافنا ولا بديننا. (الحلقة ٣٨).

يدخل بعضُ سادة الدودورغا إلى خيمةِ هايماه بعد معرفتهم باحتمال وفاة توتكين في مرضِه، فيقدّمون لها التّعازي، فتقول لهم: التّعازي لنا جميعًا، ماذا تريدون أن تتحدّثوا معي؟ فيقول أحدُهم: أردْنا أن تعلمي أنّنا سنعقد اجتماعًا غدًا يا أمّ هايماه، لا نريد أن نتركَ القبيلةَ بلا رئيس. فتتقدّم نحوهم خطوةً وهي تضع يديْها في وسطها، وتقول لهم: انْظروا إلى حالِكم هذا، مثلَ غربانِ الجثثِ، من أجل الدّخول إلى خيمة السيادة ستحاربون بعضَكم، قبلَ أن يموت سيّدُكم قد وضعتم عيونَكم على منصبه، يا للأسف عليكم، اذْهبوا من أمامي، قلتُ اذهبوا. (الحلقة ٥٨).

تدخل هايماه على سيّديْن من سادة الكايي الذين أغراهم جوندودو بالذّهب للتّصويت له في انتخاب السّيادة، فتجدُ الذّهب في أيديهم يتقاسمونه، فتقول لهم: إذًا، كلّ شيء كان صحيحًا!! هل مضغتُم حقّ أرطغرل في المجلس بهذا الذّهب؟! هل هذه هي أعرافُ الكايي؟! هل تحافظونَ عليها هكذا؟! ألا تخْجلون من سيادةٍ كهذه؟! غدًا عندما يُسمع هذا الأمرُ كيف ستنظرونَ في وجوه الأهالي؟! فيقول لها أحدُهما: السيد جوندودو هو الذي أعطاها لنا، وإنّ سليمان شاه... فتصرخ فيه هايماه قائلة: اصمتْ، مَن تكونونَ أنتم حتى تجرؤوا على التّفوّه باسْم سليمان شاه؟! كيف تحاولونَ تلطيخَ اسمه بذكره على أفواهكم؟! يا للأسف عليكم، غافلون حادُوا عن الأعراف!! لقد جعلتم أعرافَنا وآمالنا تحتَ أقدامكم.. (وتمسك بحفنةٍ من الذهب وتُلقيها عليهم، ثمّ تنصرف وهي قائلة): اللّعنة عليكم وعلى رقابِكم المتحوّلة. (الحلقة ٦١).

تمرّ فترةُ قحطٍ وفاقة بعد قطعِ التّجارة من قِبَل قائد النّصارى فاسيليوس، فيحتاج بعض الرّوميّين النّصارى إلى المؤن والغذاء، فيتطوّع لهم أهل قبيلة الكايي بما يحتاجون فتخرجُ هايماه إلى النّاس قائلة لهم: نساء قبيلة الكايي المضحّيات ورجالها الشجعان.. نحنُ أمّة الرّسول الذي لا ينام شَبِعًا وجارُه جائع، مسئوليّتُنا ثقيلة، يجب أن نمدّ يدَنا للمظلوم ونرحمَه دونَ النّظر إلى دينه وعقيدته، ستُنسَى مساعدتُكم هذه لجيراننا غير المسلمين، ولنْ ينسوا تضحياتِكم، هذه المساعدات ستكونُ وسيلةً لعدم تفكّك وحدتنا بإذن الله، ليرضى الله عنكم جميعًا. (الحلقة ٨٧).

يأسر أورال نساء قبيلة الكايي فتقول له هايماه: منذ متى في العادات التركية رفعُ السّيوف على النّساء، وإيقاعُ الأسياد في الفخّ يا أورال؟!!

يقطع أرطغرل يدَ أحد قادة المغول، وقد دخل إلى خيمته وأراد أنْ يأخذ إيلبيلغي كمحظيّة تخدمهم تلكَ الليلة، ويقول له: في قبيلتنا وأعرافنا تُقتَلَع عينُ مَن ينظر إلى ضيفنا بعينٍ زائغة، وتُقطع يدُ مَن يتجرّأ على مدّ يده، والآنَ لا لقمةَ لك في هذه القبيلة، ولا فراش. (الحلقة ١٢١)

يجلس عثمان يحدّث أخويه عن انشغاله بمسألة عقاب بامسي، فيقول سافجي لهما (وكان يقرأ في كتاب): انظروا ماذا يقول هذا، ويواصل قراءته: التّقاليد التي تتضمن العدالةَ هي عمودُ السّماء، إن فسدتِ التّقاليد لا يمكن للسّماء أن تبقى في مكانها، التّقاليد مثل الماء تطفئ كلّ النيران، يتمّ ربط رباط خيرٍ في العالم من خلال التقاليد لدرجةِ أنّ.. (وهنا يدخل أرطغرل دونَ شعوره فيُكْملان معًا بقيّة الجملة): لدرجة أنّ الذّئب والحَمل يشربان من المكان نفسِه. (الحلقة ١٤٤).

إنّ الإصرارَ على بثّ هذه القيمة والتمسّك بها على مدار العمل بأكمله وعلى لسان الشّخوص بأكمَلهم؛ ليُعطي دلالةً بيّنة أنّ قيمتها من قيمةِ بقاء الأوْطان، واستمراريّتَها وسيلةٌ ناجعةٌ في تأكيد الهويّة وبسْطِ النّفوذ للمواجهةِ إنِ استلزَمَ الأمر وحاولَ أحدُهم أنْ ينالَ من وحدتِها، أوْ يعملَ على زوالها.

***

الشّهادة.. بطاقةُ المرورِ إلى الجنّة

ليس هناك أجملُ من الحياةِ على الأرْض بمعايير السّماء، حين تتخلّى النّفس عن طبيعتِها وتحلّق في أجواء رحبة سماوية، تدرك فيها معنى المعية الملائكية وتترفع عن متطلبات البشرية، ولن يشعر بذلك إلا من صفا قلبه واتصل إيمانه بربّ العالمين واقتدى بهديْه صلى الله عليه وسلم، وهانت عليهم دُنياهم ولم تغرَّهم مُتَعُ الحياة وزخرفها، ولم يلعبْ بهم الخوف على الذريَّة أو الحرص على الدنيا، سلكوا طريقًا جبُنَ عنه الكثيرون، لله دَرّهم، ما أشجعهم! غادَرُوا أوطانهم، وهجَرُوا نساءهم، وفارَقُوا أولادهم وخلانهم يطلُبون ما عند الله.. ركِبوا بحرًا تقاصَرتِ الهممُ عنه، علموا أنَّ العمر محدودٌ والطريق طويل فاختاروا أرفعَ المقامات، تيقّنوا أنَّ أغلى ما يمْكن للإنسان أن يقدّمه هو روحُه التي بين جنبَيْه فقدَّموها قُربانًا إلى ربهم، فعقدوا البيعَةَ مع الله، السِّلعة أرواحهم ودماؤهم، والثّمن الموعود عند الله هو الجنة، ومَن أوفى بعهده من الله؟ فما أعظمَه من بيعٍ، وما أعظمَه من ربح.
إنّ الله يصْطفي خلقَه بطريقين: اصطفاءٌ بالشّهادة، وهذا معروف.

وثمّة اصطفاء ربّما يكون أعْلى في الميزان من اصطفاء الشّهادة، وهو الاصطفاء بالبقاء خدمةً للدين (معاندة للكافرين، وتمسّك بالربّانية، ومتابعة للرسل)، ويستدلّ د. خالد فهمي على ذلك بجميع القرآن الكريم لهذيْن النّمطين في معيّة واحدة، فيقول: *مِن المؤمنينَ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر وما بدّلوا تبديلًا*، بل إنّ مَن تبقّى ولم ينلِ الشّهادة ولكنّه بقي على عزيمته من غير تبديلٍ، وإيمانُه يرتقي؛ درجتُه فوقَ درجة الشهيد بموجب استمراره على ثباته وعطائه لدينه.

جاء لك واضحًا بين ثنايا المسلسل.. في أجزائه كلها.. بدءًا من سليمان شاه الذي كان يجلس مع أرطغرل جانبًا أمامَ القلعة، ويطلبُ منه أنْ يضعَ له المرهمَ على ظهْره، فيكشف أرطغرل عن ظهره ويقول له بعدما يرى الدّامل: أبي، ما كان يجبُ لك أنْ تأتي! فيقول له سليمان: إنْ لم يكنِ السيّد على رأس المحاربين يبحثُ عن شراب الشّهادة فلنْ يأتي خيرٌ من هذه الغزوة لأحدٍ يا بني، وأيضًا ألَا يحمي الأجلُ الإنسانَ من الموت؟! (الحلقة ٢٤)

ومرورًا بتورغوت ودوغان وعبد الرحمن مع أرطغرل في خيمة جيكلي، حين كانوا يتذوّقون الطعام الذي أعدّه تورغوت فيقول له: لقد علّمتك صنعَه أختي آيكيز. فيتذكّرها تورغوت ويحزن، ثمّ يهمّ بالوقوف، ولكن يقول له أرطغرل: اجلسْ يا أخي وكلْ طعامك (فيجلس مباشرة)، ثمّ يقول له: أختي آيكيز لم تمتْ بلْ هي شهيدة. فيقول له: أعلمُ يا سيّدي، أعلم. فيقول له: لو كنتَ تعلم ما حزنتَ هكذا، ولمَا كنتَ عانيتَ الألمَ هكذا، إنْ شاء الله يأتي يومٌ أنت أيضا تستشهد وتلتقي مع أختي. فيبتسم تورغوت ويقول: إنْ شاء الله، أنتَ محقّ يا سيدي، سوف أنزعُ هذا الأمل من قلبي. (الحلقة ٣٤)

وها هو يجلس أرطغرل ودندار ودوغان مع ابنِ عربي فيقول دوغان: ليجعل الله لنا جميعًا نصيبًا في الشّهادة إنْ شاء الله، فيقول ابن عربي: منزلةُ الشّهادة لا تكون نصيبًا للجميع، الشّهادة هي منزلةُ الذين يتخلّون عن أرواحهم وأموالهم وأنفسهم، هي منزلة الذين يقولون أبي وأمّي فداؤك يا رسولَ الله، هي منزلةُ الذين لا يتراجعون عن طريقهم رغم كلّ شيء ورغمَ الجميع من أجل الدّعوة المباركة. (الحلقة ٣٦)

يقول بامسي لأرطغرل: يا سيّدي، أليسوا يقولون إنّ مَن يحكّه باطنُ كفّه سيأتيه ذهبٌ يا سيّدي؟ وأنا أسْلحتي تقوم بحكّي يا سيّدي، أجد صعوبةً في ضبطهم. (الحلقة ٨١)

يواجه أرطغرل فاسيليوس قائدَ القلعة، فيقول له فاسيليوس: انتهى مجْدُك يا أطغرل، فيقول له أرطغرل: فليكنِ المجدُ لك أنت، نحنُ تكفينا الشّهادة. (الحلقة ٨٧)

وفي توضيحٍ تامّ لمعنى المستحقّين للشّهادة يقول إمامُ مسجدِ سوغوت وهو جالسٌ مع تورغوت حين كان مريضًا: الشّهادة مقامٌ عظيم، ولكنْ يجبُ أن تعيشَ حياةً لائقةً لكي تصلَ إلى الشّهادة. (الحلقة ١٤٨)

هكذا سارَ التّأكيد على هذا المعنى دونَ تفرقةٍ بين الشّخوص ممّن ظهروا ملتفّين حول فكرةِ تحقيق العدالة ورفعِ راية الإسلام عالية، والذّود عن دينِ الله وصدِّ المُعتدين... فما أجملَهُ من معنًى، وما أقيمَه من فنّ.

***

القيادةُ.. بينَ الرّحمةِ والحزْم

قد يكونُ من المفترض تجمّع صفاتٍ عديدة في القائد، إلّا أنّ من أهمّ هذه الصّفات أن يتحلّى بالرّحمة والحزْم على وجه الخصوص؛ لما لهُما من تداخلٍ كبير، وتضافرٍ بجميع ما تتطلّبه القيادةُ من صفات؛ حيث تضمّ الرّحمةُ: معاني اللّين، والرّفقَ، والتّكليف حسبَ القدرة، والْتماسَ الأعْذار، وبشريّةَ المُحاسبة، والمرونة؛ وكذلك يضمّ الحزْمُ: معاني الدقّة، والخبرة، والقدرة، والصّرامة عند التّوجيه، وغيرَ ذلك لهُما معًا من مثل: التماسِ الأعذار وبشريّة محاسبة المُخْطئ....

ولا شكّ أنّه لا بدّ من ذكْر الجنديّ حين ذكْر القيادة؛ حيث العلاقةُ بينهما متبادَلَة؛ فكلّما صلح القائد صلحَ جنودُه، وكلّما بنيتِ العلاقة على التّفاهم والثّقة من الطّرفين كانت النّتيجةُ المرجوّة فوقَ التوقّع.. وهناك صورةٌ مثلى من القيادة النّاجحة والنّاجعة تلك التي تدرّجت بها المواقفُ بين الجنديّة والقيادة فعايشَ صاحبُها صفاتِ الجانبين، وأصبح خبيرًا بهما متمرّسًا عليهما معًا.

العلاقةُ بين القائدِ وجنوده حين تصلُ إلى حدّ الأخوّة والحميميّة تجعلُ الجندي المغْوار لا يخجل من أنْ يبكي بين يديْ قائده، ولا يتحرّج من اشتياقه لحبيبتِه التي قتلها المغولُ فيخبرُه أنّها لم تمُت، ولكنّها شهيدة، وأنّه سوف يلحقُ بها شهيدًا إنْ شاء الله.. كذلك يتضح هذا المعنى متجسّدًا حين يأتي تورغوت ودوغان وبامسي إلى أرطغرل ويُهْدونه قطعتيْن من الفراء هديةً لزواجه راجينَ منه أن يقبَلَ منهم، فيقول لهم: هذا الفراءُ منكم سأحملُه بشرفٍ حتّى الموت، أنا كبرتُ معكم، وعرفتُ السّيف معكم، وكيف يكون السيّد ومحاربوه، أنْتم علّمتموني هذا، كلّ ما تعلّمته كنتُم بجواري فيه دومًا، وإنْ كنتُ الآن على رأسِ جميع المحاربين، وإنْ كنت أخذتُ هذه الوظيفة؛ فحصّتُكم في هذا كبيرة، وإنْ كنت استطعتُ أنْ أكون لائقًا بكُم فيَا لسعادتي!!.. (ويحتضنهم..) (الحلقة ٢٥)

ولعلّ ممّا يبهجني - شخصيًّا - أنْ أبدأ في عرض صورةِ القيادة في شكلِ امرأة - ناهيك عن الرجال - جاءتْ على طول الخطّ تحمل كلّ مقوّمات القائد النّاجح، والعليم ببواطنِ رعيَّتِه قبل ظاهرهم؛ إنّها *هايماه* التي تجلس خارج الخيمة وبجوارها سالجَان، فتأتي حليمة وتجلس بجوارهما، وتستحضر كلّ المصائب التي حدثت للقبيلة أثناء ترحَالها، وفقْدَها لولدها أرطغرل، فتقول: إنْ شاء الله سيجدونَ أرطغرل، وسيحضرونَه، ولكنّنا لن نؤجّل أعمالنا؛ قبيلتُنا بحاجةٍ لنا، لنجمَعَ القبيلة أسفلَ الوادي ولنَدْفن آلامَنا، ولا نتركُهُم بلا رئيس. (الحلقة ٢٧).

وفي نفس السياق، تقف هايماه تعتبُ على ولديْها في موقف شجارهما،

تقول: إنْ كان والدُكم سليمان شاه على قيْد الحياة ما كان يقول بفعلكما؟! ماذا كان يقول؟ (وهما طوالَ الحديث يضعان رأسيهما في الأرض، ويشعران بالخزي) واجهنا المصاعبَ، وأبعدنا الشرّ من بيننا، نحن بحاجة إلى الوحدة والتّعاون، ماذا تفعلون إذًا؟ كيف تقدرون على مواجهة الأهالي وأنتم ترفعون أيديكما على بعض في هذا الوقت الصّعب!!؟ لا أسامحكما، ولا أسامحكما على تعبي، هل كلامي واضح؟ تصافحوا وتسامحوا أمامي الآن، (فيفعلان مباشرة، ثمّ يقبّل كلّ منهما يدَ أمّه) (الحلقة ٣٢) ولك أنْ تقف هنا مع كلَامِها المكرّر في أكثرَ من مشهدٍ وقفةَ تأمّل، وهي أنّها هنا لم تذكرْ أنّها لن تسامحَهما في حليبِها الذي أرضعتْهُما إيّاه، كما جاء في مواقفَ أخرى كثيرة؛ لأنّ المقامَ هنا ليس مقامَ أمومةٍ ولكنّها القائدُ الذي يتعاملُ منْ مُنْطلق الرّئاسة والتّوجيه، والتّصرّف بعيدًا عن عاطفةِ الأمومة، وهي التي جسّدتها في أبْهى صوَرِها؛ ولكنّ الموقفَ هنا غير.

وحين يقبِضُ توتكين على بامسي وتورغوت بتهمةِ مساعدة دوغان على تهْريب بانو شيشك، ويقفُ في مواجهة هايماه، يقول لها: الآنَ اسْمعيني جيدًا يا أمّ هايماه. فتعترضُ كلامَه وتقفُ في شموخٍ عاقدَةً يديْها خلفَ ظهرها، وكأنّها في موقفِ مواجهةٍ حاسمة، وعدم اكترَاث، وتقول له: كلّا. أنتَ اسْمعني جيدًا، إنْ لم يكنْ لديك دليلٌ فاسمحْ بفكّ القيود من مُحاربيّ، عندها.. أدْعوك إلى خيْمتي، وأسمعُ لك بأذنِ روحي، هذا هو آخرُ كلامي. (الحلقة ٥١)... الله الله،
في عزة يأتيه ردّها كقائد مغوار جسور فلم تقل له أسمع لك الآن في مكاننا ولكن قالت: أدعوكَ إلى خيمتي!!!

ثمّ انظر إلى التفاهم حين يكون بين ثنايا الأوامر من القائد لجنديّه، ففي سياق موقف الاتهام بقتل كوركوت زعيم الدودورغا، تذهب سالجان ومعها حليمة لجلب دواءٍ لبعض الدمامل بذراع زوجها جوندودو، فتجد أيتولون وابنة أخيها غونجاجول ذلك فرصة لقتل سالجان - ولم تكن تعلم أن حليمة معها في الغابة - والتي تملك دليلًا يدين أيتولون بالقتل، فتلحق بهم هايماه - القائد-، ومعها عبد الرحمن - الجندي-، فتصرّ أيتولون أن يذهب عبد الرحمن ليأتي بمحاربي قبيلة الدودورغا لحمايتها منهم، فتقول له هايماه - وهذا شاهد القصص هان-: هيا يا عبد الرحمن، اذهب وكن كالسهم. فيفهم عبد الرحمن أمر قائده - هايماه حينها - فيتوارى عن الأنظار، ثمّ عندما تظنّ أيتولون أنها بسيفها تهدد حليمة وتقتل هايماه، يأتي السهم من عبد الرحمن ليستقر بصدر أيتولون وتموت. (الحلقة ٥٣).

وإذا انتقلنا إلى ابنِها - القائدِ الأساس في العمل بسيرتِه المطوّلة - نجدُه قد عاشَ هذا المعنى بكلّ كيانِه، وصارَ يلقّنه لكلّ أحبابه ومَن في رقبته ويتوسّم فيهم تكملة مشواره (أولاده - محاربوه المقرّبون)... فيأتي إلى الأهالي المُتواجدين لطلبِ السّماح من الأمّ هايماه، فيقول لها دوغان: عددُنا قليلٌ جدًّا

يا سيّدي، وهذا يُخيفني، فيقول له أرطغرل: لا تهتمّ بعدد الأبطال الذين سيخرُجون معك يا دوغان؛ المهمّ في الأمر هو معَ مَن تخرج في طريقك، الطّريقُ الذي نخرج إليه بالجواهرِ التي في داخل هؤلاء الأبطال سيأتي وقتٌ ويعطوننَا القوّة في أكثر أيّامنا إيلامًا وأكثرِ أيّامنا صعوبةً؛ هذا هو المهمّ. (الحلقة ٦١)... ثمّ ها هو يبدأ بتجهيزَ الخان لمحاكمة أورال على جرائمه، فيقول ديندار: حتّى المحاكمة كثيرة على أورال ذاك. فيقول أرطغرل: أنت سيّد يا ديندار، إيّاك أنْ تنسى هذا، إنْ تردْ جميعَ الناس الذين يتبّعونك أن يلحقوا بك سوفَ تتصرّف بعدالة، لهذا السّبب سيقيم الله المحكمةَ الكبرى، ويقع على عاتقنا السّيرَ في طريقه. فيقول: أنت محقّ يا أخي. (الحلقة ٧٥).

يدخل أرطغرل ومحاربوه إلى سوق الخان، فيقول له ديندار: كيف ستعرفُ الجاسوس في هذا الازدحام يا سيّدي؟ فيقول أرطغرل: لوْ لا تعرفُ عيناك مَن يخونك، فإنّك قد خسرتَ حربَك منذ وقتٍ طويل يا أخي. (الحلقة ٦٢)

ثمّ في مشهدٍ تربويّ لكلّ قائد رحيم، يدرك أن غايته في حكمه أنْ يقيم العدلَ ويحافظ على معاونيه ومستشاريه، يقف أحدهم في الاجتماع، ويقول لأرطغرل: لنا عندك طلبٌ يا سيّدي.. أنْ لا تدير ظهرَك لنا في الوقت الذي نطلب فيه اجتماعًا (وكان قد رفضَ لهم طلبًا للاجتماع قبل ذلك) فيردّ أرطغرل: أرى أنني كسرتُ قلوبَكم بسبب عدم موافقتي على الاجتماع، ولكنّي كنت في حرب سريّة مع العدو، ولكن مِن بعد الآن لن أتراجعَ عن عقد الاجتماع في أيّ وقت تطلبونه، الحمدُ لله أنّ لديّ في قبيلتي سادةً يدافعون عن آرائهم الحرّة، وكلّما وقفتْ أمامي لأجل العدالة هكذا؛ اعْرِفوا أنْ لا أحدَ يستطيعُ هزيمتي، أدامَكُم الله. (الحلقة ٦٣)

ومن أجْمل صفاتِ القائدِ أنْ يفهمَ طبيعةَ وخصالَ جنوده؛ فلعلّه يحتاجها في علاج أحدِ المواقف، فضلًا عنْ تكليفهم بما يطيقون. فيجلس أرطغرل وبامسي وتورغوت وعبد الرحمن على الطّعام، ويعرضون الطّعام على بامسي الحزين على ما أصابَ هلينيا - حبيبته - ويرفض عرضَ كلّ منهم له أنْ يأكل، ويدعو لهم بالصّحة والعافية، فيقول له أرطغرل: أخي، غدًا نذهب للحرب وقتْلِ الكفّار، فيقول: تقول حرب يا سيّدي؟! فيقول له: نعم، كُلْ حتّى تقوى على قتْلِهم والانْتقام منهم. فيأكل مباشرة وبنَهَم. (الحلقة ٨٢)

وما أعظمَ القيادة حينَ تستشعرُ آدميّةَ مَن تعول؛ فتحملُ همّ الارتقاء بهم، فيجلس أرطغرل وآرتوك وعلي يار في الخان، ويقول لهم أرطغرل: نحنُ سنعطي الإنسان قيمتَه لكوْنه إنسانًا، سنبقي الإنسان وكلَّ الكائنات فوق رؤوسنا؛ لأنّ الله خلقهم، ليس الأرض فقط.. إنْ لم نفتح القلوب التي تعيش عليها لن نتمكّن من النصر. (الحلقة ٨٧)

وفي مشهدٍ خلّاب ماتع يضعُ القائد ركيزة النصر، ويصحّح المفاهيم لأحدِ جنوده الذي نسب النّصرَ لسيّده وقائده؛ فبعد قتل فاسيليوس يقول سامسا

لأرطغرل: النّصر كان لنا، سيفتخر كلّ الشّعب بك يا سيدي. فيقول له أرطغرل: النّصر ليس لنا؛ بل لله يا سامسا، لا يمكن لأحد أن يحني معصمَنا بإذن الله، لكن إنْ نظنّ أنّ النصر لنا يومًا ونْسى غايتنا، إنْ نفسد قضيّتَنا من أجل الغنائم والشّأن والشّهرة.. عندها يُحْني اللهُ رقابَنا. ثمّ ينظر لبقية المحاربين الواقفين في المكان، اسمعوا ما أقوله جيدًا أيّها المحاربون.. قلبي وقلبُ محاربيّ لا يمكن أنْ يجتمع فيه حبُّ أمرين.. كما يكون تفكيرُنا يكون ذكرُنا، وكما تكون غايتُنا يكون طريقُنا... الله أكبر. (الحلقة ٩٠)... وفي نفس السياق يخبر أطغرل المحاربين بنيّته لفتح قلعة كاراجيسيار، ويقول لهم: نحنُ لا نحارب من أجل النّهب والغنيمة، بل نحاربُ من أجل الرّضا الإلهي ونظام العالم، لا تُخرِجوا ذلك من عقلكم كي لا يذهب حماسُكم في طريق الفتح. (الحلقة ٩٧)

يشكر تورغوت أرطغرل أنّه نال الغزوَ وحربَ الكافرين معه، فيقول له أرطغرل: إنْ كنت أنا جذعَ الشّجرة فأنتم أغصانُها، إيمانُنا ماءُ أرواحنا، إيمانُنا هو مَن أحضرنا إلى هنا، وأبقانا صامدين. (الحلقة ١٠٣)

تتجلّى القيادة في أبْهى معانيها حين يستشعر أرطغرل - القائدُ - المسئولية حتّى عن جنوده المُخطئين، بل والذين تسبّب خطؤهم في ذهاب بعض الأرواح، فكان تخلّي أرطغرل عن غضبِه وانتصاره لنفسه كقائدٍ؛ فلم يتركْ بامسي وحده بين البيزنطيّين يواجه مصيرَه فيلحق به ويخلّصه هو وابنه آيبارس ويقتل أينجاك ويأسر دراغوس، ثمّ تأتي اللّحظة المرتقبة لبامسي، فيتركه أرطغرل ويتوجّه بالكلام لآيبارس: هل أنتَ بخير يا بطلي؟ فيقول له: إنّني بخير يا سيدي، ليرضى الله عنك. فيقولُ له: ما شاء الله على أسدي، اذهب حيث يتواجد المحاربون الآن.. ثمّ يبدأ في تعنيف بامسي على خطئه بعيدًا عن عين ولده حتى لا يشاهد لحظة انكساره أمام سيده واعترافه بخطئه. (الحلقة ١٤٤)

يدخل أرطغرل على أمّه هايماه ومعها حفصة تحدّثها في وضع بامسي، ثمّ تخرج حفصة، فيقول أرطغرل: ما شأنُ حفصة يا أمّي؟ فتقول: كانت تحدّثني في همومها بسبب وضع بامسي. فيقول لها: خيمةُ السيد ليست مكانًا يلتمسُ فيه المقرّبون التّمييزَ يا أمّي، حتّى لو كانوا مقرّبين منّا فإنّ العفو الذي يظهر تراخيًا في أعمال السّيادة هو سوءٌ يتمّ ارتكابه في حقّ جميع الأهالي. (الحلقة ١٤٤)

وفي مشهدٍ مُبْهج في حلقةِ الخِتام للجزْء الخامس *١٥٠* تلخّصُ هايماه أعمالَ السّيّد القائدِ المنوط به القيامُ بها - لا غيره - فتقولُ حينَ يطلبُ منها أرطغرل أنْ تقومَ بالتّجهيزات لعُرْسه بإيلبيلغي: إنّ إشباعَ المُتجوّل الجائع، وجعْلَ العاري يرتَدي ثيابه - وانظر إلى لفظها ثيابه!!-؛ هو مِن أعْمال السّادة لدينا.

ألا ما أعدلَ القائد حين لا يُعطي مَزيّة لأحدِ مقرّبيه، وما أقوى القائدَ حين

يحاسبِ المقصّرين، وما أرحمَ القائد حين يتفقّد مَن عاقبهم بسبب أخطائهم، ولا يتركُهم فريسةً لشيطانهم، ألَا ما أحوجَ الأمّة - الآن - إلى مثْلِ هذه النّوعيّة من القادةِ الذين يستشعرونَ العوزَ والحاجةَ والعونَ من الله، ويُظْهرونَ الرّحمة برعاياهم، وتتجلّى العزّةُ في وجوهِهِم وكلامِهِم حينَ مواجهة القُرنَاء.. حتّى إذا احتاجَ الأمرُ إلى القوّة وصلتْ أياديهِم إلى أرْواح أعدائهم فاسْتأصلوا شأفتَهم ورفعوا رايةَ دينهم وأوطانهم فوقَ العالمين.

***

الجندي الحقّ.. ساعِدُ قائدِه

ما رُزقتْ أمّة بحقّ خيرًا - بعد فوزها بقائد ربّانيّ - مِن جنديّ يدرك قيمةَ وجوده ومشاركتِه وطاعتِه لقائده، ينفّذ أوامرَ قادته ويضحّي بالغالي والنّفيس بل بروحه في سبيل قائدِه وقضيّته، وليس أمرَ التّضحية من أجل القائد تقديسًا له، ولكنّ على اعتباره يحملُ المهمّة المقدّسة على عاتقِه، فيستشعرُ الجنديّ أنّ بقاءَ قائده على قيْد الحياة نصرٌ له هوَ في حدّ ذاته، ولعلّ تذكّرنا لموقفِ أبي بكر - رضي الله عنه - مع النّبي، صلّى الله عليه وسلّم، حين الطّلب وقتَ الهجرة، وأبو بكر يأتي عنْ يمين ويسار النّبي مرّةً، ومن أمامِه ومن خلفه تارةً أخرى، وحين يسألُه النّبي يبرّر رضي الله عنه له أنّ ذلكَ دفاعٌ عن النّبي، ويقول: إنْ أنا متّ فأنا فرْدٌ، أمّا أنتَ فإنْ متّ ماتتِ الأمّة!!!

ولقدْ تعارفتِ الأممُ بأسْرها على أنّ الجنودَ هُم قوامُ الحروبِ وذخيرةُ المعارك أكثرَ مِن معدّاتها، ولعلّ ما يتباهى به المصريّون ومصر بأكملها - على مدار التاريخ - ما جاء في الأثر مِن أنّ جندَها هُم خيرُ أجناد الأرض؛ تأكيدٌ ضمنيّ راسخٌ في أذهان حتى البُسَطاء أنّ الجندية كمعنًى وكمفهومٍ والجنديَّ كماصدقٍ لها هُم أساسُ قوّة الدّول ومنبعُ التفاخر.

ومعَ إقرارنا بأهمّية القيادة إلّا أنّه بمقارنةٍ بسيطة - حسبَ وجهة نظري - أنّه لا قيمة لقائدٍ بلا جنودٍ حقيقيّين، في حين يُمكن إنِ اكْتملت معاني الجنديّة في الأفرادِ أنْ يظهر مِن بينهم قائدٌ يأخذُ بزمام الأمور، ويوجّه العامّة، ويقودهم، ثمّ تتحقّق فيه شروط ومواصفاتُ القائد الحقّ.

لهذا وغيره فإنّ ممّا ركّز عليه المسلسل، وجعلَ النّصرَ مرهونًا بجاهزيّته وكماليّته هو مفهومُ الجنديّ الطّائع الجريء الباذلِ لروحه، وذلك على اختلافِ البيئات والقبائلِ التّركية، وعلى اختلافِ الأيديولوجيّات كجنودِ القلعة البيزنطيّين مثلًا، أو جنود المغول على سبيل الإشارة والتّدليل.

ولقد حرصَ العملُ على إظهار الجنديّ بصفاتِ بيئته ومرجعيّته؛ فجنودُ القبائل على هيئةٍ مختلفة عن جنودِ القصر السّلطاني، حتّى في طريقةِ إلقائهم السّلام والتّحية على قادتِهم، وكذلك صفات جنودِ المغول الهمجيّين المُغايرة لصفات الجنود البيزنطيّين.. وهذا ما أكسبَ العملَ قيمةً أخرى وهي المِصْداقيّة في العرض، والاتّساق في التناول. ومِن شواهد ذلك:

يجلس عبد الرحمن مع بعض أهالي الكايي في مكانٍ بعد رفض أمير حلب دخولهم إلى المدينة ويصيبهم اليأس، فيقول له ديلي دمير: لماذا أنتم مُكتئبون هكذا؟ فيقول له: عدم دخولنا إلى حلب آلمنا يا معلّم دمير، والمحاربون مُكتئبون لهذا السّبب. فيقول له في حماسة: أيّها الغافلون، لنقلْ إنّكم لا تعرفون أنفسكم، ولا تعرفون سيّدنا السلطان سليمان، لكنْ ألا تعرفون معنى المُحارب أيضًا؟! المحاربُ هل يصاب بالذّعر؟ لا تطأطئوا رؤوسكم، ارفعوها

للأعلى، هيّا اجتمعوا حولي جميعًا (ويحكي لهم قصةِ عليّ - رضي الله عنه - وفتح خيبر) وينهي كلامَه بقوله: المحاربُ يكون رجلًا لا ييأس عند الهزيمة، ولا يتباهى بنفسِه عند النّصر، ويعلم أنّه مكلّف بالفوز بالحرب لا بالاحتفال بالنّصر، يلتجئ إلى الله دائمًا، ولا يتوقّف عن السّعي، عندها تُفتح أمامه أبوابُ المدن والقلاع والقلوب. (الحلقة ٨)

يدخل كورت أوغلو على ديلي دمير ويسأله: هل الأسلحةُ جاهزة يا ديلي دمير؟ فيقول: نعم، ولكنْ هل رجالك جاهزون؟ فيقول: كلّهم مُتعَبون، هل بقي طاقةٌ للرجال؟ فيقول: الرجل إنْ لم تجعله يمشي على الجمْر تحتَ الشّمس، ويشعر بالبرد في الشّتاء؛ فلن تستطيع أن تتوقّع منه أن يأخذ روحًا أو يفدي قبيلته بروحه يا كورت أوغلو. (الحلقة ١٣)

تجلس آيكيز مع والدِها ديلي دمير بعد علْمِها بخبر تورغوت، وأنّه هو الذي أصاب أرطغرل بخنجرِه، فتقول لوالدِها: كيف سننظرُ في وجوه النّاس في القبيلة؟ إنْ كان تورغوت قد أضاع طريقَه كما قالوا فكيف سنبقى في هذه القبيلة؟ فيقول لها: إنْ كان ما قالوه صحيحًا فتعليقُ رأس تورغوت في ميدان القبيلةِ هو دينٌ في رقبتي. (الحلقة ١٧)

ولا يقتصر الأمر على الذكور.. بل هذه هي المرأة - آيكيز - التي تعرف معنى الجندية والتمسّك بأمر عادات المحاربين؛ تدخل على دوغان وبامسي وأفشين في خيمتهم وتقول لهم (عن تورغوت): لقد أحببتُه منذ أنْ جئت إلى هذه الدّنيا السوداء، لقد كان الشّاه الحبيبَ والبطلَ الذي فتحتُ عيوني عليه، والذي أعطيته قلبي، ولكن إنْ كان فعل ما قلتموه؛ فاعلموا أنّ أخذَ روح تورغوت حلالٌ لي، إذا ذهبتُم وراء عديم الشّرف هذا ولم تأخذوني فاعلموا أنّني لن أسامحكم بحقّي. (الحلقة ١٧)

يصدرُ القرارُ بنفي حمزة وعبد الرحمن ودوغان وتورغوت، وبعدما يذهبون يقول جوندودو لديلي دمير: هذا الوضع يُحرقُ روحي أيضًا يا ديلي دمير. ولكنْ ليس هناك حلٌّ آخر، يجبُ أن نجعلَ هذا المدعو بوركلو يتكلّم مهما كان، فيقول له ديلي دمير: هل معرفةُ الحقيقة من بعْدِ كسْر قلوب الجميعِ ستجلبُ لك الاطمئنان يا سيّدي جوندودو؟ (الحلقة ٢٩)

تذهب أيتولون إلى ديلي دمير في ورشتِه، وبجانبه آرتوك، وتقول مستفزّة له: نعرفُ جيدًا أحلامَه التي رسمها للغزو بيدِه المصابة (تعني أرطغرل) كثيرٌ من الخيول البريّة أمثاله قد هلكتْ في ميادين الحرب. فيردّ عليها ديلي دمير: القتالُ لا يكون بالسّيف وحدَه يا سيّدة أيتولون، يكونُ بالقلب واللّسان أيضًا، ولكنْ أنتم عميٌّ لدرجة ومُصابون بالصّمم لدرجةٍ حتّى أنّ قلوبكم مختومة لدرجة.... فيوقفُه أرتوك. (الحلقة ٣٤)

ثمّ الله، اللهَ على التزامِ الأدبِ، والوقوفِ على حدّ الثّقة والارتياح لأمْرِ قائده

وترتيبِه وخطّته.. حينَ يستعدّ دوغان وتورغوت وبامسي للذّهاب مع المحاربين لمواجهة نويان، وعندما علموا أنّ أرطغرل لن يأتي معهم، يسأل بامسي: أين سيّدي أرطغرل؟ لماذا لن يأتي معَنا؟ فيقول له تورغوت: وما أدْراني يا أخي! إنْ لم يردْ هو أنْ يخبرنا فالمعرفةُ حرامٌ علينا. (الحلقة ٤٢)...

يخرج آرتوك بعد انتهاءِ علاج سونغورتكين، فيقول لهم: الحمدُ لله لقد قامَ سيدي أرطغرل بالإسعافات الأوّلية له. فيقول له جوندودو (غاضبًا على أرطغرل): لقد سفكَ دمَ الأخوة، ما الفائدةُ بعد هذا!؟ فيقول آرتوك: لا تذهبْ إلى النّار بالمنفاخ يا سيدي. لقد كان حادثًا. فيقول جوندودو: وهل معارضةُ أرطغرل لقرار السّلطان كان حادثًا؟ وإزالة الأمير سعد الدين كان حادثًا؟ عندها يلتزمُ آرتوك بأدب الجندي والفردِ الطائع فيُعطي له التحية ويتركُه مغادرًا الخيمة دون كلام. (الحلقة ٦٠)

يتحدّث تورغوت بعد شفائه مع بامسي في وجود ماريّا النّصرانية، ويقول له إنّه لن يسيرَ في طريق أرطغرل مرّة ثانية نتيجةَ أخطائه، وأنّه أصبح له طريقُه الخاصّ به. فيقول له بامسي: لقد وَعَدنا سيّدي أرطغرل بالسّير معه في هذا الطّريق وأنت أخلفت الوعْدَ يا أخي! لقد دهسْتَ العرف، وهذا الخجلُ يكْفيك. ويتركُه قائلًا: مع السّلامة لي. (الحلقة ٦٥)

وتتجلى الجندية مع القيادة في أبسط صورة حين يستجيب الجندي لنصيحة قائده وتوجيهه دونَ نقاشٍ أو تبريرٍ لحالته النفسيّة الصعبة عليه.. فيجلس أرطغرل وبامسي وتورغوت وعبد الرحمن على الطعام ويعرضون الطّعام على بامسي الحزين على ما أصاب هلينيا - حبيبته - ويرفض عرضَ كلٍّ منهم له أن يأكلَ، ويدعو لهم بالصحّة والعافية، فيقول له أرطغرل: أخي. غدًا نذهب للحرب وقتْلِ الكفّار، فيقول: تقول حرب يا سيدي؟! فيقول له: نعم، كلْ حتّى تقوى على قتلهم والانتقام منهم. فيأكل مباشرة وبنَهَم. (الحلقة ٨٢)

وكما أسلفتُ في مقارنةٍ بين الجندية والقيادة أيّهما أهمّ في الوجود؛ فإنّ الجندي الحقّ إذا غابتِ القيادةُ أو افْتُقدت لسببٍ من الأسباب فإنّ وجودَه كفيلٌ بإدارةِ الأمر على خيْر ما يُرام؛ فها هو آرتوك يطلبُ عقدَ اجتماع للسّيادة بعد موت أرطغرل، فتتعجّب هايماه،
فيقول آرتوك لها: عندما يدخلُ الظّلم من البابِ تخرجُ الأعْراف من النّافذة يا سيّدة هايماه، إنّ القراراتِ التي يتمّ اتّخاذها بما يخالف الدّعوةَ لا تُعتبر مشروعةً في أعرافنا.. (الحلقة ٩٤)

يقف أرطغرل حاملًا ابنَه عثمان يبكي في الخيمة، ويدخل تورغوت يخبرُه بوجود حاكمِ قلعة بيلاجيك الجديد، الذي يريد التّعزية في وفاةِ حليمة، وعقد صلحٍ جديد مع أرطغرل، فيقول أرطغرل لتورغوت: اجلسْ معه أنتَ وبامسي والسّيّد آرتوك، ولتُخبراني بما تمّ.... وهنا ملمحٌ في غاية الأهمّية بين القائد وجنوده؛ وهو أنّ تورغوت لم يسألْ قائدَه عن نقاط الحديثِ والتّفاوض؟ وهل

سيقبلُ الصّلح معه أم لا؟ وما هي اللّغة والطّريقة التي سوف يتكلّم بها معه؟ وكذلك أرطغرل أعْطاه الأمرَ ولم يزدْ عن ذلك!! ممّا يعني أنّ هناك خيطًا متّصلًا ودائمًا بين القائد وجنودِه فهُم يفهمونه وما يريد، ويتلقّون أوامرَه بمُنتهى الأريحيّة والتّفاهم. (الحلقة ١١٨)

إنّ الجندي الحقّ تظلّ سيرته عطرةً على لسان سيّده وقائده طوالَ حياته، فعندما أصيبَ عبد الرحمن فداءً لأرطغرل، يقول أرطغرل: إنّه ذكرى أبي. وتقول عنه هايماه: أعرفُ عبد الرحمن منذ كان شاربُه حديثَ الظّهور، منذ تلك اللّحظة، وإلى هذه اللحظة، وأمامَ هذه الخيمة؛ وقفَ أمامَ الأعداء كسيفٍ سميك، قاومَ المغول، وقعَ أسيرًا وتعرّض للعذاب، عرّض حياته كلّها للخطر في ميدان الحرب، وأخذَ الكثيرَ من أرواح الأعداء، لم يشتكِ للحظةٍ واحدة، ولم يظهرِ النّدمَ، وفعلَ كلّ ما طلبناه منه مهْما كان ولم ينتظرِ المديح.. إنّه الذكرى الباقية من أيّام سليمان شاه.

وما أجملَ الختامَ بهذا المشهد بين بامسي - الذي كان قد أخطأ في المعركة وعاقبه أرطغرل قائدُه بعزله من رئاسة المحاربين - وهو على سريرِ العلاج، ويدخل عليه أرطغرل، فيقول له: كيف حالك؟ فيقول بامسي: أنت تعرف جرحُ السّيف يزول بعد أيّام، لكنّ الجرح الذي بداخلي يكويني باستمرار. فيقول: ما هو الذي يكويك هكذا؟ فيقول: أنتَ يا سيّدي، لقد أردتُ أنْ آتي معك وخفت ألّا تراني، أردتُ أنْ أنادي عليك وخفتُ ألّا تسمعني، سيّدي، أنت قد خاصَمْتني فشعرتُ أنّ العالم كلّه قد خاصمني. فيقول: لكنْ لو خاصمني العالم كلّه فلم أكن لأخاصمكَ رغمَ هذا يا بامسي، قصدُنا ليس الغافلَ بل الغفلة.. ليس المُخطئ بل الخطأ. فيقول: سيدي، برأسي الذي لا عقلَ فيه قد أحزنتُك كثيرًا، أعلمْ هذا.. ولكنْ لقد ندمت على الخطأ الذي ارتكبتُه يا سيدي، أنا عرفتك سيّدًا لي وقبلتُك سيدًا لي برأسي هذا!! إنّه عقلي يا سيدي، ذهابي منذ البِداية كان بسببِ جهلي ولكنّ استعادة رشْدي واستجماعَ نفسي هو بسببِ مجْدِك. سيّدي.. الخطأ مِن عقلي والعفوُ من مجدِك. سيّدي، ربّما لا أكون لائقًا بالعفو.. ولكنْ أنا تعلّمت منك أنّ السّيادة هي إعطاءُ العفو، تمرّ الكثيرُ من الأمور في قلب هذا الفقير وأنا عاجزٌ هنا بكلّ ما بي سيدي.. أنا أطلبُ الكرمَ الذي في قلبك. فيقول: نحن رفاقُ طريقٍ تشاركنا الملحَ والخبز معًا يا بامسي، لقد دافعنا عن أرواحِ بعضنا في كثيرٍ من المَعارك، تشاركنا الهمّ يومًا والفرحَ يومًا، (ثمّ يمسح على رأسه) لا تظنّ أبدًا بعادَك كان سهلًا عليّ، ولكنّ طريقَ السيادة مليء بالامتحانات، يأتي وقتٌ ويتمّ امتحانك فيه بأقربِ النّاس إليك، لو فشلتَ في هذا الامتحان ستكونُ حالةُ مَن هُم خلفي مُزْرية يا بامسي، طالما أنّك فهمت خطأك وندمْت، كما أنّ ربّي عفوّ فهو يطلب منّا أن نعفو نحن أيضًا. (الحلقة ١٤٥)

نعم.. إنّ جنودًا مثل تورغوت وبامسي ودوغان وسامسا وجونكوت وملك شاه ودومرول وأوغوز وكوتلوجا لقادرون حقيقةً - وليس تمثيلًا - على فتح العالم....

فاللّهم ارزقنا مثلَهم.

***

الثّقةُ... ميزانُ تحقيقِ الأهداف

إنّ ممّا ترسّخ في الذّهن، واستقرّ على المستويْن الفردي والجمْعي أنّ الثّقة عاملٌ فارقٌ في تحقيق المُنْجز والوصول للمرْجو من الأهداف؛ فعلى مستوى الفرد إنْ لم يكنْ هناك ثقة لن يصلَ الإنسان لهدفه، ولن يحقّق الطّالبُ النّجاح مهْما حصّل من علوم، ومهْما حفظَ وخزّن المعلومات، وعلى المستوى الجمعي فإنّ الكثيرَ من الشّعوب حقّقت ذاتيّتها، ورفَعَت من قيمتها حينَ وثقت في قدراتها...

الثّقةُ جسرٌ بين المعاناةِ والجهْدِ وبين الراحة والنّجاح، مَن فقدها فقدَ طريقه، وتخبّط في سبل تحقيقه.. ناهيكَ عن اختصارِ المحاولات والتّقليل من الفشَلِ وتدارك المطلوب بأقصى سرعة..

ولعلّ ما يعطي للفردِ قيمةً بين النّاس - فضلًا عن بقيّة الصّفات - هو ثقتُه بنفسه، وتعامله معهم من منطلق هذه الرّؤية..

الثّقةُ صفةٌ جامعة للعديدِ من الصّفات المُتضافرة معَها، إلّا أنّها - ومِن باب آكَد - لا تتحقّق إلّا بالعديدِ من الصّفات كالقدرةِ والكفاءةِ والخبرةِ والاعْتزاز بالنّفس معَ اليقينِ في أحقّيةِ الوصول..

تتجلّى الثّقةُ في صورِها المتعدّدة مِن: قيادةٍ تثقُ في علمِها وقدرتِها وكفاءتِها في إدارة الأمر.. وفي أنّها تسيرُ على الطّريق الصّحيح.. وكذلك تثقُ في الأفرادِ المَنوط بها تكليفُهم، وأفرادٍ يثقون في قدرتِهم على تنْفيذِ الأمرِ الموجَّه لهم.. وثقتهم في القيادة التي تحرّكهم، ومنهجٍ وهدفٍ يربط بينهما تتجلّى فيه الرّساليّة بشكلٍ واضح، أيًّا كان المنطلقُ والوِجْهة على اختلاف الأيديولوجيّات.

الثقةُ ثابتٌ من ثوابتِ التّمكين، ومَعْلَم من معالم البناء، وما مِن أمّة تحقّقتْ فيها هذه الصّفة إلّا وكُتبَ لها البقاء، ومتى انْتفتْ منها كُتبَ عليها الفَناء...

وأنتَ يمكنك إيجادُ ذلك بوضوحٍ تامّ بين ثنايا العمل متحقّقًا في كثيرٍ من المواقف والأحداث.. ثقةٌ في الله بمعيّته لأصحاب الرّسالة والدّعوة، وثقةٌ في القائدِ المتجرّد للهدف النّبيل، وثقةٌ في الجنود المُضَحّين من أجلِ تنفيذ أمرِ قائدهم، وثقةٌ في الزّوج الشّغوف بأهْله، وثقةٌ في الزّوجة المتفَهّمة لرسالةِ زوجها... تعدّدتْ هذه الصّور، وتغلغلَتْ في المَشاهد حتّى لكأنّي ببعضِ المواقف يقشعرّ لها البدنُ حينَ تُخرِجُ النّفسُ لهفتَها لمثلِ ذلك الآن...

حتّى نّك تدرك ذلك في ثقةِ الأب بقدرةِ ابنه على تَجاوز الأزمة، فتجلس هايماه بجوار ابنها دوندار المريض وزوجِها سليمان شاه، وتقول: لديّ قبيلة وليسَ لديّ وطن، لديّ أربعةٌ من الأولاد ولكنْ لا أعلم إنْ كانوا أحياءً أم أمواتًا، إلى متى سنتحمّل بعْدُ يا سيّدي؟ فيقول لها جهةَ جلوسه المقابلةِ لها وبينهما دوندار: دوندار آخرُ فرْحتي يا هايماه،

إنْ لم يهزِمْه فراشُ المرض هذا؛ فلتخَفْ منه ساحاتُ القتال، أولادُنا الآخرون أيضًا سيعودون إلى قبيلتهم كالأسودِ، لا تقلقي. ثمّ يقوم من مكانه ويذهب بجوارها، ويجلس ويقول: قفي صامدةً كي لا تنهارَ القبيلة، القبيلة تحتاجُ إليك (فتضعُ رأسَها على ركبته، ويمسح على رأسها). (الحلقة ١٣)

وها هو سليمانُ نفسُه يعطي الدّرسَ لابنه الآخر في ضرورةِ ثقتِه بمعيّة الله الذي يدبّر الأمر... فحين يغضب أرطغرل لفشل ديلي دمير في فتْح الدّهليز لدخول القلعة، ويتجوّل أمامَ محاربيه ويقول: يجبُ أنْ نجدَ الدّهليز الثّاني، فيقول له والده سليمان: لا تسخطْ يا بنيّ، الذي يُعطي النّصرَ هو الله، وإنْ كان لنا نصيبٌ في الفتح فلنْ تكفي قوّةُ أحدٍ لمنع هذا... وحينها يأتي جوندودو ومعه يغيت ويقول: يوجد هناك طريقٌ لدخول القلعة. فيكبّرون. (الحلقة ٢٤)

ثمّ ها هي الثّقة تُعلن عن نفسِها كموروثٍ اجتماعيّ واتّصالٍ روحي بين القائد وجنوده، فيشعر بها تورغوت عندما يمسك بيترو النّصراني ويأتي به إلى سليمان شاه في السّاحة، يقول له سليمان: أيّها الشّيطان الكبير، لا يمكنُ لأيّ نارٍ أنْ تحرق إبراهيم، ولا أيّ بئرٍ يُمكنه ابتلاعُ يوسف، ولا يكونُ الفرعون حاكمًا على موسى. (الحلقة ٢٥)

ويستمرّ عطاءُ الثّقة للثّبات في تصرّف الأمّ حتّى؛ فحينَ يتمّ اتّخاذ قرارِ إعفاء أرطغرل من وظيفته كقائدٍ للمحاربين بسببِ يده المصابة،
فيقول له كوركورت: هل هناك ما تريدُ قولَه يا أرطغرل؟ فيقفُ ثمّ يقول لهم: أرطغرل بن سليمان شاه سيحترمُ قرارَ الاجتماع، ليحفَظْنا الله من دفْع ثمنِ قراركم هذا، ولكنِ اعْلموا أيضًا أنّ نظرة المُحارب أحدُّ من سيف الجبان. (الحلقة ٣١)

وحتّى في حوارات الزّوج مع زوجةٍ تتجلّى هذه القيمةُ التّلقينيّة، فتكونُ بديلًا لأحاديث الهيامِ والعشْق في خلوةٍ بينهما، فيجلس أرطغرل مع حليمة، فتقول له: إنّنا دومًا في الخطر والشّدّة والبلاء يا أرطغرل، قلْ لي ماذا يخطرُ في بالك؟ أريدُ أن أعرف. فيقول لها: اعرفي شيئًا واحدًا، سوف تنتشرُ شجاعتُنا في كلّ مكان، وإنّ الناس سوف يركعون أمامَنا، وإنّ العدالة ستكون مُنتشرةً في كلّ مكان، إنّ النصر سيكون لنا. (الحلقة ٣٢)

وها هي ثقةُ القائد المُحارب بنفسه واعتزازُه بقيمتِه تكونُ سببًا في تجاوز الموقف وعدم الاسترسالِ مع المخطئ في خطئه، بل يكون الترفّع عن النّزلل شيمةَ الكبار، فيتقابل أرطغرل وحليمة مع توتكين وجوكتشا، فيتبارزان بالكلام، ثمّ ينصرف توتكين وجوكتشا، فتقول حليمة لأرطغرل: كنتُ خائفةً من أنّك ستفعل شيئًا معهم. فيقول لها: إنّ أرطغرل بن سليمان شاه لا يقدّم النصائح لشخصٍ مراهق. (الحلقة ٣٣)

وفي أبْهى صورةٍ للثّقة، وأجْلى معانيها وصورتِها المعروفةِ بين النّاس جميعًا،

وهي الثّقةُ في النّصر؛ لم يحرمْنا المسلسل بأحداثه أنْ يؤكّد عليها في عزّة وشموخٍ وترفّع عن اليأس فيجتمع ذوو اللّحى البيضاء (قادة الخدمة) مع الأربعةِ وعشرين شخصًا المختارين من قبائل الأوغوز، من بينهم أرطغرل عن قبيلة الكايي، وآرتوك عن قبيلة الدودورغا، ويقول كبيرهم: لنهضةِ التّرك فإنّه يُتجَهّز الآن للمقاومة الكبرى. فيسأل أحدهم: بينما فسدتْ معايشنا، والمغولُ يحرقون في كلّ الاتّجاهات.. كيف تكونُ تلك القيامة يا سيّدي؟ فيقول: كلّما زاد الظّلام حلكةً فاعْلم أنّ الشّفق يلوح عن قرب، أيّامنا البائسة التي تبثّ الدّعة واليأس والخوف ستُعْطينا روحًا جديدة. أحفادُ الأوغوز الأربعة وعشرين، لا تنسوا يا أولادُ ليسَ النّيران بداخل أبنيتنا، ولكنّه حلم الدولة في روح التّرك، وكلّ تركيّ دولة، إنْ عاش على الأرض تركيّ واحد حتّى فهو بالنسبة لنا دولة. (الحلقة ٤٢)

كذلك لم يغفلِ المسلسلُ قيمة الصّلة بالله كعاملٍ قوي، وسببٍ رئيس في تحقيق الثقة بالنّفس وتحقيق القدرة على المواجهة والتحمّل، فيذهب دوغان لخيمة آرتوك ليأخذ منه شرابَ المنوّم للحارسيْن حتّى يخلّص بانو شيشك فيقول دوغان: قاتلتُ في حروب كثيرة ولم أخفْ من الموت أبدًا، ولكن الآن أخافُ أن يحصلَ شيء ولا أستطيع حماية بانو شيشك، ليتك تصنعُ شيئًا لقلبي أيضًا. فيقول آرتوك: إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هُم محسنون؛ أرحْ قلبك يا دوغان. (الحلقة ٥٠)

إنّ الثّقة في الله أعلى صورِ الثّقة؛ لذا فقد أسّس لها العملُ في كثيرٍ من المواقف والحوارات، ولعلّ هذا يتضامن مع رساليّة الجهاد المبثوثة في العمل، فيذهب دوغان وبامسي إلى المحاربين لتحْفيزهم على الهجْرة مع أرطغرل، فيقول إن دوغان: أغلبُ المُحاربين الذين وعدوا لم يأتوا يا أخي. فيقول له بامسي: ماذا نفعلُ يا أخي؟! ألم نقلْ إنْ توجّبَ سنذهبُ وحْدنا؟! فيقول له دوغان: نعمْ قلنا، ولكنْ كلّ الجهد الذي بذلناه ذهب هباءً يعني!! فيقول له بامسي: لم يذهبْ هباءً يا أخي، ربّي سيُعطينا مكافأةَ جهدنا، ما نفهمُه يا أخي أنّ الصّبر نعمةٌ وشفاء، نحن فعلْنا ما بوسْعِنا والآنَ هو وقتُ التّوكّل يا أخي. (الحلقة ٦١)

إنّ الثّقة تفعلُ بأصحابها الأفاعيل، وتحوّل الواحدَ لعشرةٍ بقوّةِ يقينِه وإيمانِه وجاهزيّته للبذْل والتّضحية، ولعلّ في قوله تعالى: *إنْ يكنْ منكُم عشرون صابرون يغلبوا مائتين* لعلّ في هذا دليلًا دامغًا لقيمة الفرد المؤمن الواثق؛ فيواجه أرطغرل سيّدَ الدودورغا أكتشا وأخاه سونغورتكين اللّذيْن يمنعان الأهالي من الهجرةِ معه، ولم يستجبْ لهم أحد، فيأمُر أكتشا بعضَ المُحاربين الذين قدْ دسّهم من قبل أن ينسحبوا فينسحبون، فقال له أرطغرل: وفقًا لذهابِ المُحاربين الذين هُم عفَنُ الدّاخل؛ معناه أنّنا بقينا لبعضنا البعض، لا تتركوا ما بوسْعِكم ولا ما خلفكم. (ويستلّ سيفَه) (الحلقة ٦١)

وتتكرّر تيمةُ الإصرار على علاقةِ الفرْد بربّه وأهميّتها في تحقيق الثّقة، فيقفُ أرطغرل وعلي يار والمحاربون وسط القبيلة بعد انتصارهم قائلًا: هل ستخرق السّهامُ الظّالمة صدورنا المليئة بالإيمان؟ هل ستقطعُ المصائدُ الخائنة الطّريقَ التي كتب اللهُ لها النصر؟ هل ستستطيع الخيانةُ أن تبقي على العالم المرتجفِ بخطواتِ الأتراك واقفًا؟ نحن أقسمنا على الحفاظ على النّظام الإلهي وإنقاذِ المظْلومين الذين يعانون بين يدي الظالم، ونشر عدالة الله في أصقاع الأرض بالاتجاهاتِ الأربع، إنْ أقسمَ التّركيّ فإنه لا يموت قبل أن يفي بقَسَمه، إنْ حدّق التركي بالعدوّ فإنّه لا يموت قبل أن يرى النّصر، سنسيرُ في هذا الطّريق إلى أنْ تنتهي أنفاسنا، سنقول لمَن يقول لنا إنّ قوتَنا لن تكفي إنّ إيماننا يكفي لذلك، سنقول لمَن يقول بأنّ عقولنا لن تكفي إنّ كفاحَنا سيكفي، سنقول لمَن يقول بأنّ أعمارنا لن تكفي إنّ تاريخنا يكفي، سنقول لمَن يقول بأنّ العالم لن يكون لكم إنّ الله يكفينا. (الحلقة ٨١)

ثمّ ما أجمل الثّقة في الهويّة والوطنية، والتّأكيد بأحقيّة السيادة طالما الشّعوبُ تدرك رسالتها وتثقُ في منهجها، فيذهب أرطغرل لتخليص أخيه دوندار من القلعة التي يحتجزونه فيها، وبينما هُم في الطريق يقول: في هذا الطّريق المجيد الذي خرجنا به سنأخذُ القوّة من تاريخ أجدادنا المجيد، وسنُثبت للعالم أجمعَ ما يمكنُ أن نفعله بحفنةٍ من الناس، وسنجعلُ الذين يقولون بأننا لا نستطيع والذين يعيقونَنا يخجلونَ عبْرَ الدّولة التي سنقيمُها، سنتّخذ من الشّمس علمًا، ومن السماء خيمة، سنهزّ الأرضَ الدّاكنة، وسنخرقُ السّماء الزّرقاء، سنتّخذُ من سيوفنا أحبّاء، وسنؤسّس جيوشًا جبّارة، سنكونُ حرّاسًا للعدالة والرّحمة. (الحلقة ٨٤)

وفي نفس سياق الأحقيّة بالسّيادة والاعتزازِ بالنّفس، يجلس أرطغرل في اجتماع الحرب مع سادة القبائل، ويقول لهم: بهذه الغَزْوة لن نفتحَ قلعة كاراجيسيار فقط، بل سنفتحُ طريقَ نيقية وطريقَ القسطنطينية أيضًا، حتّى لو لم يكنْ لنا نصيبٌ بفتح تلك الأماكن فأنا أثقُ أنّه سيأتي بطلٌ من نسْلنا سيصِلُ بجيشِه المؤمن إلى أسوار القسطنطينية، وسيغرسون علمَ الإسْلام المجيد على تلك الأسْوار.. غايتُنا هي جعلُ عدالة الله تَحْكُم وجهَ العالم.. يعني كلّ العالم؛ من المكانِ الذي تشرقُ منه الشّمس إلى المكان الذي تغرب فيه، الغزوةُ لنا والجهدُ لنا، والنّصر من الله. (الحلقة ١٠١)

وحينَ يسوَدّ الموقفُ، وتُغلَق الطّرق أمامَ باب الأمل؛ تقفُ الثّقة تدافعُ عن نفسها في نفوس أصحابها ألّا تخافوا ولا تحزنوا، ولا تهِنوا وأنتُم الأعْلون، فيقول أرطغرل لأحد العبيد المأسورين لدى سيمكو: هناك بابُ أملٍ في كلّ لحظةٍ من عُمْرٍ لم ينته، والعملُ هو أنْ نحارب من أجلِ فتح الباب. (الحلقة ٩٤)

ثمّ إذا أردْنا الوقوفَ على الحقيقةِ الكاملة للثّقة؛ فهي تتجلّى في أحلك

المواقف، حينَ إدراكِ الأفراد وعورةَ الطّريق، وضرورةَ المثابرة والتّحمّل طالما يثقون في منهجهم ورسالتهم، فيقف سادةُ قبيلة تشافدار مع أرطغرل ويقول أحدهم: سيّدي أرطغرل، لقد تمّ سحْبُ إمارة القبائل منك، وحوصرنا في الزّاوية؛ تراجَعْ عن قرار الهجرة يا سيدي. فيقول لهم: المناصبُ مؤقّتة يا سادة، الأساسُ هو الرّضا الإلهي، طريقُنا واضح، وهذا الطّريقُ وعِرٌ وصعْبٌ، لكنّ نهايته هي النّور والخير. (الحلقة ١١١)

يجلس أرطغرل داخلَ المغارة مع تورغوت وبامسي وعبد الرحمن وعثمان بعد إنقاذِه من يد المغول، ويقول: يبدأ النّصرُ بالتّفكير حول: أينَ ستدفنُ عدوّك وليس كيف ستتغلّب عليه يا أبطالي. لا يمكن إلّا لمَن يملكون أحلامًا كبيرة أن يتقدّموا في طريق النّصر، مهْما كانت أحلامُكم كبيرةً فإنّكم ستحقّقون أعمالًا كبيرة بذلك القدْر. (الحلقة ١٣٦)

يقف صوبوتاي ليأخذَ سيفَ أرطغرل قبل دخولِه على قائده ألينجاك، فيُعطيَه له أرطغرل بضربةٍ في صدره، ويقول: فلتنظرْ إليه وهو في غمْدِه جيدًا؛ فلنْ يكونَ لديك وقتٌ لتراه عندما أخْرِجُه من غِمْده. (الحلقة ١٣٦)

تلك ثقةُ المؤمنِ ربّه وبنفسِه ومنهجِه وقدرتِه على المواجهة وصناعةِ الأمل

***

العزّةُ قيمةٌ وقامَة

إنّ العزّةَ مفهومٌ شاملٌ لكلّ ما تنطوي عليه الكلمةُ من قيَمٍ خالدةٍ سامقة، ترفعُ رأسَ صاحبها وقامتَه لتَطالَ السّحاب، وتترفّعَ عن ملذّاتِ ومطامع ومغرياتِ الدّنيا، وتعطي الدّرسَ لكلّ مَن سلّم زمامَ نفسِه لشهواته، وسلّمَ قيادَه لعدوّه، وأعطى الدّنيّةَ مِن نفسه - وربّما وطنِه - في سبيلِ عرَضٍ من الدّنيا زائل.

وعلى مَدارِ تاريخِ البشريّة باختلافِ عُصورها وبيئاتِها، وأشكالِ حكمِها، ونظُمِ حياتِها، وحتّى ديانتِها؛ ظلّت قيمةُ العزّة تُعطي القيمةَ لمَن يتمسّك بها، حتّى أنّك تستشعرُها هنا في العملِ مع *نويان* - المغولي، المُشرك - جليّةً واضحَةً في كثيرٍ مِن المواقف.

وفي القَديمِ تباهَتْ قريشُ بنفوذِها أمامَ محمّد وصحبِه، وتباهَتْ بريطانيا بإمْبراطوريّتِها التي لا تغيبُ عنها الشّمس، وتباهَى الفراعنةُ بمُلْك مصر، واعتزّتْ كلّ أمّةٍ بما لديْها أو تعتقدُ قوّته، إلّا إنّنا نجدُ - بلا تعصّبٍ ولا تحيّز - أنّ العزّة الحقيقيّة هي في مَعيّة الله، تحقّق ذلك ليس في أتْباعِ الدّين الحنيف فقط، ولكنْ في الأتْباعِ ممّن تمسّك بدينِ نبيّه مِن الأنبياء السّابقين - عليهم السلام-؛ لذا فإنّك واجدٌ أنّه إن استأثر أحدٌ - أو حتّى أمّة - بشيءٍ من العزّة، أو بجانبٍ منها، أو بعارضٍ منها؛ فإنّ العزّةَ الكاملة الحقيقيّة والمُطْلقة هي لله ربّ العالمين وحدَه في قَولِه تعالى: *إنّ العزّة لله جميعًا*.. ولكَمْ يسعدُ الإنسانُ المؤمن حينَ يستمدّ قوّتَه مِن خالقه، ومِن منهجِه، ومِن سنّةِ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم.

وإنّ المتأمّل للظّهورِ الحقيقيّ لمعنى العزّةِ ليجدُه كاملًا حينَ يعيشُ مع لغةِ الحوار - بدلالاتِ الألْفاظ ومرامي الكَلمات، ومقصودِ قائلِها - في المواقفِ المتعدّدةِ مِن التّاريخ - والتي سبقَ ذكْرُ بعضِها من قبْلُ في مبْحثِ الثّقة - والتي أكْتفي منها هنا بذكْرِ جملةِ حوارٍ واحدة - وليسَ الحوار كاملًا - ممّا دارَ بين سيّدنا علي - كرّمَ الله وجهَه - حينَ غزوةِ الأحزاب، والمُشركُ عمرو بن ودّ يطلبُ النّزالَ والمواجهةَ الفرديّة من أصحاب محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - ولا يتحرّك أحد، فيقولُ عليّ: أقومُ له يا رسولَ الله؟ فيقولُ له: اجلسْ يا عليّ؛ إنّه عمرو بن ودّ!! ثمّ بعدَ تكرارِ الطّلبِ من عمرو بن ودّ، وإلحاحِ علي بن أبي طالب؛ وافقَ رسُول الله، فنزلَ عليّ إلى ساحة المواجهةِ في الخندق، **فقالَ له عمرو (مستفزًّا):**

- آستصغروك فأرْسَلوك؟ (يعني أنّهم يخافونَ المواجهةَ فرأوْا أنْ يرسلوك لعلمِهم أنّ مَن يواجهني مقتولٌ لا محالة)

فقال له علي (وتأمّل العزّة في الردّ):

- لا؛ بلِ اسْتصغروكَ فأرْسلوني!!

اللهَ.. الله.. على إعادةِ اللّفظ نفسِه بدلالةٍ أخرى!! واللهَ.. الله.. على نفسيّة هذا الشابّ العزيزِ بدينه وبربّه وبمعيّة رسوله!! واللهَ.. الله.. على العزّة الحقّة المتجسّدة في جملةٍ حواريّة واحدة من حديثٍ ومبارزةٍ لفظيّةٍ طويلة قبْلَ قتْلِ عليّ لعمرو بن ودّ، وإلقائه برأسِ المُشرك بين يدي رسول الله - صلّى الله عليه وسلم-.

وعودٌ إلى المسلسل، فها هو أرطغرل على الوزير شهاب الدين (خال أمير حلب) ليطلب منه وطنًا لقبيلة الكايي، فيقول الوزير (وظهرُه له): تكلّم يا رجُل. فيصمت أرطغرل ولا يتفوّه بكلمة. فيستبطِئه الوزيرُ فيقول: تكلّم يا رجل، هل ابتلعْتَ لسانَك؟ فيقول أرطغرل: كلامُ الرّجل يُقال للرّجُل في وجْهِه يا سيدي. (الحلقة ٢)

وحينَ يقابل تيتوس سليمان شاه ومعَه أرطغرل خارجَ القلعة للتّفاوض على تسليم القلعة، يقول له تيتوس: ولماذا لم تهجمْ عليها؟ القلعةُ أمامك الآن.. فيقول له سليمان: نحن المسلمون حتّى لو كنّا نقاتلُ الكفّار فإنّما نعرضُ عليهم الرّحمةَ للمرّةِ الأخيرة. (الحلقة ٢٤)

وما أجملَ أن نستعيدَ حوارَ بامسي ألب حين ذهبَ للتّفاوض مع آريس على تسليم القلعة.. أوّلًا يُحادثه مِن فوق حصانه، بينما أريس واقفٌ على الأرض، ثمّ تعالَ إلى روْعةِ الحوار والرّدود، والتي تعيدُنا إلى مواقفَ كثيرةٍ في السّيرة العَطِرة أذكرُ مِن بينها موقفَ سيّدنا عليّ مع عمرو بن ودّ، وموقفَ سعيد بن جُبير مع الحجّاج،
وموقفَ عُمر المُختار مع القائد الإيطالي.... **وهذا هو الحوارُ بنصّه بين بامسي وآريس:**

بامسي: سيّدنا يعلمُ فتنتَك وألاعيبك.

آريس: لا تنسَ أنّك ضيفي في هذه القلعة يا بامسي.

الحاكمُ آريس، أنتُم ضيوفٌ في هذه القلْعة بعدَ الآن، إنْ لم تسلّموا القلعةَ فلن يكون لديْكُم مكانٌ تهربون إليه.

إنْ لم يتخلّ سيّدُك عنِ الحرب؛ فإنّ الطرفيْن سيفقدانِ الكثيرَ منَ الأرْواح يا بامسي.

آريس، لقد ظهرَ شرُّكَ بشكلٍ علنيّ بعدَ الآن، لا خشيَةَ لديْنا من الدّماءِ التي ستسيلُ ولا مِن الأرْواح التي ستُعْطى.. الحمدُ لله. الآن إنْ تشأ أنتَ ألّا تراقَ دماؤكم تُسَلّم القلعةَ دونَ شروط، أنتَ أوّلُ مَن نقض الصّلحَ، ولعلّك تعرفُ ذلك من الجُرْح الذي نقشتُه على ظهْرِك (ويقصدُ أنّه طعَنَه في ظهْرِه في الكَمين الذي نصَبَه لأرطغرل ومحاربيه، وكان ملثّمًا) كما أنّ ابنَ أخي غوندوز

قد أعْمَى عينَك (وكان غوندوز قد ضربَهُ بحجرٍ في عينِه بعد اختطافه).

هل هذا آخرُ كلامٍ لديك يا بامسي ألب؟

نعَمْ، حتّى أنّني أكثرتُ الكلام. أنتَ سافلٌ لدرجةِ أنّك تخطفُ أطفالًا صغارًا.

أنا قمتُ باختطافِ ابنه كي أجبِرَه على الصلح.

كما أنّك لم تعرفْ أنْ تتصالح بشجاعةٍ فإنّك لم تعرفْ كيف تحاربُ بشجاعة كذلك يا آريس. لقد نفدَ الكلامُ الذي في اللّسان، والصبرُ الذي في القلب بعد الآن.

ثمّ ينادي بامسي على جنودِه قائلًا: هيّا يا فرسان، لقد انتهى عملُنا في هذا القفصِ الحجريّ. (ويقصِدُ القلعةَ التي يحاصرُهم فيها أرطغرل ومحاربوه..) (الحلقة ١٠١)

وها هو تورغوت يقول وهو في القيد لحارسه: آهٍ يا مغفل، سمعنا كثيرًا بأشخاص يريدون تهذيبَنا، لكنْ لدينا آثارُ دمائهم جميعهم على أسلحتنا. (الحلقة ١٠٢)

وممّا سبق التأكيدُ عليه أنّ العزّةَ تكون مقبولةً في كافّة مواقفها، ومِن أيّ أحدٍ يُظهرها؛ فإنّها تأخذ بالألباب، وتبعثُ العزيمةَ في الأوْردة، انظرْ إلى نويان حينما يذهبُ لقبيلة أرطغرل للصّلح، ويقول بعدما يسألونَه عن سببِ مجيئه: جئتُ مِن أجل الصّلح بأمرٍ من خان الخانات *أوغاداي خان*، وبرجاءٍ من سُلطانكم غياث الدّين. وتأمّل معي دلالاتِ الألفاظ وتقابلاتِها: (أمر/ رجاء) و(خان الخانات/ سلطانكم)!!، ثمّ يأمر أرطغرل أن تتمّ إقامته في سوق الخان، ويتابعُه بامسي بالحراسة، فيجلس نويان يتناولُ الطّعام، وبامسي ينظر إليه، فيقول نويان: تعالَ أيّها القويّ تناولْ طعامي معي. فيقول بامسي: شيطانٌ مثلُك أنا لا أشاركُه حتّى ذنبي!!
فيقول نويان: سوفَ يأتي الوقتُ الذي أجعلُ فيه قبيلة الكايي تقبّل حذائي.
فيقول بامسي: سيّدي لن يستخدِمَ لحمَكَ المتعفّن النّتن حتّى لينظّف حذاءه. (الحلقة ١١٨)

وحينَ يذهب تورغوت لإبلاغِ آريس - حاكم القلعة - حُكمَ أرطغرل عليه بدفع ١٠ آلاف قطعة ذهبية كعقابٍ على نقضِه الصّلح، فيقول له آريس: ماذا لو لمْ نحْنِ رقابَنا لحُكمه؟ فيتقدّم تورغوت نحْوَه خطوتيْن، ويواجهه وجهًا لوجْهٍ، وهو يحدّقُ فيه، ويقول له: عندَها ستُسْجَنون في القلعة، وإذا أردتُمُ الخروجَ ستنْحَني رقابُكم لسيوفنا بدلًا من إحنائها لحُكمنا. وينصرفُ في عزّة. (الحلقة ١٢٨)

وها هي صورةُ حواراتِ العزّةِ والوثوقِ في النّفْس والتّعالي على الكافرينَ تتجلّى في موقفٍ آخرَ حين يجلسُ إمامُ سوغوت في الخان يأكلُ، ويدخلُ عليه

ألينجاك، **فيدورُ الحوارُ التّالي:**

ألينجاك: ألا تعرفني؟

- أعرفُك. ألينجاك الذي يكسِرُ المظلوم ويهدمُ المدن.

- إذًا.. لمَ لمْ تقفْ على قدميك؟

- ديـنُنا يأمرُنا أنْ لا نعزّ الكافرين ولا الظالمين. لا نحرّكُ شعرةً واحدة منّا أمامَ صدر كافر.

فيجلسُ ألينجاك، ويسحبُ الطّبقَ من أمامه، ويبدأ بتناولِ الطّعام، ثمّ يلقي بالملعقة على المائدة ويقول:

- هل تتجاهلُ قوّتَنا وقدرتَنا وتتجاوزُ الحدودَ أمامَنا؟ ألا تخافُ عقابنا؟

- مقدّساتي لا تعرفُ عظمةً سوى العظمةِ في وجود الله، ولا شأنًا سوى رئاسة رسول الله، وعند المجيء لغضبِكَ فنحنُ لا نخاف إلّا مِن غضب الله ربّ العالمين فقط.

فيسحبُ ألينجاك سيفَه، ويضعُه على رقبةِ الإمام، ويقول:

- سيفي على وريدِكَ الآن، قلْ مَن سينقذك؟

- اللهُ عزّ وجلّ هو أقربُ إلينا من حبْلِ الوريد، العالَمُ هو قصرٌ بالنّسبة لكم.. أمّا بالنّسبةِ لنا هو الموقفُ الذي مرَرْنا فيه مِن قبل منزلةِ الآخرة، كما أنتُم مولعون بالشّفاعة نحنُ مولعون بالشّهادة، جيشُك وسيفُك الذي وثقتَ به اليومَ.. والذي مِن المُمكن أنْ يفصل رأسَ المظلوم عن جسده.. لكنْ (ويقف) رؤوسنا قطعتْ لكن كوْنها لم تنحَنِ لغير الله تعالى فإنّنا نُبْعَث في العالمين.

- ما هذا الاسْتسلام؟ وما هذه الثّقة؟

- نحنُ التجأنا للآيةِ الكريمة *ومَن يتوكّل على الله فهو حسبُه* مَن يمكنه أنْ يحقّق ما لم يردْهُ الله؟ بالظّلم لم تحاربوا المظلومين؛ بل فتحتُمُ الحربَ مع الله تعالى الذي هو القهّار، ستفهمون أيَّ نوعٍ من الحروب هِي..
ومَن تحاربون، أنتُم الآن لا تدركون ما الذي فعلتموه بهجومكُم على المسلمين فتحتُم على أنفسكم أبوابَ جهنم. (ثمّ يمدّ يدَه على الخبز، ويقطع قطعةً منه ويقدّمها له على المائدة، ويذهبُ في عزّة.) (الحلقة ١٣٦)

ألَا ما أعظمَ الدّينَ الذي يُعْلي مِن رؤوس أتْباعه، ويأمرُهُم بالعزّةِ في مواجهةِ أعدائهم، بل وفي كلّ مَناحي حياتِهم.

***

الثّباتُ على الحقّ مِنْحةٌ ربّانيّة

إنّ الثّباتَ على الحقّ قادرٌ على أنْ يوجّه أرواحَ الذينَ غيّبْتْهُم حياةٌ ذاتُ طابَعٍ فوضويّ نرجسيّ متدَنٍّ إلى حياةٍ عادلةٍ مستقرّة.. وإنّك لتجدُ هذا المعْنَى فاصلًا بيْنَ حياتَيْن ومُجْتمَعَيْن: إمّا على نحْوٍ من السّموّ والطّموحِ والرّفْعةِ ومِن ثَمّ التّمكين، وإمّا على قدْرٍ مِن الضّعَةِ والابْتذالِ والهَلاك.

إنّ الثّباتَ على الحقّ معْنًى مركّبٌ من أبْنيةٍ وأفكارٍ تتضامُّ لتشكّلَ حقيقةَ الثّبات في صورةٍ ساميَةٍ، عاليَةِ الهمّةِ، رفيعَةِ القدْرِ، كريمَةِ الأصل.

وفي قراءةٍ متأنّيةٍ لقول الله تعالى لنبيّه *ولوْلا أنْ ثبّتناك لقدْ كدتَ تركَنُ إليهِم شيئًا قليلًا* ندرِكُ أنّ الثّباتَ لا يرجعُ إلى جهدٍ مِن صاحبِه، ولا علْمٍ ومقْدرةٍ شخصيّة؛ بل هو عَطيّةٌ ومنْحَة مِن الله العليّ القَدير لمَن أرادَ سبحانه، ووجَدَ في همّةِ وقلْبِ العبْدِ مزيّةً تستحِقّ هذه النّعمة، وذلكَ بعْدَ تمْحيصٍ واخْتبار.

ولقدِ اهْتمّ العملُ كثيرًا بإبْراز هذا المعْنَى والتّأكيدِ عليه في كثيرٍ من الشّخصيّاتِ، أمْثال:

- علي يار، الذي واجَه أباه جاندار، وأخاه أورال، في قبيلةِ تشافدار.

- السّلطان غياث الدّين، الذي واجَه أمّه التي دبّرتْ قتْلَ أبيه السّلطان علاء الدين بالتّعاون مع الأمير سعد الدين كوبيك.

- أصليهان، التي واجهتْ عمَّها بهادير وابنَه.

- بركة خان، الذي واجَه هولاكو - وهو مغوليّ مثْلُه - بالانضمامِ إلى صفوفِ المُسْلمين، والمحارَبَة مع أرطغرل.

- إيلبيلغي، التي واجهَتْ أخاها بيبولات، وأختَها سيرما.

- (جيوفاني) النّصرانيّ، الذي أسلَمَ على يدِ ابن عربي، وسجنَه أخوه بيترو داخلَ سجن القلعة، وقتَلَ ابنتَه، ثمّ قتله هو أيضًا.

- ناهيك عن (آرتوك - تورغوت - بامسي - سامسا - ملك شاه - جونكوت - دومرول - مرغان المغولي الذي أسلم - وغيرهم كثيرٌ ممّن كان دليلًا على قيمةِ الثّبات على الحقّ، وتمْكينِها لصاحبها من المَكانة في الدّنيا والفوز في الآخرة.

ومِن بينِ ما اخْترتُ شاهدًا على ذلك مِن أحداث المسلسل:

تذهب هايماه ومعها جوندودو إلى الأمير سعد الدين في الخان، وتقول له: سمعت أنّك تقصد روحَ ولدي! فيقول لها: أنا أحقّق العدالة، وإنْ كان بريئًا فليأتِ ويسلّم نفسه إليَّ. فقالت له: لنُلقِهم أمام الثّعالب ليأكلوهم أيّها

الأمير؟! عندما يحينُ الوقت سأسلّم ولدي بيدي إلى السلطان. واعلمْ أنّ ميزان عدل السّلطان لن يمرّ منه ابني فقط؛ بل أنت أيضًا سوف تمُر. منذ أنْ جئتنا وقد كلّفك سلطانُنا بمهمّة حفظ النّظام، لكن منذُ أن جئت لا في قبيلتي ولا في القبائل الأخرى بقي نظام ولا أمان، وبالطّبع السّلطان سيعرفُ هذا. بعدَ الآن لا يأتي جنودُك إلى قبيلتي ويزعجونَنا، وأنت اعلمْ هذا. (الحلقة ٥٨)

يدخل تورغوت إلى سوقِ الخان فيجدُ أحدَ المُحاربين يهمّ بضرب أحدِ الحرفيّين البائعين في السّوق، فيسأله عن السّبب، فيقول إنّه تعدّى على سيّدي أرطغرل، ويقول إنّه منعَ التّجارة مع تكفور، فيقول له تورغوت: نحن قلنا بأنّنا سنُحضر العدلَ إلى هذا السّوق، وقلنا إنّ كلّ حرفي هو تحتَ حمايتنا ووَعْدنا، هل هكذا توفونَ بوعْدِكم لسيّدنا؟ فيردّ عليه قائلًا: صحيحٌ ما تقوله يا تورغوت ألب، تجاوزنا حدّنَا. فيقول لهما: الآنَ عليكم أنْ تعوّضوا خسارةَ التّاجر، ولتسمعوا لهمّه أيًّا كان. (الحلقة ٧٢)

وحين يدخل ديلي دمير مقيّدًا بالسّلاسل على كورت أوغلو الذي اعتقلَ سليمان شاه وزوجتَه وعائلته، ويقول له: سأعطيكَ فرصةً أخيرة أنتَ وابنتك، سترتاحان، تعالَ وبايعني. فيقول له ديلي دمير: كورت أوغلو، أنا لنْ أبايعك أبدًا، إنْ بايعتك فالظّلم سيصبحُ مشروعًا إلى الأبد، والتّاريخ سيكون حرامًا على أطفال القبيلة، عندما تمرّ هذه الأيام فأطفالُ القبيلة لن يبايعوك أنت، ولكنْ سيبايعوننا نحن، سيقولون لنْ نحني أعناقَنا للظّلم والظّالم، دعْكَ من قتلي، حتّى لو قطّعوني إربًا، لنْ أبايعك يا كورت أوغلو. (الحلقة ٢١)

يغضبُ جاندار من ولدِه *علي يار* لأنّه شهِدَ ضدّ أخيه *أورال* بأنّه قاتل تكفور وحرق السّجاد، ولكنّ *علي يار* يقف أمامَه قائلًا له: إنْ كانت خيمتُك ستبقى قائمةً بهذا العار، لتعرفَ يا أبي أنّه ليس لديْك ابنٌ يُدْعى *علي يار*. (الحلقة ٧٥)

وفي الحلقة ١٣٠، يقف آرتوك ثابتًا، ويواجه المغولَ - أو ألباستي في صورة المغول-، ويكتمُ أسرارَ دولتِه وقبيلته دفاعًا عن الحقّ، وثباتًا على المبدأ، حتى يفقدَ عينيه ولم يبُحْ بكلمة واحدة.. وعندما يقابله أرطغرل ويصدَم بما حدَثَ له، ويأسف له، يقول له آرتوك: وما فائدةُ البصرِ إنْ ضاع السرُّ يا سيّدي؟!!

إنّ صورةَ الثّباتِ تثبُتُ بموقفٍ واحدٍ ليؤكّدَ على أحقّيّة المعنى بتصدّرِ المشْهَد واعْتِلائه قمّة الحدث، بما يفرضُهُ على المَشاهدِ مِن معاني العزّة، والثّقة، والتّضحية،... و... و... فهنيئًا للمُشاهِد العربيّ والمُسْلم بما أمْتَعتنا به الدّراما التّركية.

***

الخيانةُ وأثرُها على الأمم

إنّ مفهومَ الخيانة قدِ احتلّ مساحةً كبيرة من التاريخ البشري على امتدادِ عصوره، ولعلّ ذلك من كوْنه أخطرَ الأمور في حياة الفردِ والأمم، فكمْ من أشخاص خسِروا حياتهم وأحبابَهم، وفقدوا مستقبلهم بسبب الخيانة، وكمْ من أممٍ زالت، وكُتبَ عليها الفناء بسبب الخيانة؛ فهي سلاحٌ فتّاك، له تاريخُه المُرعب في حياة الأمم والشعوب، منذ بدء التاريخ البشري، وحتّى السّاعة، كان له دورٌ رهيب، وعليه الاعتمادُ الأكبر في استعمار واحتلال الدّول والمجتمعات، وكان النّصيبُ الأوفر منه لدى العرب باعْتبار أرضهم وخيراتهم مطمَعًا لعدوّهم لتشملَ جميعَ فترات التاريخ، في حين لم يخلُ التّاريخ - بشتّى عصوره ومجتمعاته - من الوقوع بين براثنِ هذه الكلمة بشتّى صورها ومختلف وسائل تحقيقها.

ونحنُ هنا - في المسلسل - وجدناها مجسّدة بشكلٍ صريح ليس فيه مواربة ولا رغبة في التجمّل ومحاولة إظهار المجتمع التّركي حين تأسيسه في جذوره التّكوينية - والعرق دسّاس - بصورة مثاليّة؛ بل جاء تصويرُ هذا المصطلح بكافّة مراحل وأماكن وأزمنة العمل: في القبيلة، والقلعة، والخان، والمدينة؛ بل وفي ساحات القتال.
لم يخجلِ المؤلّف من عرضِه لصورةِ الخائن في بعض المواقف، ولم يتحايلْ على الحدثِ بصناعة صورةٍ مثاليّة للفرد التّركي؛ بل أظهره ببعض شخوصه الحريصينَ على السّلطة والحكم والمال والشّهرة والتزلّف كما هم، كان ظهورُها الأول مع كورت أوغلو ومحاولتِه الانقلاب على أخيه في الدّم سليمان شاه، وتدبيره ذلك مع بعض الأتراك، وبالاتّفاق مع البيزنطيّين، ومع المغول، ثمّ كوجاباتش مع سيّده توتكين وانقلابه على قبيلته الدّودورغا حين اتّفق مع المغول ولم يظهرْ لنا سبب خيانته حتّى مات!! ثمّ غوموشتكين وأخته آيتولون وطمعُهما في الإمارة وتكالبهما على السّلطة بالاتّفاق مع أمير الدولة سعد الدين كوبيك، ثمّ بوغايتش وخيانته لسيّده توتكين أيضًا واتّفاقه مع سعد الدين كوبيك ثمّ المغول، ووصولًا إلى بيبولات أو ألباستي بلا مبرّر سوى الهيمنةِ والسّيطرة على المنطقة، وما كانَ بينهما من أمر سعد الدين كوبيك، ذلك الدّاهية والمُمسك بخيط الخيانة يربطه مع مَن يشاء، فلديه مفاتيح لكلّ شيء، وحلولٌ لكلّ معضلة، حتى عندما وصل الأمر إلى السّلطان وفُضح أمرُه لم يتورّع أن يخونَه وأنْ يسمّه من أجل أطْماعه، وذلك مرورًا ببعض السّادة الذين باعوا ضمائرهم ومبادئهم بل وأعرافَ قبائلهم من أجل المال والتزلّف؛
فالخائن ليس له صديق، ومصلحتُه أهمّ من كلّ شيء، ولمَ لا؟!! وهو على استعدادٍ أنْ يضحّي ويتنازل عن أي شيء في سبيل أطماعه وتطلعاته؛ فها هو سعد الدين كوبيك يضحّي بغون ألب الذي أوهمه أنّه في منزلة ابنه!! ولعلّ في قتل المغول للأمير بهاء الدين رسالة أوضح أنّ الخائن يجدُ جزاءه مِمّن استعمله، وكذلك في قتل سعد الدين كوبيك لألتون أبا بعد استخدامه في قتل

الأمير قلج أرسلان وأمّه.

كان أجْملُ ما في العمل أنّه لم يجمّل الصّورة أو يظهرَها على غير جنسية التركي من البيزنطيّين أو المغول - مثلًا - كما فعلت كثيرٌ من الأعمال الدّرامية في بعض الدّول فأظهرتْ تاريخها ناصعًا خاليًا من كلّ صور الخيانة والعمالة، وألقتِ فيه المسئولية والتبعةَ على عاتق الغير، فجاء العملُ مشوّهًا مغبونًا، فاختلّت المفاهيم وضاعت الحقيقة، واختلط الحابل بالنابل.

لكنّنا هنا وجدنا صراحةً في العرض وأمانةً في المسئولية؛ ليفهم الجميع أنّ الخيانة موجودة في كلّ وقت، ويتعرّض لها المجتمعُ في كافّة مراحله؛ سواء القوية والضعيفة، فلتنتبه المجتمعاتُ والشّعوب لما يمكن أن يهدمَهم من حيث لا يشعرون. ولعلّ في ذلك إسقاطًا لما حدث للمجتمع التّركي نفسه من محاولةِ انقلابٍ خائنة على يد مجموعةٍ من الانقلابيّين بتاريخ ١٥ / ٧ / ٢٠١٦، سواء كانت حركةً داخلية وطنيّة اختلطَ عليها مفهومُ التّغيير، وتحرّكت فيها المطامع؛ أو جاءتْ مدعومةً من الخارج بما يسمّم الفكرَ ويهدم المجتمع.

إنّ خطر الخيانة بالغُ الأثر على الجميع، خاصّة إذا تزامنَ مع غياب العدالة فتأتي الأحداثُ لتؤكّد أنّ العدل أساسُ الدّولة، والخيانة هدمُها، ممّا ينبغي التصدّي له، والوقوف بجانب الحقّ والعدل، فعندما يقول جوكتوغ مساعد سعد الدين كوبيك وقد همّ أرطغرل بقتله فداء لآريس: أتقتلني من أجل حاكم مسيحي؟!! فيقول له أرطغرل: أنا فقط عدوّ للظّالم والخائن، أحمي المظلوم حتى ولو كان عدوّي، لا أسامح الخائنَ حتّى وإنْ كان أخي.

لذا؛ فإنّ العملُ يؤكّد من خلال هذا الملمح على التيقّظ والانتباه لمثل ذلك، فلا يعطي الدنيّة من حياته وتاريخِه وقوميّته ونضاله، بل ومجرّد أعرافه الثابتة حتّى.

ومِن الاستشهادات حين يذهب أرطغرل لمكانِ إعداد المنْجنيق، ولكنْ كان بهادير قد خانَه واتّفق مع البيزنطيّين لقتلِ الجنود به، فيقول أرطغرل: أيّتها الخيانةُ الظّالمة أكثرَ من العدوّ، سأضيّق عليك هذه الأرض. *الحلقة ١٠٢*

وعلى لسان السّلطان علاء الدين كيكوبات يقول: متى سننتهي من هذا الخائن، والذي هو عدوّ أسوأ من عدوّي؟!! وحين يسترحمُه أحدهم يقول له السّلطان: في عُرف هذه الدّولة يتمّ العفوُ عن كلّ شيء إلّا الخيانة لا يُعْفى عنها. *الحلقة ١٠٥*

ويستمرّ التّأكيدُ على خطورةِ الخيانةِ بطول الحلقاتِ؛ ففي الحلقة (١٤٧) يقول أرطغرل: إلى أنْ تجفّ شرايينُ الخيانةِ لنْ يدخلَ سيْفي في غمْدِه.

حتّى إذا وصلنا للحلقةِ الخِتاميّة - ١٥٠ - نجدُ هايماه تؤكّد ذلك - أيضًا - قائلة: إنّ الخيانةَ تنبتُ كالعُشْب في نفوسِ أصحابها.

إنّ لحظة إدراك ووعيٍ حقيقيّ متجرّد ليلقي بالإنذار لكلّ مجتمع وشعب حتى يبغضَ وينبذَ هذا الأمر وأهلَه ومَن على شاكلته، فيحيي روحَ الوطنية والانتماء والالتفاف حول الوطن.

إنّ معايشة هذا المعنى الحقيقيّة حين الوصول إلى الاستقرار، والتمكّن من حياة كريمة آمنة، ثمّ ظهور خيانةٍ من أحد الأفراد ر ليبغّض في نفسِ الشّعوب كلَّ خائنٍ عميلٍ مرتزقٍ، يهدّد أمنَ وأمان الحياة، ويقتل الأملَ والطّمأنينة في نفوس الأجيال بأكملها.

إنّ لفظَ الخيانة كاشفٌ عن انْهيارمروّع لتشوّهات أخلاقية وإيمانيّة، ولكنّه في نفس الوقت يقرّر حقيقةً بديعة في الأمانِ والضّمان لكشفه والنّيْل منه.

إنّنا نلحظُ في جلاء تامّ داخل العمل طاقةً متوهّجة لدفْع التوهّم بمصداقية الأعداء أو حرصهم على مُصالَحَة ومصلحةِ المسلمين؛ إذْ هناك إلحاحٌ مبثوث من خلال تعدّد صور الخيانات والعَمَالات ونقضِ العهود والمواثيق لفضْحِ صورة العدو لمَن كان له قلبٌ..

إنّ هذا الحشد المُرْعب لكمّ الخيانات والعُمَلاء في كلّ بيئةٍ وقبيلة وزمنٍ ليفرضُ على الكثيرين من أولياء الأمْر الإسلاميّين ضرورةَ إعادة النّظر في النّحالفات والأزَمات، وتوالي النّكبات على العالم الإسلامي بما يشكّل جانبَ نجاةٍ من سوءِ الخاتمة الفرديّة والمجتمعية.

***

ملاحظات فنيّة وتاريخية

إنّ استثمارَ الفنّ الجميل لا يزالُ بُغية الجادّين في الارتقاءِ بالذوقِ العامّ، وتحقيق نهضةٍ هذه الأمّة والعودة بها إلى سابقِ مكانتِها وقوّتها، لذا فهو قضيّةٌ جوهرية لا بدّ أنْ يلتفت إليها كلُّ مَن يتعامل مع الفنّ، سواء كان مؤلّفًا أم منتجًا أم ممثّلًا أم حتّى مشاهدًا، أم بأيّ فنيّة تشارك في تمام ظهور العمل الفنّي، ومهْما كان مِن تفوّق وتمايُزٍ للعمل الذي بين أيْدينا - قيامة أرطغرل - فإنّه لا يخلو عملٌ من نقصٍ أو خللٍ أو زلل، وهذا نحنُ مجبولون عليه بطبيعتِنا البشريّة، وهنا يأتي دورُ النّاقد البصير، الغيورِ على القيمةِ، السّاعي للاقتراب من الكَمال، ومِن هنا فكانَ لا بدّ لنا من وقفةٍ مع بعض الهَنَات والمُلاحظات، والتي ربّما يبدو ورودُها وعرضُها مبرّرًا كافيًا لنا لمَن يتّهمنا بتقديس العملِ والعاملين؛ بل ودولته، فتأتي هذه المُلاحظاتُ لتكونَ ردًّا بسيطًا متواضعًا منّي لنقتربَ بها رويدًا من مفهوم الحياديّة حينَ التّناول أو حتّى الحكم.

وإنّي حين أوردُها هنا بقدْرِ ما أبْرزُ الملاحظاتِ الفنيّةَ، وأؤكّد على صحّتها - من وجهة نظري بالطبع - إلّا إنّني أجدني مدفوعًا أيضًا للتّبرير للملاحظاتِ التّاريخية - فقط - بأنّ العملَ ليس عملًا تاريخيًّا،
ولا يؤرّخ لحقبةٍ من الزّمن متتبّعًا الأحداث بحذافيرها؛ بقدْرِ ما يعرض لتاريخٍ جزئيّ بصورةٍ دراميّة تستنهضُ الهمّةَ وتُعْلي من قدْرِ مجتمعِها - الخاصّ والعامّ - ليدركَ قيمةَ هويّتِه وحضارتِه، وجزءًا من تاريخه.. وإليكُم الملاحظاتُ بنوعيها:

أوّلًا: الملاحظاتُ الفنيّة:

- أنّ نجاةَ أرطغرل في كثيرٍ من المشاكل جاءتْ باتّصال روحيّ بينه وبين ابن عربيّ، وهو غيرُ منطقيّ؛ فقد تكرّر بصورةٍ عديدة، ثمّ نجد إنّ ابن عربي يشكرُ الله بعدَ تجاوز الأزمة، وكأنّه على بُعْد المسافة يطّلع على الغيب!!! حتّى عندما تسمّم السّلطان وضعَ بعضَ المرْهَم على أنفه، ثمّ جلس يدعو الله بالشّفاء، ثمّ حدثتِ المعجزةُ وشُفي السّلطان!!

- في الحلقة ١٥ يقفُ ابنُ عربي بعد ذبح أرطغرل لناصر مدّعي الإسلام، والذي كان يعملُ مع فرسان الهيكل في حلب؛ يقفُ ابنُ عربي ويدعو لناصر قائلًا: اللّهم اغفرْ ذنوبَ عبدك هذا!!!!!!!!!

- لحظة صلاة ابن عربي مع أحمد (أريس سابقًا) لمْ تكُنْ على هيئة الصّلاة الصحيحة حين يكون الإمام منفردًا بمأموم واحد!!

- خروج جوكتشا من مخبئها لمواجهة نويان الذي كان يبحثُ عنها بعد هروبها وقتلِها لغونجاجول، ومهاجمتِها له بعصا لا تتجاوز طول يدها؛ ممّا أدّى إلى موتِها، في حين لو مكثتْ في مكانها لأيّام لم يكنْ ليعثر عليها!!

- ظهور آتسز من مخبئه أمام آريس وتيتان حين كان يتابعْهما بأمْر أرطغرل،

وأدّى ذلك لموته، في حين لو مكثَ في مكانه لأيّام ما كانوا ليعثروا عليه!!

- عدمُ قدرة آتسز على مواجهة جنديّين أثناء محاولتِه الهرب لإخبار أرطغرل بأمْر مهاجمة مكانِ المنجنيق أمرٌ لا يمكنُ تصديقه، خاصّة أنه محاربٌ جيّد، ويستطيع المواجهة دونَ سلاح!!

- هروب وانشقاق (بوغايتش ألب) محاربِ توتكين من القبيلة بعد هزيمته أمام بامسي، وانضمامه إلى غونجاجول وسعد الدين كوبيك، وتبرير ذلك بقوله: أنا لا يهزمني أحد!! وهو الذي سامه تورغوت ودوغان وبامسي ورفاقه العذابَ في كلّ مواجهة بينهم!!

- هناك أشخاص تموتُ من سهمٍ ومن ضربةٍ باليد، وهناك أشخاصٌ لا تموت والسّهم في صدْرها، وتتمّ معالجتهم ليعودوا إلى الأحداث فقط!! وهناك أشخاص يموتون في الحال وأشخاصٌ يموتونَ بعد الإدلاء بالمعلومة فقط.. مثلما حدث في الخيمة مع المتمرّدين الذين ذهبَ إليهم غون ألب وأرشدَه أحدُهم أنّ أرطغرل كان معهم يخطّط للانقلاب على السّلطان!!!

- موقفٌ غريب من السّادة الذين أرادوا التمرّد على الدولة، وعدلوا عن رأيهم بحضور أرطغرل، ولكن عندما ذهبَ إليهم غون ألب، كان تصرّفهم غريبًا في المواجهة، كان من الممكن أن يقولوا ما تمّ عن رجوعهم عن التمرّد، وأنّ الفضل في ذلك لأرطغرل، ولكن دون مبرّرٍ قرّروا المواجهة وعدم التسليم!!

- ظهور ماريا بزيّ واحد في كثيرٍ من المشاهد، وفي فترات متباعدة ومتباينة زمانيًّا ومكانيًّا، فمثلًا هناك فارق زمنيّ كبير بين وجودِها في القلعة مع آريس ثمّ حياتها في القبيلة كزوجةٍ لآرتوك، ثمّ ذهابها لقلعة بلاجيك، وكلّ هذا بنفس الزيّ!!!

- المغارةُ التي في الجبل لا تتغيّر مع كلّ الأشخاص والمواقف.. مع نويان ومع سيمون ومع آريس ومع تيتان ومع الرّاهب السّاحر ومع أرطغرل ومع سانجار بن بهادير وحتى مع أريكبوغا!!!! ولا يغني عن الملاحظةِ وجود تغْييرٍ طفيف مع كلّ موقف.

- استيلاءُ سانجار بن بهادير على القبيلة في غياب تورغوت غيرُ منطقيّ حيث تمّت مواجهة جنديّين فقط أمام الخيمة!!!

- هروبُ آريس من القلعة بعدَ فتح أرطغرل لها على أنّه جثّة بين الموتى، وذلك دونَ غطاء عينه، ثم في المشهد التّالي له بعد هروبه ونجاته يبدو وهو يرتديها!!!!

- طلبُ هايماه آرتوك ليكون مستعدًّا إن حدثَ مكروه لحليمة!! كان هذا غريبًا جدًّا، فهو طبيب وكان ينبغي أن تدخِلَه عليها بمجرّد ما رأتْ أنها تعاني... لكن انتظارها كان مفتعلًا وخادمًا لفكرة أنّه قد قرّر المؤلف أن تموت في هذه

الحلقة!!!

- شجاعة عثمان معروفة في التاريخ لكن ليس لدرجة أنه - وهو طفل أو صبي صغير - يواجه عشرة فرسان كبار بمفرده، ويقاتلهم من أجل عائلة مجهولة!!

- هناك مشاهدُ كثيرة يبدو فيها الخللُ في الإخراج الفنيّ لمشهد الدّم، سواء من المقتول أو على سيف القاتل.

- العَداء الذي أظهرتْه سالجان لحفصة، والهجومُ المتواصل عليها غيرُ مبرّرٍ مطلقًا، حيث كان ينبغي لها أن تستشعرَ احتياجَها للتّعايش السّلمي، وتتذكّر ما فعلته في السابق، وعدم التّسبب في المشاكل بعدما لجأت لأرطغرل بابنها..

- في الحلقة ٣٨ ظهرت السيدة العجوز التي كانت تهدّد أيتولون - زوجة كوركوت، زعيم قبيلة الدودورغا - بأنّها ستفضح العلاقة التي كانت بينها وبين كوركوت، والتي أدت إلى قتلهما لزوجته؛ وبينما تمّ قتل هذه السيدة في نفس الحلقة؛ نجدها تظهر في مشهد في الحلقة ١٠١ في صورة كومبارس صامت بين النسوة اللاتي كنّ يجهّزنَ الطعام والمراهم في خيمة السيادة وقت الاستعداد لفتح القلعة؛ وكان من الممكن الاستغناء عنها!!

ثانيًا: الملاحظاتُ التاريخية:

- فكرة إنشاء الدّولة العثمانية لم تكنْ من أرطغرل، ولم تظهر قطّ في عصره، ولم ينادِ بها عثمان أيضًا، ولكنّها كانت متزامنة مع سقوط الدولة السلجوقية.

- قتل سعد الدين كوبيك لم يكنْ على يد أرطغرل، بل كان على يد واحدٍ من رجال السلطان غياث الدين.

- عودة سنغورتكين الأخِ الأكبر لأرطغرل إلى أمّه وإخوته في حين أنّ التاريخ ذكر أنّ أرطغرل بعد رحيله لم يلتقِ بإخوته مرّة أخرى.

- علاقة المغول بالعثمانيّين، والتي جسّدها المسلسل من البداية بنوبان، ثمّ ببقية القادة حتى ألينجاك؛ هذا بعيد تمامًا عن الواقع والتّاريخ، حيث أنّه لم يكن هناك عثمانيون أصلًا في وقتِ المغول، ولم يلتقِ أرطغرل أصلًا بأحد المغول، بل عندما سمع بوجود ألينجاك فرّ منه وهرب.

- موضوع سفارة أرطغرل من وحي خيال المؤلف، فكيف عدوّ يذهب لمقابلة عدوّه الأكبر... وكذلك موت أوغاداي خان في ذلك الوقت لم يكنْ إلّا حيلة من المؤلف لينقذ أرطغرل منه فقط.

- موقف قطع أرطغرل يدَ قائد مغولي أراد أنْ يأخذ ضيفته خليلة له في تلك الليلة جاء لتعظيم القيمةِ التّركية في المحافظة على الضّيف وأولويته في أعرافهم، وإلّا فإنّ الحقيقة تؤكّد أنّ المغول حينها كانوا يدخلون أيّ مكان

يريدونه ويقيمون فيه الخيام ويطلبون النّساء والخمر، ولا يردّهم أحد حيث كانت نكبة المسلمين حينذاك كبيرة.

- محاربة بيبولات في صفّ المغول بل وتصفيته لقبيلة جوندودو وسنغورتكين ودينار، هذا لم يذكرْه التّاريخ قط، ومن بين المفارقات أنّ العمل أظهره دائمًا في صورة المعتزّ بدينه وسمته العام مثل التّسمية الكاملة قبل الشرب والطعام، والشكر لله بعد النجاة من أية مشكلةٍ، ومناقشته لألينجاك عن الإسلام، وإعجابه بالشّيخ حين كان ثابتًا متماسكًا أمام سيف ألينجاك.

- طلب أرطغرل المساعدةَ من حاكم مصر المملوكي الظاهر بيبرس للوقوف ضدّ المغول لم يحدث تاريخيًّا، بل حدث العكس وهو وقوف بعض أمراء الدولة السّلجوقية الضّعاف بجانب المغول ضدّ بيبرس في موقعة البستان ١٢٧٧ حيث انتصر بيبرس وجلس على عرش السّلاجقة، ولم تكنْ قد تأسّست دولة آل عثمان بعد حيث قامت عام ١٢٩٩م.

- جاء في المسلسل أنّ أرطغرل فتح قلعة يارحصار التابعة لولاية بيلاجيك سلمًا دون قتال، بينما الصّحيح أنّها فتحت - هي وقلعة بيلاجيك نفسها - ١٢٩٩م في عهد عثمان غازي، وليس بهذه السّهولة والدبلوماسية.

- وفاة حليمة في الحلقة ١١٦ بعد ولادةِ عثمانٍ مباشرة، وهذا يخالفُ الواقع والتاريخ، فهي قد عاشت بعده حتى أصبحَ شابًّا، بل وماتت بعد وفاة أرطغرل، ودُفنَت في حديقة قبره!!!

- أمّا عن قول البعض بعدم مقابلة ابن عربي لأرطغرل في الحقيقة، نقول: .. محيي الدّين ابن عربي الطائي الصوفي، وهو المقصود في المسلسل، توفي عام ٦٣٨هـ عن عمرٍ يناهز الثّمانين عامًا، أي أنّه عاصر أرطغرل بالفعل، وربّما يكون قد التقى به فعلًا لأنّه سافر إلى حلب، وأقام مدّة في قونيا *عاصمة الدولة السلجوقية وقتها*؛ حيث كانت تتواجد بالقرب منها قبيلة أرطغرل، ومذكور في سيرته أنّه أعاد الزّواج هناك، وتزوّج فيها والدة صدر الدين القونوي *سلطان السلاجقة*، ممّا يقوّي احتمال اللقاء بين ابن عربي وأرطغرل.

... وبعدُ، فإنّنا ورغمَ ما أوردناه من ملاحظاتٍ فنيّة وتاريخيّة فإنّ العمل يُشارُ له بالبَنان على أنّه أحيا روحَ المُتْعة، وعَلَا بالذّوقِ العام، ورسّخَ القيمَ المتعدّدة في نفوسِ المُشاهدين ليؤكّدَ على رساليّته قبلَ تأريخِه، وعلى احترامِه للمُشاهد قبل تربّحِه منْه؛ فهنيئًا لكلّ الأطْراف.. **ثمّ في الختام أجدُني مدْفوعًا لقوْل القائل:**

***ومَن الذي تُرجَى جميعُ مَحامدِه**

كفَى بالمرْءِ فخْرًا أنْ تُعَدّ معايبُه

رسائلُ عصريّة.. لمَن يهمّه الأمر*

مازالت كلّ الجهودِ المخلصة في أيّ مجتمع تعملُ جاهدةً على إحياءِ مبادئه والحفاظِ عليه، وتأكيد هويّته وتاريخِه وحضارته، ولعلّ مِن أشرسِ وأهمّ هذه الوسائل الفنُّ بكافّة صوره، ومن بين هذه الصّور الدّراما، وخاصّة التّاريخية منها؛ حيثُ تظهر العاداتُ والتّقاليد والأعراف ومراحلُ التأسيس والتّكوين، ومن خلالِ ما تبثّه من مفاهيمَ ومعانٍ ورسائلَ وقيمٍ تُعلي من شأن الماضي ليتحرّك الحاضر ويبني المستقبل، وإنّ هدف أي عملٍ فنّي في أيّ مجتمع هو التّركيزُ على ثوابت هذا المجتمع، وإبراز هويّته واستقلاليّته، ولعلّ أوّل المستهدفين مِن مشاهدته هو المواطنُ القوميّ نفسه؛ لذا فقد حرصَ العمل على إظهار القوميّة التّركية وتجسيدها بكافّة أشكالها وعلى اختلاف تناولها، فأظهرتِ القائدَ السيدَ الجريء القويَّ الحكيم العادل، وأظهرتِ الجندي المقاتل المقدامَ غير الهيّاب للمواقف، الحريص على تنفيذ الأوامرِ والإخلاصِ لسيّده وقائده، وكذلك الزّوجة الوفيّة الصّبورة المُدْركة لقيمة الاسْتقرار والطّاعة لزوجها، والمسئولة عن البيت والأولاد، والمساندة لزوجها والمُضحّية معه، وأظهرتِ الإخلاصَ والوفاء للدّولة، وتقديم المصلحةِ العامّة على كلّ شيء،
وكان البعدُ الإيمانيّ واضحًا وجليًّا في كلّ العمل في المواقف وفي الحوار من كافّة الشخوص؛ صغيرًا وكبيرًا، وفي حلّ المشاكل.

ومِن الواضح أنّ المسلسلَ في الجزأيْن الأوّل والثّاني لم يحتوِ على رسائلَ موجّهة يكون لها الأثرُ الدّلالي والآنيّ من مثل ما جاء في بقيّة الأجزاء، ولكن لمّا ظهر ولعُ النّاس واهتمامُهم وتعلّقُهم بالعمل؛ بدأ التّفكير في إرسال هذه الرّسائل الحيوية لتكون معالَجَةً لكثيرٍ من الأمور المتعلّقة بالدولة التّركية الآن، ولعلّ ممّا يؤكّد ذلك أنّ الرّئيس التركي أردوغان حين استشعرَ تأثير وتعلّق المشاهدَ التركي والعربي والإسلاميّ بوجهٍ عام؛ زار موقعَ العمل هو وزوجتُه، كما تمّ تكليف مؤلّف المسلسل محمد بوزداغ بكتابة مسلسلٍ آخرَ عن معركة *كورت العمارة* التي انتصرتْ فيها تركيا على بريطانيا في الحرب العالميّة ممّا يعيدُ التّاريخ والمجد مرّة أخرى للشّارع التركي، ويذكّره بأمجاده وبطولاته.. وهكذا يفعل الوعيُ بقيمة الفنّ ورساليّته.

حرصَ العمل على ترك بصمةٍ حقيقيّة في المجتمع التّركي والإسلامي - إنْ أراد ذلك-، فجاءت الرسائلُ كثيرةً ومتنوّعة وماسّة بصورةٍ حقيقيّة تجسيدًا للواقع المؤلمِ وتطلّعًا للمأمول والمستهدَف، وإليكم بعض هذه الرسائل:

- استهلال دراما أرطغرل يبدأ العملُ بقولِ ديلي دمير: اللهُ لا شريكَ له. فيقول أرطغرل وهو يضربُ الحديد: الحقّ هو الله..
الحيّ هو الله.. ثمّ يقول: حتّى الحديد لم يتحمّل ذكر الله وآمن. هكذا بدأ العملُ بجُملةٍ ودلالة تضعُنا في مرْمى الهدفِ من العمل، ويرشدُنا إلى أنْ نلتفت إلى عرض صلاةِ الجمعةِ كاملة (خطبةً وصلاة) في حلقتين متفرّقتين؛ الحلقة ١٦ والحلقة ١٢٨ حيث تتمّ صلاة الجمعة والخطبة كاملة في الحلقة

دونَ اختصار، وباستفاضةٍ في العرض والتّناول؛ لهوَ مؤشّر ورسالة هامّة لأهمية التّمسك بالثوابت الدينية، وإتاحة الفرصة لها في وسائل الإعْلام وترسيخها في وجدان الجميع، ولعلّ هذا التوجّه الإسلامي ليضعُ بارقةَ أملٍ وتحقيقًا لمقولة أردوغان حين سأله أحدُهم: لماذا لا تغلقِ الخمّارات وبيوتَ الدّعارة؟ فقال: لنْ أغلقها الآن، ولكنّي سأربي جيلًا يغلقها بنفسه، وهذا بادٍ بالاهتمام بالطّفل والطفولة على مدار العمل.

- الأمومة المجاهدة: الأمّ التّركية لا ترضعُ أولادها اللّبن فقط، ولكنّها ترضعهم الشّجاعةَ والقوّة والجهاد والشّهادة في سبيل الله والحقّ.

- تحويل العدو إلي صديق: كسبُ العدوّ في صفّك وتحويله إلى صديقٍ أفضل من فتحِ البلاد والعداوة المفْرِطة، وهذا موجودٌ في التاريخ، وشاهده هنا ما حدثَ مع غون ألب وصبَرَ أرطغرل عليه، ومع آريس وإسلامِه فيما بعد ليسمّى أحمد، وها هو كلاوديوس يتحوّل بالدّعوة على يد ابن عربي إلى عُمر، ويقاتل في صفّ قبيلة الكايي ضدّ فرسان المعبد في القلعة وتيتوس!!
وإذا ذهبنا بعيدًا بالتّاريخ نجد عثمان غازي عندما أعجبَ بشجاعة ميخال أوغلي لم يقتلْه فأسلمَ وقاتلَ مع عثمان، وأصبحت عائلة ميخال أوغلي من الذين حملوا رايةَ الإسلام فيما بعد.

- القصة ودورها في النهضة: يذكّر أرطغرل الأسيادَ في مجلسِ القبيلة بأمجادِ وقصص الأجداد، فيعترض أحدُهم على سرْدِ القَصص، فيقول له أرطغرل: إنّ حكاياتِ أجدادنا ليست قصصًا لينامَ الأطفال، بل ليستيقظَ الرّجال. ولعلّ هذا هو المقصدُ من إعادة إحياء القصص العثماني من جديد.

- التفافُ الأطفال والصّبية قديمًا حول ديلي دمير يحكي لهم القصصَ البطوليّ لأجدادهم، ومِن بعده الحداد آكتمور، ومن بعدهما الشّيخ في المسجدِ في إعادةٍ لصورةِ وقيمة الكتاتيب؛ ليعطي دلالةً ومؤشّرًا تربويًّا توجيهيًّا الآن.

- البعد المعاصر في دراما أطغرل: استبدالُ كلمةِ عثمانيّ بكلمة تركي، وكلمةِ الدّولة العثمانية بالدّولة التركية؛ واضحٌ من التّأكيد على هويّة التركي وقوّتِه ومكانتِه وعزيمته، وهي رسالةٌ عصرية مَفادُها مردودٌ على ما تواجهه تركيا الآنَ من تحالفاتٍ دوليّة ضدّها.

- قول أرطغرل: مَن يردْ منّا أرضًا فليدخلْ تحت هذه الأرض. مقولةٌ عصريّة حديثة موجّهة من تركيا لكلّ مَن يعاديها ويتكالبُ عليها الآن. وهذا يجلّي قيمة الوطن والحفاظ عليه،
يقول د خالد فهمي في كتابه *وكأنّ القرآن يتنزّل من جديد* (بتصرف):
للوطن في التصوّر الإسلامي عمومًا والتصور الإسلامي المعاصر على وجه الخصوص منزلة رفيعة، على عكس ما يشيعه خصومُ الحركات التحررية الإسلامية، ولقد كان عجيبًا أن يقف كثير منهم أمام قوله تعالى: *ولو أنّا كتبنا

عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليل منهم..*
النساء: ٦٦، فيرون فيه تسوية بين الحياة أو البقاء في الأوطان والموت أو القتل أو الإخراج أو الطرد منها.. ولقد برزت روايات تنشّق الصحابة ترابَ مكة المكرمة ساعة من الله عز وجل عليهم بفتحها* ا.هـ

- يقطع بامسي رأسَ أنجيلوس - ابن حاكم قلعة بيلاجيك-، ويقول للحارس الصليبي النّاجي: فلتأخذ هذا الرّأس الآن إلى حاكم بيلاجيك ولتقلْ له: إنّ رأس الذي يعادي الأتراك لنْ يبقى فوقَ جسده. لتصلَ الرّسالة إلى العالم الغربيّ المعادي لتركيا حتّى يعلم حقيقةَ توجّهه وقدرتَه على المواجهة إنِ استلزم الأمر.

- بعد قطْع رأس سعد الدين كوبيك يقول الأمير حسام الدين كاراجا: سنتجوّل بجثة الكلب سعد الدين في المناطق. فيقول أرطغرل: فليرَ الخونةُ الذين بيننا، والأعداءُ الذين وضعوا أعينهم على وطننا، حتّى يدركوا بشكلٍ جيّد أنّ دولتنا ستكون باقيةً إلى الأبد، وليعلموا بشكلٍ جيد أنْ لا يمكن لأحدٍ أن يسقط دولة الأتراك...

وهذا المعنى يتكرّر في نفس الحلقة (١١٥) في مدّة لا تتجاوز عشرَ دقائق من الأحداث.

- توريث قيمة الفعل للأبناء: يقول أرطغرل لابنه غوندوز: عندما كان جبلُ الحديد يذوب، وعندما كان النّهرُ الهائج يصمت مَشَيْنا في الطّريق ووضعنا أثرَنا واسمنا، عندما كتبنا اسمَنا على الحجر وختمَ بختم الإيمان على قلوبنا ثقبْنا السّماءَ الزرقاء، وأرْجَفنا الأرضَ القوية، جعلنا من الشمس بوصلةً، ومن السماء خيمة، وصرخنا لجميع العالم العدالة والحرية إلى الأبد، مَن نحن؟ نحن الشّهداء الذين يموتون في سبيل دعواهم، نحنُ الأبطال الذين يغيّرون نظامَ العالم، نحن الذين دينُهم الإسلام، المسمّون الأتراك. فيرد غوندوز: اسمنا أتراك، اسمنا أتراك.

- غرس قيمة التخصص عند الناشئة: تأسيسُ الأطفال الصّغار على التخصّص، وتشجيعُهم على ذلك؛ حيث التنوّع في المواهب والملكات واستثمارها؛ فنجدُ الحدّاد آكتمور يردّ بامسي ويوجّهه إلى ترك ابنه آيبرس لطلبِ وحبّ العلم، وها هو أرطغرل يتركُ ابنَه سافجي لطلب الطبّ وممارسته مع آرتوك، وها هو يركّز مع ابنِه الآخر غوندوز على القتال والمواجهة.

- توحد الباطل وتشتت الحق: أهلُ الباطل يقاتلون من أجل قضيةٍ واحدة، ويعتبرونَها مقدّسة ولا نزاعَ بينهم،
ولم يشذّ عن ذلك سوى تيتوس الذي خانَ أستاذه وعملَ لنفسه فقط، كان ذلك طوالَ العمل بأكمله لكنّ أهلَ الحقّ يقتل بعضُهم بعضًا، ويكفّر بعضهم بعضًا، ويكيدون لبعضهم!!!

- الوحدة طريق النصر: دائمًا هناك إصرارٌ على قيمةِ الوطن والوحدة والتماسكِ بين القبائل، حدث ذلك مع قبيلتي: الكايي والدودورغا، والكايي وتشافدار، والكايي وأومور.. وهي أمنية قديمة جديدة للمّ الشّمل والوحدة في مواجهة العدو.

- الدفاع عن العلماء وعصف العدو بهم: تسخير أرطغرل وقوّته ومحاربينه للدّفاع عن العلماء والحفاظ عليهم هي رسالةٌ حقيقيّة للحفاظِ على العلماء والاهتمامِ بهم، وعدم تسليمهم أو التخلّي عنهم، ولعلّ ما حدث في العراق مؤخّرًا من قيام فرق الاغتيالات الإسرائيلية باغتيال حوالي ٣١٠ من علماء وأساتذة العراق، ولاحقًا تمّ الكشف عن أنّ أكثر من ٥٠٠ من علماء العراق وأساتذته موضوعون علي قوائم الاغتيال الإسرائيلية، وتشير أيضًا إلى أنّ ١٧ ألفًا من العلماء والأساتذة أجبروا على الرّحيل عن العراق منذ بدْء الاحتلال الأمريكي؛ لدليلٌ على خسارة الدولة العراقية لعلمائها، ودليلُ حياةٍ لتركيا الجديدة.

- النفاق وخطورته: إنّ تخطيط الأعداء وتنكّرَهم في صورةِ أصدقاء هي وسيلةُ الكفر في القديم والغرب في الحديث،
فليحذر العالمُ الإسلاميّ الآن من أمثال زانغوتش المتخفّي والأمير بهاء الدين المَفْضوح!!

- العدالة وتقاليد السيادة معًا سبيل النجاة: أعرافُ الدّولة وتقاليد السّيادة والحُكم مقدّمٌ على كلّ شيء، وكذلك تنفيذُها للعدالة والمساواة واضحةٌ وجليّة تمامًا في كلّ موقف فاصلٍ يحتاج إلى قرار بين أحد المقرّبين من خيمةِ السّيادة وأحدِ الأفراد العاديّين أو حين يخطئون.

- حين يقول أرطغرل للسّلطان علاء الدين: لم يشهدِ العالمُ وقوع دولةٍ لم تنحرف عن عدالتها، ولم يتمّ تهديد بقائها يا مولاي، لكن عندما تتضرّر العدالة بأصغر أذى تلك الدّولة تحترقُ وتصبح رمادًا وإنِ امتدّت أراضيها إلى العالم كلّه، فالعدالة هي أكبر فاتح على الأرض... كانت هذه رسالةً عميقةَ الأثر لجميع المجتمعات أنْ تحافظ على العدالة فإنّ الله يقيمُ دولةَ العدل وإنْ كانت كافرة، ويزيلُ دولة الظلم وإنْ كانت مسلمة.

- الثقة في النفس: عزّة النّفس والشّجاعة في كثيرٍ من المواقف لتوحي بأنّ الهدف إظهار التركي سواء كان رجلًا أو امرأة في صورةِ الثّابت والواثق من نفسه، ومن كينونتِه التّركية.

- أسلوب وأد الخيانات: فضحُ أرطغرل للخائنين ومواجهتُهم أمام أعوانهم رسالةٌ صادمةٌ للطرفين؛ فهي تعرّي الخائنَ العميل وتهزمُ مَن يستعمله، ثمّ هي في الأصل وسيلةُ عزّة ونصرة لأهل الحقّ، فيقول أرطغرل لبيبولات حين يستردّ منه إمارةَ القبائل التي كان قد منحها له أينجاك ظلمًا: أنا لستُ مثل

الكلبِ الذي يجري وراءَ منفعته من سيّده*، وهذه رسالة لكلّ مَن تخلّى عنْ تاريخ بلاده وأعطى الدنيّة من وطنه وعشيرته طمعًا في دنيا زائلة.

- قيمة الخبرة ودور الشيوخ: كبار السنّ أصحابُ الخبرات لا ينبغي أن يُتْرَكون بسبب تقدّمهم في العمر، ولكن ينبغي أنْ يُستفاد منهم على أقصى درجة، فلربّما كانوا أفضلَ بكثيرٍ بسبب خبرتهم وتاريخهم في العطاء ، وهذا واضحٌ تمامًا في شخص ديلي دمير وآرتوك - حتى بعد إصابته بالعمى!!.

- قيمة الدولة: التّركي يجوعُ ويعطش لكنّه لا يعيش دونَ دولة.. وهذا المعنى يتكرّر في أكثر من حلقة.. وكذلك مقولة: مَن يردْ أن يكون على رأس تركيا ستعرفون جميعًا ماذا سيحصل لرأسه.. ومقولة قائد الخدمة من ذوي اللحى البيضاء: حلم الدولة في روح الترك، كل تركي دولة، إن عاش على الأرض تركي واحد حتى فهو بالنسبة لنا دولة.

- يستصعب تورغوت على أرطغرل أنّه بعد وفاة زوجته حليمة يأتيه الأمر من السلطان للذّهاب للتفاوض مع أوغاداي خان ملك المغول، فيقول له تورغوت: نذهبُ إلى وظيفة مقدّسة كهذه إضافةً إلى أيّامنا السّوداء هذه!! فيقول له أرطغرل: من أجل دولتنا، إن اضطرّ الأمر نضعُ حجرًا على صدورنا، وننطلقُ إلى الطرقات في أكثر أيّامنا سوادًا، في هذا الطريق المبارك ابتعدْنا عن قبيلتنا وعن إخوتنا، وعندما يحينُ الوقت يتوجّب علينا أن نتخلّى عن أحبابنا وعن قبيلتنا وخيمتنا، طالما أنّ الدولة ليست دائمة وموطننا ليسَ مزدهرًا ما أهميّتنا نحن وقبائلنا وأولادِنا؟!! يكفي أنْ تكون الدولة موجودة، يكفي أن تكونَ رايتُنا حرّة.

- قيمة الثبات: عندما يدخل أرطغرل الزنزانةَ لينقذ ابنه غوندوز الأسير يقول له الطّفل: ألم تعلّمني أنّ التّركي لا يستسلمُ يا أبي؟ فلمْ أستسلم أبدًا ولم أخذلك.

- أهمية التدافع في نشر الحق: يقف أرطغرل بعد إنقاذ ابنه غوندوز من الأسر في القلعة بين النّاس في قبيلته ويقول: لا يمكنُ لأعدائنا أنْ ينالوا منّا بالمكائد، ليس لنا أبناء ولا أراض نُعطيها للسفلة المنهمكين بإخراجنا من هذه الأرض، طغى الفسادُ ومن أجل نظامِ العالم أصبحتِ الحربُ فرضًا.

- قيمة الطاعة للقيادة فيما لا يخالف شرع: الطّاعة الكاملة للسيّد والأمير والسلطان والقائد سمةٌ عامّة في كلّ المواقف والبيئات والقبائل، لم يشذّ عن هذه القاعدة أحد، وهي إشارةٌ لطاعةِ وليّ الأمر وتنفيذ أوامره حتى لو خالفت مُرادَ الأفراد، ولكنّ السيّئ في الأمر أنّ السّادة في خيمة الحكم دائمًا موافقون على كلّ شيء، لم يبدُ مِن أحدهم اعتراض، يسيرون مع السّائرة، لو تغيّر السيد يميلون في لحظةٍ ويفرحون بما يفعله في القديم، وكثيرًا ما تتردّد مقولتهم: السيد يقول الصواب.

- قيمة السرية والشوري معًا: إنّ تكتّم أرطغرل طيلةَ الحلقات الأولى واحتفاظه بسرّه وتحرّكاته دائمًا لنفسه فقط، وعدمَ رضوخه لاستفسارات الجميع مِن حوله عنْ تدبيره وخططه؛ لهُوَ أمرٌ طبيعي ورسالةٌ موجّهة في مرحلة التّأسيس أنّ القائد لا ينبغي أنْ يبوح بمكنون نفسه ولا تدبيره لكنّه حين تمّ تأسيس الدولة فيما بعد نجدُه يتشاور في كلّ صغيرة وكبيرة مع آرتوك وتورغوت وبامسي، ويطلبهم تحديدًا لاتّخاذ قرارٍ في كثيرٍ من الأمور، وهناك كثير من الخطط والتدابير يعرضُها عليهم قبل تنفيذها، وهذه سياسةٌ رشيدة بين مرحلتي التأسيس والقيادة فيما بعد، فها هو النّبي - صلى الله عليه وسلم - الذي لم يعرف أحدٌ بهجرته، وها هو لا يخبرُ أحدًا بفتح مكّة، ويتّخذ التدابير، ولكنّه بعد الفتح وتأسيس المدينة في المدينة يقول: أشيروا عليّ أيها الناس.

- أهمية اللغات: إنّ قراءة مرغان لرسالةِ هولاكو خان التي أرسلها لألينجاك، والتي جعل أرطغرل محاربيه يقطعون الطّريقَ للحصول علي هذه الرّسالة؛ إنّ قراءة مرغان لها ليعطي إشارةً هامّة أنّ *مَن تعلّم لغة قوم أمنَ مكْرَهم*.

- قيمة المرأة: ولعلّ من بين الرّسائل الهامّة التي أرادها العمل إظهارَ قيمة المرأة قديمًا وحديثًا، والتّأكيد على دورها الهامّ في تاريخ الأمم، فكانت الزوجة والأمّ والأخت والجدة والحبيبة، وفي كلّ مرحلة أو صورةٍ لها نصيبٌ كبير في التّوجيه والرعاية، **ولقد صدق أمير الشعراء شوقي حين قال:**

***الأمّ مدرسةٌ إذا أعددتَها**

أعددتَ شعبًا طيّب الأعراق*

ولقد أظهر المسلسل المرأةَ في مكانةٍ تليق بكينونتها وتتناسبُ معها، فعملَ على تجلي الصّورة المشرقة في المرأة بوجود أمثال: هايماه ودورها في حياة سليمان شاه، وحتّى من بعده في تولّي الوكالة.. ثمّ حليمة وكيف كانت السّندَ والداعم لزوجها أرطغرل في نضاله وتثبيتها له في سبيل دعوته والانتصار لها!!، ثمّ ما كان من أمر أصليهان وثباتها على مبدئها في حياة والدها جاندار، أو مع أخيها علي يار، أو فيما بعد حين تولّى زوجها تورغوت سيادة قبيلة تشافدار.. ثمّ ما كان من أمر الكثير للثّبات على المبدأ في مؤازرة الحقّ في صورة الزّوجة من مثل: جوكتشا، وآيكيز، وبانوشيشك، وحفصة، وإيلبيلغي.

ولكنّ العمل لم يغفلْ أن يبيّن لنا صورة، ويرسل رسالةً مَفادها أنّ المرأة لا ينبغي لها أنْ تتدخّل في شئون الحُكم والسيادة بنوعٍ من الاستقلاليّة حيث تجلب الكثيرَ من المشاكل لنفسها ولمَن تتعاون معهم،
من مثل: سالجان حين تدخّلت وأرادت السّيادة لزوجها جوندودو، ووقعت في الخيانة في سبيل تحقيق ذلك... وها هي آيتولون زوجة كوركوت سيد قبيلة الدودورغا وسيطرتها على زوجها ورغبتها في التّمكين لأخيها غوموشتكين بإمارة القبائل... ثمّ ماهبري زوجة السّلطان علاء الدين كيكوبات وطمعها في

تولّي ابنها غياث الدين السلطة والعرش على حسابِ رغبة والده بتولّي ابنه الآخر قلج أرسلان للسّلطة، فوصل بها الأمرُ للاتّفاق مع سعد الدين كوبيك على قتل زوجها بالسّمّ للوصول إلى ما تريد!!.. وها هي سيرما أخت بيبولات ومؤازرتها لأخيها في أفعاله للوصول إلى الإمارة!! ومثلها تشولبان زوجة أورال ومؤازرتها لزوْجها طمعًا في الإمارة والسيادة.

لذا فإنّه ممّا يمكن استنتاجُه من بين ثنايا الأحداث أنّ المرأة إذا تدخّلت في أمور الحكم والسيادة فإنّها تفسد النظام، وقد كان هذا واضحًا، حتّى هايماه - والتي أعطت نموذجًا جيدًا في كثير من المواقف - فإنّها أظهرت طبيعةَ المرأة في بعض المواقف من مثل طلبِها التّجاوز عن خطأ ديندار والذي تسبّب في مقتل دوغان!!

وليسَ هناك أجملُ من رسالةِ الختام للجزْء الخامس في *الحلقة ١٥٠* حين يقول أرطغرل: يا إلهي، يا هازمَ الجيوش المجتمّعة، إنّ العالمَ الإسلاميّ المشتّت ينتظر ضوءًا وأملًا وخلاصًا، اجْعلنا وسيلةً لهذا الخلاص، اجعلْنا حملةَ رايةِ هذه الدّعوة العظيمة، اجْعل من نصيبنا أن نوحّد العالمَ الإسلاميّ تحت تلك الرّاية المباركة، فلتكنْ هذه الشّمس التي تلمعُ فوقنا إشارةً للنّور الذي سيولَدُ في وطننا، فلتكنْ بدايةَ يومٍ جديد لنْ يضيء اليومَ فقط، وإنّما سيضيء الكثيرَ من العصور القادمة.

وفي الختام، أجدني مدفوعًا لاستشعار الألم ممزوجًا بالأمل، بما يشعرنا أنّنا في حاجةٍ ملحّة لقراءةِ رسائلَ هذا العمل أنّ هذه الأمّة لا بدّ أنْ تقرّ بأخطائها، وتعترفَ بتفريطها الآنيّ في كثيرٍ من ثوابتها، وأنْ تفيء لإرادة الحقّ والانتصار لهويّتها، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ملاحق الكتاب

دراما قيامة أرطغرل في عيون المشاهدين

ممّا لا شكّ فيه أنّ الانتشارَ الواسع الصّيت الذي لاقاه المسلسل على صعيد العالم العربي - ولا أتجاوز إنْ قلت إنّ الغرب اهتمّ به لدراسة تأثيراته على العرب عمومًا - جعلَ لزامًا عليّ أن أعرضَ لبعض الآراء التي تعلّقت بالعمل، وقد قسّمتها فئتيْن: أولاهما خاصّة بالأكاديميّين المتخصّصين في مجال النّقد والفكر، ثمّ أتبعته ببعض آراء لنماذجَ من المشاهدين، والتي كان الغرضُ مِن إيرادِها أنْ أظهر مدى اسْتشعار المُشاهد العادي لهدف العمل القيمي المبثوث، ولمدى تأثره به، ولذا لمْ أعلّق على أيّها لبلوغها المنشودَ منها بمجرّد إيرادها، ثمّ لعدم الإطالةِ والإسهاب في العرض، وفيما يلي عرضٌ لما اقتطفتُه من بستان المشاهِد الكريم..

القسمُ الأوّل: آراءُ بعض المتخصّصين:

أوّلًا: كتب الأستاذ الدكتور/ حلمي محمد القاعود مقالةً بعنوان: مشاهدة أرطغرل وأصحاب اللّحية التايواني! قال فيها[2]:

على مدى مائتي ساعة أو أكثر حتّى الآن؛ تابعت الملايينُ في العالم العربي والإسلاميّ وخارجه حلقاتِ مسلسل أرطغرل، الذي قدّم جهادَ نفرٍ من الأمّة المسلمة ضدّ قسوة الطّبيعة، ومحاصرة الإسلام وتفرّق أهله، ووحشية الخيانة والأنانية والطّغيان. وحدها تلفزيوناتُ العواصم العربية باستثناء قناةٍ محليّة واحدة؛ امتنعت عن بثّ المسلسل، وكأنّه رجسٌ من عمل الشيطان، فالدّراما التي عرفها العرب في العقود الأخيرة هي العشقُ الممنوع والحبّ المفقود وحفلات الأفراح والليالي المِلَاح، وهي الدّراما التي جعلت الإسلامَ مرادفًا للإرهاب والتطرّف وبُغض الحياة، ومن الطّبيعي بهذا التصوّر أنْ تنأى تلفزيوناتُ الأشاوس والنّشامَى عن مسلسل يتحرّك بروح الإسْلام وتصوّراته الظّافرة التي جعلت من بعض القبائل التركية البسيطة (الأغوز) تنتصر على المغول وفرسان الهيكل والصليبيّين، وتؤسّس لدولةٍ إسلامية قويّة تفتح القسطنطينية، وتقودُ المسلمين لمدّة ثمانمائة عامًا، ويخشاها الغرب والشرقُ جميعًا. كان لليوتيوب والفضائيّات العربية التي تبَثّ من الخارج دورٌ كبير في تقديم المسلسل إلى المشاهد العربي المحاصَر بدراما التّفاهة والهلس والأفكار السّخيفة، ونقلتِ الأخبار أنّ المقاتلين مع الشّرعية في اليمن كانوا يشاهدون المسلسل في بعض المقاهي عند قضاءِ أجازاتهم الأسبوعيّة بطريقة الفيديو، وكانوا يدفعون مقابلًا أكبرَ من ثمن المشروبِ لصاحب المقهى!

في صراع القبائل التركية، مثّلت الخياناتُ عنصرًا خطيرًا أفاد الأعداء كثيرًا، وما أكثرَ النّفوس الضعيفة التيِ لمّا يدخل الإيمانُ إلى قلوبها، فسقطت في

غواية الذّهب والخيانة، وهو ما أجهضَ العديدَ من النجاحات والانتصارات المتوقّعة، وكشف ظهر المسلمين للعدوّ، ولكنّهم كانوا ينتصرون بفضل الله ثمّ إيمانهم وشجاعتِهم ورغبتهم في الشّهادة إعلاءً لكلمة الله. وكان سعد الدين كوبيك واحدًا من الخونة الذين خانوا الأمّة وغدَرَ بالسلطان وشارك في تسميمِه وقتله تمهيدًا ليتولّى السلطنة من بعده، وستر خيانته وغدره بالنّفاق والكلام المعسول حتى أوشك أن يقود السلطنة.. وبعد أن شارك في قتل السّلطان علاء الدين، الذي تمّ تنصيب ابنه غياث الدين كي خسرو سلطانًا استطاع كوبيك أن يتمكّن من تصريف شئون الدّولة فألحق بها ضررًا كبيرًا هبطَ بها إلى الهاوية، تمرّدت قبائل الخوارزميّين وانتصروا عليه، وقام بتصفية كبار الأمراء ورجال الدولة وقتلَ ابن السلطان الرّاحل عزّ الدين قلج أرسلان وأمّه الملكة العادلية الأيوبيّة، فأمر السلطان غياث بقتله، وهو ما قام به أرطغرُل في الحلقة ١١٥ من المسلسل (قتل في سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٩م) ممّا أسعد الجمهور الإسلامي، وأحزن فريق الثّورة المضادة في العواصم العربية التي ترى نفسها من خلال شخصية كوبيك الحربائية!

خصومُ الإسلام لم يكونوا وحدَهم الحزانى على مصرع سعد الدين كوبيك في مسلسل أرطغرل. انضمّ إليهم نفرٌ من أصحاب اللّحى التايواني، أفتوا بعد قطع رأسه في المسلسل بأنّ مشاهدة المسلسل حرام! - حرم الله عليكم نعمة الدنيا وجنة الآخرة.

مقتل سعد الدين كوبيك هو مصيرُ الخونة الذين يعميهم الغرورُ عن الإخلاص لله والدّين، ويبادرون بالولاء لأعداء الأمّة والطامعين فيها، ويقهرون شعوبهم ويسفكون دماء مواطنيهم، ويقمعون كلّ صوت حرّ يعارض الإجرام والطغيان والجبروت. وكانت فرحةُ الجمهور بمصرع كوبيك تعبيرًا عن حلم بمصرع الظلمة والطواغيت وعدلًا من الله، ورحمة بالمظلومين. شكرًا لأرطغرل، مهْما كانت الملحوظات الفنية.
الله مولانا، اللّهم فرّج كرب المظلومين. اللّهم عليك بالظالمين وأعوانهم.

ثانيًا: مقالة وردت لكاتبيْن، بعنوان: (أرطغرل وعبد الحميد.. ليست مُجرّد حِكايات)[3]:

يعرض التّلفزيون التركي الرّسمي المسلسلَ التاريخي المتميز *قيامة أرطغرل* مساء كلّ يوم أربعاء منذ ما يزيد عن العام ونصف العام، وبدأ قبل أسبوعين عرضَ مسلسل آخر يتحدّث عن سيرة السّلطان المظلوم عبد الحميد خان *الثاني*. وبدأت الكثيرُ من قنوات اليوتيوب بترجمة هذين المسلسليْن، الأمرُ الذي دفع الآلافَ من العرب لمتابعتهم بشغفٍ كبير، حتّى إنّه أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياة مئات بل آلافِ العائلات العربية في الوطن العربي.

وفي هذه الأثناء خرجت الكثيرُ من المقالات التي تتحدّث عن الفترة الزمنية

لمسلسل قيامة أرطغرل، وفي المقابل خرجت العديدُ من المقالات ومقاطع الفيديو التي تُحذّر من هذا المسلسل وتصفه بالمسلسل *المُزوِّر لحقائق التاريخ*، وأمام كلّ هذا لا بدّ من وقفة لنتعرّف على حقيقة ما يجري.

بعد متابعتي للمسلسلين - قيامة أرطغرل والسلطان عبد الحميد - ومشاهدتي للحلقة الواحدة أكثر من ثلاثِ مرّات لدرجة أصبحت فيها أحفظُ أقوالهم حرفيًّا، وبعد قراءتي للعديد من الأقوال التركية عن هذيْن المسلسلين، وبعد كلمة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان ومدحِه لهذا المسلسل بطريقةٍ رائعة فإنّني أستطيع أنْ أستنبط الهدفَ الحقيقي من هذين المسلسلين.
وممّا لا شكّ فيه أنّ المسلسل يحتوي على *بعض* الأخطاء التاريخية والتي لا تؤثر أبدًا على السياق العام للمسلسل، ولكن هنالك بعضُ القصص في المسلسل والتي كذّبها البعضُ هي حقيقية وتاريخية ولكنّها على الأغلب موجودة في التراث الإسلامي التركي، وغير موجودة في كتب التاريخ العربية لذلك رأى البعض أنها مصطنعة.
كذلك انتقد البعضُ المسلسل بحجّة أنه لا يتحدّث عن دور العرب، ولا عن جرائم المغول عند العرب، واقتصر الحديثُ عن الأتراك. وهذا شيءٌ طبيعي لأنّ المسلسل لا يتحدث عن ظاهرة عامّة، بل يتحدّث عن شخصيّة تاريخية تركية، فبالتالي لن يتوسّع كثيرًا في الحديث عن الجوّ التاريخي العام وإلّا فإنّ المسلسل لن ينتهي!
وحقيقةً فإنّ المسلسل لم يخرج ليتحدّث عن سيرة القائد المسلم العظيم أرطغرل لمجرد التسلية، أو لمجرّد مدح الأتراك - وإنْ كان كذلك - فهناك من الشّخصيات التركية التي يوجد في سيرتها ما هو أكثر وأكبرُ من سيرتي أرطغرل وعبد الحميد، لكنّ الحديث عن هاتين الشخصيتين كان لتشابه واقعهم بالواقع الذي نعيشه، وإن شئت قل إنّ واقعهم متطابق مع واقعنا تمامًا.
الفترة الزمنية لأرطغرل كانت الأمّة الإسلامية تعاني من انشقاق كبير وتشتّت وتشرذم وقتالٍ داخلي، وفترة السّلطان عبد الحميد كانت تعاني من تغلغلِ الغرب وحياكةَ المؤامرات، وإذا ما جمعتَ الفترتين فإنّك ستتحدّث حتمًا عن واقع الأمّة اليوم من انشقاقٍ وتشرذم وفتن وتغلغل للغرب ومؤامرات!
أرادتْ تركيا أن تضع مسئوليّةً ثقيلة على كاهل الأتراك وكلّ مَن يشاهدهم، فهي رسمت لهم واقعًا مؤلمًا كان موجودًا وأظهرتْ كيف يمكن لشخصٍ مع بضعة محاربين أن يؤسّسوا دولة العدالة، وأن يُحطّموا المؤامرات على بلدانهم. ولعلّ العبارات التي اختارها المُخرج في حوارات المسلسل تُثبت صحّة كلامي بما لا يدع مجالًا للشك.
ومَن شاهد مسلسل قيامة أرطغرل ودقّق فيه جيدًا استنبط ذلك، مثلًا من خلال مجيء ابن عربي الأندلسي في المنام لأرطغرل في إحدى الحلقات، وقال له: *حتى متى ستنام يا أرطغرل،
إنَّ هذه الأمّة تنتظرك، هيّا قُم لوظيفتك!*، وما وظيفته إلّا أن ينصر

المظلومين ويضرب عنق الظالمين! كذلك عندما سُئل أرطغرل عن حال الأمّة فقال: *إنّ وضع الأمة يرثَى لها، فالأخ يقتل أخاه، والكفار يحيكون المؤامرات*، فقيل له وما الحلّ؟ فقال: *أن نجمع كلمة الأمّة، وأن نقول للظالم توقّف، ونحن لن نتوقّف عن جهادنا حتى نزرع راية العدالة في الأناضول*.

القائمون على المسلسليْن لم يصنعوهما عبثًا، ولا لأجل أن يتفلسف المتفلسفون ويناقشوه من الناحية التّاريخية ويحاسبوه على الكلمة. هُم أرادوه فنًّا بديلًا عن فنّ التّشويه ليزرعوا في هذا الجيل نَفَس التّحدي والصبر والعزم والتوكّل على الله، ونصرة الحقّ والمظلومين في كلّ مكان.

ثالثًا: كتب د. محمد عبد العاطي عن المسلسلس بعنوان: مسلسل قيامة أرطغرل، فقال:[4]

يتابع ملايين من المشاهدين الجزءَ الخامس من مسلسل قيامة أرطغرل، وقد بدأ المسلسل بثّ أولى حلقاته على قناة TRT١ التركية في ١٠ ديسمبر عام ٢٠١٤ م، وعُرضت حلقات الجزء الثّاني بدءًا من ٣٠ سبتمبر ٢٠١٥م، وانتهى في ٨ يونيو ٢٠١٦م،
ثمّ عرضت حلقات الجزء الثّالث في ٢٦ أكتوبر ٢٠١٦م، وانتهتْ في يونيو ٢٠١٧م، ثمّ الجزء الرابع في ٢٥ أكتوبر ٢٠١٧م، واستمرّ عرضُه حتى ٦ يونيو ٢٠١٨م.

يتناول المؤلّف التركي *محمد بوزداغ* في مسلسله حياة أرطغرل غازى الذي عاش في القرن الثّالث عشر الميلادي مع قبيلته البالغ عددُها حوالي ٤٠٠ فردًا تحت قيادة والده سليمان شاه، وبالرغم من أنّ المعلومات التاريخية التي تناولت أرطغرل غازي وعصره قليلة جدًّا لا تتجاوز بضعَ صفحات في كتب التاريخ العثماني إلّا أنّ المؤلف قام بنسج قصص من وحي الخيال ليضيف للأحداث الدرامية متعةً ولذّة.

جرى تصويرُ المسلسل في قرية ريفا على البحر الأسود بمدينة إسطنبول بتركيا، والمسلسل من تأليف محمد بوزداغ وإخراج متين قوناي، وبطولة أنجين التان الذي قام بدور أرطغرل وآخرون.

بالرّغم من أنّ أغلب المشاهدين يعرفون تمامَ المعرفة أنّ المسلسل تغلُب عليه الدراما أكثرَ من التّاريخ إلّا أنّ نسبة المشاهدة مرتفعة جدًّا لما ينشره المسلسل من قيم إسلامية قويمة، ونشر مبدأ العدل والمساواة ومجابهة الظّلم والخونة، وعَزّة الإسلام المتمثلة في أرطغرل وقبيلته.

بدأت أولى حلقات الموسم الأوّل على أوّل لقطة وهي صناعة السيف، وهذه رسالة من المؤلّف إلى أنّ هذه الأراضي التي امتلكها الأتراك قديمًا إنّما امتلكوها بالسّيف والعدل، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يخرجَهم منها إلّا بقوّة السّيف

آنذاك. وكانت الخلافةُ العباسية قد بدأت تضعف، والدّولة السلجوقية بدأ نجمُها في الأفول، ولا بدّ للعالم الإسلامي من قائدٍ شجاع يدافع عنه ويحمي بيضتَه، وهذا القائدُ هو أرطغرل غازي.

ظهرتْ في تلك الفترة جحافلُ المغول التي اجتازتْ بلادَ ما وراء النهر، وبعد أن أسقطت الخلافة العباسية بدأتْ تحتكّ بالدّولة السلجوقية، وكانت الأخيرةُ في فترة الانقراض فلم تستطعْ الدّفاعَ عن نفسها، وراحت ضحيّة تحت ظلم المغول، وبدأت في دفع الخراج للمغول من بعد موقعة كوسه داغ في عهد السّلطان غياث الدين كيخسرو الثاني.

كانت القبائلُ التركية الموجودة في بلاد الأناضول في نزاعٍ مستمرّ على القيادة كما حدث في الموسم الثّاني بين قبيلة قايي بقيادة أرطغرل وقبيلة الدودورغا بقيادة قورقوت بك. أكثر ما واجهَه أرطغرل هو الخيانة المتمثّلة في زوجة قوقورت بك وأخيها غوموش تكين والمغول بقيادة بايجو نويان، وبدأ يظهر في هذه الجزء الأمير السّلجوقي سعد الدين كوبيك الذى أراد المؤلف أنْ يظهره في دور قائدٍ ضعيف،
ويبيّن أنّ الأتراك العثمانيّين أفضل منه، وذلك لإظهار تفوّق الجنس العثماني على السّلجوقي؛ مع أنّ كتب التاريخ العثماني ذكرتْ أنّ السّلاجقة هم زعماء آل عثمان.

بدأ الموسمُ الثّالث بانتقال قبيلة أرطغرل إلى حدود الدولة السلجوقية المجاورة للدولة البيزنطية، وبالرّغم من أنّ التّاريخ ذكر أنّ أثناء تجوّل أرطغرل بفرسانه وجد جيشيْن يقتتلان فتقدّم أرطغرل لنجدةِ الجيش المهزوم ممّا ساعده على النصر، وكان الجيش الذى ساعده هو السلاجقة، والمهزومُ هو المغول، وفي رواية أخرى الصليبيّين؛ لكنّ المسلسل لم يظهرْ ذلك.. بل أظهر المعركةَ التي دارت بين أرطغرل وبين فاسيلوس قائدِ قلعة قره جه حصار، وبينما كان أرطغرل على وشْك الهزيمة جاء السّلطان علاء الدين قيقباد وأنقذه.

اتّفق سعد الدين كوبيك مع قائدِ قبيلة جافدار المجاورة للعثمانيّين في سوق الخان على قتل أرطغرل بالسمّ، ثمّ محاولة قتل السّلطان نفسه، وكان السّلطان من قبْلُ قد عيّن أرطغرل قائدًا للقبائل، وأقطعه منطقة سوغوت، وكان حاكمُ قره جه حصار تابعًا للسّلطان السلجوقي.

إلى هنا نستطيع أنْ نقول إنّ الأحداث التاريخية صحيحة، لكن بعد ذلك كلُّ ما جاء في المسلسل من أحداثٍ ووقائعَ إنّما هي مِن نسْج خيال المؤلف، وما حدث مع بامسي ودوندار وإسلام آريس، وبيع أرطغرل في سوقِ العبيد ونجاته من الأسْرِ، كلُّ هذا ليس له أساسٌ من الصحّة.

يريد المؤلّف أنْ يبرز دورَ العنصر التّركي العثماني على سائر الأجناس الأخرى

من تُرك وعرب وروم، وأنّ الدّولة التّركية العثمانية التي قامتْ على أنقاض دولة السّلاجقة هي مَن حملتِ الدّعوة الإسلامية على أكتافها، ونشرتِ الإسلامَ في ربوع أوروبا، وما يحدث من مؤامرت وخياناتٍ سواء من الأتراك أنفسهم متمثّلين في سعد الدين كوبيك وأورال وغوموش تكين وأمور بك وبيبولات، أو مجابهة العدو المتمثّل في فرسان المعبد، ثمّ فاسيلوس وآريس، ثمّ ظهور دراغوس في الموسم الخامس؛ كلّ هذه التكتّلات التي ظهرتْ في المسلسل إنّما هي رسالة من الواقع الذي تعيشُه تركيا الآن، وعداء الدول الأوروبية لها.

إظهارُ دور العبادة، ونشر الإسلام، وتعليم النشء الصغير في الكتاتيب؛ إنّما هو رسالة لعوْدة الإسلام إلى تركيا العثمانية من جديد.

حملُ أرطغرل غازي عبئًا ثقيلًا في الدفاع عن دينه ووطنه وثبيت أركان قبيلته وسط البلاد الأوروبيّة ومحاربته الكفّار ليلَ نهار والانتصارُ عليهم؛ هذا ثابتٌ تاريخيًّا، وعنوان المسلسل قيامةُ أرطغرل يوحي بقيامة تركيا من جديد، والعودة إلى ما كانت عليه الدّولة العثمانية في القرن الثالث عشر الميلادي.

كان لجماعةِ الآخيان دورٌ كبير في تأسيس الدّولة العثمانية، وهؤلاء متمثّلون في أصحاب اللّحى البيضاء بجانب أنّهم كانوا ينشرون الإسلام ويعلّمون الناس الدين من خلال التنقّل في البلاد، إلّا أنّهم كانوا يحملون السيف وقتَ الحرب، ويقاتلون بجانب أرطغرل، ومِن بعده ابنِه عثمان.

بدأ المؤلّف في الموسم الخامس يستخدم - كثيرًا - عنصرَ التّكرار في الأحداث، فما حدث في الأجزاء السّابقة مكرّرٌ في الجزء الخامس؛ مثل خطف ايلبكي فقد خطفت أصليهان من قبل، وقتال دراغوس فقد كان قتال فرسان المعبد، ثمّ فاسيلوس وخيانة بيبولات فقد كانت خيانة غوموش تكين، ومن بعده أورال.

ما ذكره رجلُ المغول حول امتلاكِ عثمان غازي العالمَ وتأسيس دولة قوية صحيح، وجاء في التّاريخ على شكل رؤيا رآها عثمان غازي وقصّها على شيخه آده بالي، وملخّصها أنّ عثمان رأى قمرًا خرجَ من حضن الشّيخ ودخل في حضنه، ثمّ نبتتْ منه شجرة عظيمة عمّت ظلالُها العالمَ، وتحتَ ظلّها جبال وصحاري وفيافي، والنّاس ينتفعون بها. بشّره الشيخ آده بالي بأنه سيمتلك العالمَ هو وذريتُه، وتزوّج عثمان بابنة آده بالي، وأنجب منها ابنه أورخان غازي الذي سيتولّى العرش من بعده.

لا يعيشُ التركي بدون دولة، ولا يسامح في الخيانة، ولا يعيش تحت نير الظلم والاستعباد، ويفضّل الموت على أنْ لا يقع في الأسر؛ لذلك كان أرطغرل لا يهاب الموتَ ويواجه الموتَ بقليلٍ من الفرسان من أجل تأسيس دولةٍ وتحمّل المتاعب والصّعاب في الهجرة من مكان إلى مكان من أجل تأسيس دعامة

لأبنائه وأحفاده من بعده، فقد غرس أرطغرل ثمار الدولة وسقاها عثمان وحصدها أورخان، ثمّ جاء مراد الأول وجعلَ الدولة تأخذ شكل الإمبراطورية.

وأخيرًا، يمكن القول بأنّ المسلسل جيّدٌ من الناحية العامّة، لكن يعيبُ على المؤلف الإطالة إلى حدّ الملل من تكرار الأحداث وكثرة الأعداء، وتصوير أرطغرل وكأنّه بطلٌ أسطوري خارقٌ للعادة لن يُهزَم قط، وبعد أن مات بالسمّ جاء ابن عربي الذي لم يقابلْه في الحقيقة، واستطاع أنْ يداويه وينقذه من الموت، مع العلم أنّ أرطغرل مات على فراشه وعمرُه تجاوز التّسعين.

رابعًا: في مقال للدكتور/ علي العمري بعنوان: (قيامة أرطغرل)، قال:[5]

أقول جادًّا لا مازحًا: إنّ مسلسل (قيامة أرطغرل) هو أوّل مسلسلٍ أراه في حياتي، أي بعد الأربعين عامًا. نعم، سبق وأنْ شاهدت *أفلامًا* عدّةً، لكنني لم أرَ طيلة عمري أيَّ مسلسل - رغم حسباني في صفوف الإعلاميّين، وخبراء الإنتاج، ومشاهدتي لتفاصيل وكواليس عددٍ من المشاهد التمثيلية والدرامية، والأسباب لذلك متعدّدة؛ منها أولويات اهتماماتي، ومنها طبيعةٍ انفعالاتي وتفاعلاتي التي لا تميل إلى الدّراما التمثيلية بهذا الحجم، فضلًا عن بعض المناظر الخادشة لجوهر القلب.

لا أشكّك ابتداءً أنّ عددًا مُهمًّا من المسلسلات والأفلام أدّت - ولا تزال - دورًا في وجدان الشعوب وحركتها وبرمجتها، وأنا منهم، لكنّ هذا التأثير لا يتفاعل إلّا مع أرضيّتي الفكرية، التي تبحث عمّا يغذّي العقل والروح، ويرفع من الوعي، ويحفّز المكارم، ويستدرّ أجمل العواطف.

المهمّ، لا أودّ إشغالكم بما رأيت وما لم أرَ سابقًا، ودعوني فيما شاهدته لاحقًا، وما الذي كسر هذه القاعدة مؤخّرًا!

السّرّ هو محاولة الانقلاب الآثم في تركيا بتاريخ ١٥/ ٧ / ٢٠١٦ م.

إنّه الحافز الأهمّ لكسر تابوت الامتناع عن المسلسلات؛ فما سرّ هذا الحافز؟!

في ليلة الانقلاب المشئوم عجبت من ارتفاع نغمةٍ صوتية، كانت كأنّها ملحمة متشابكة الأحداث والأصْوات، على وقع أقدام زمانٍ استدار لتوّه مهرولًا كأنّ يوم الفصل قد حان. خرجت تلك النّغمات كالمدمع من سيارات النّاس، وكزخّات المطر على أرصفة الشوارع، ومداخل المواصلات، وبوابة المطار!

عرفت بعدئذٍ أنّها مقدّمة أو *تتر* مسلسل (قيامة أرطغرل). كما عرفت حينها أنّ هذا المسلسل اعتُبر أحدَ العوامل الأساسية في يقظة الشعب التركي ومواجهة الوحدات الخائنة من العسكر بكلّ مُجَنزراتها، وآليّاتها، ورصاصاتها الحية، في ليلة الانقلاب البئيس.

وكان صدى المسلسل حاضرًا في أذْهان وأرواح الشعب؛ وكأنّهم أبطاله!

أيُعقلُ أن يكون هذا حقيقة؟

افترضتُ هذا الجواب الذي يؤكّد الشعب التركي عليه، وأنه تفوّق على أيّ مسلسل في تاريخ تركيا كلّها؛ حيث تؤكّد الإحصاءات أنّ نسبة المشاهدة بلغت قرابة ٤٠ مليونًا.

المسلسل من الناحية الفنية السينمائية يعتبر أجود وأقوى مسلسل تاريخي عربيّ مسلم على الإطلاق، وهو يعتمد على (الخيال السينمائي) في توظيف أحداثه التاريخية القليلة عن شخصية (أرطغرل) والد مؤسّس الدولة العثمانية (عثمان) والذي به سمّيت الدولة العثمانية.

لقد برع فريقُ الإنتاج في تفعيل كبرى اليقينيّات الإسلامية، وزرع القيم العليا، وبلورة منهجية الإسلام في فتوحاته.

المشاهدُ للمسلسل عرف الدولةَ العثمانية والسلجوقية، وعلاقتهما بالشّام، وفي المقابل عرف الدولة البيزنطية، والحملات الصليبية، ثمّ أدرك - بوعيه الباطن والحاضر - معنى الصّراع والتآمر والتفكك والاستبداد.

كثيرٌ من عناوين التّاريخ وطبيعة حركته كانت ثمرةَ أجواء المسلسل.

هنا لن أدخلَ في تقويم السيناريو وما يصحّ منه وما لا يصحّ، وما نسبة صحّة القصص، وبعض الملاحظات والمحظورات الشرعية؛ فهي من طرفٍ واضحة عند عددٍ من المثقفين، ومن طرف تعتبرُ موضعَ تجاذب وجهات نظر، وهي كذلك.

لكنّ ما يعنيني هنا هو نجاح المسلسل وأهميّة استثماره في إنشاء مشروعٍ تعليمي درامي تاريخي يُقرَّرُ في المدارس والجامعات.

لقد قدّم المسلسل نموذجًا لنجاح العمل القيميّ ومتابعته من كلّ أطياف المجتمع، ولو سلم من بعض المآخذ لأكّد الفقهاء والخطباء والمؤرّخون والمربّون أنّ مثل هذه المسلسلات هي الفتح الإسلامي الجديد!! الذي يحمل في رسالتِه الدعوة للتوحيد، وعظمة الأخلاق، وتنمية المجتمعات ونهضتها.

ولعلّ حضور رجل المرحلة (أردوغان) وزوجته لمشاهدة المسلسل وقتَ إنتاجه يوصّل رسالة عن دورِ الجهاتِ العليا في دعْم مثل هذه الأعمال إذا أرادت أن تقدّم لأنفسها ووطنها عواملَ تساهم في البقاء والوحدة والمنعَة والصّلاح ومواجهة قوى الشر!

فالدّراما المبدعة المتميزة الهادفة تفعل في الأمم المعاصرة ما تفعله آلافُ الخطب والمناظرات والمحاضرات؛ حيث تتسلّل الأفكار والقيم إلى المشاهد من خلال المتعة والتسلية، ومن ثمّ تُبنى القناعات، وتزدهر الثقافات.

خامسًا: في مقال لـ يحيي العالم بعنوان (قيامة أرطغرل: وظيفة الدّراما في تشكيل الوعي بالتاريخ)، قال:[6]

الدّراما التركية تعكس حالة التعدّد بالمجتمع التركي، شأنها شأن كلّ العناصر المشكلة للميدان الثقافي؛ حيث الصّراع بارزٌ على أرضيّة الهوية بين العمق الإسلامي والهوى الغربي، بين أعمال تصلُ تركيا الحديثة بجذورها العثمانية وعمقها الحضاري الإسلامي - الشرق-، وأخرى محكومة بنمطٍ قيميّ يستند إلى الخلفية العلمانية حيث أقبلت تركيا الحديثة بمنطق القوّة والقسر والإخضاع مع مؤسّسها أتاتورك على النموذج الغربي في نمط الحياة الاجتماعية والثقافية والقيم النّاظمة لها، وأصبح هذا النّموذج تتمّ رعايته من خلال الدولة بمختلف مؤسّساتها الأمنية والقضائية والعسكرية، وتلك العلاقات بين المال والقضاء والسّياسة والأمن التي تأسّست وامتدّت وحاولت الحفاظ على مصالحها سيكون كذلك معرّضًا للنقد في أعمالٍ فنية أخرى، منها *القبضاي* الذي يعالج سؤالَ العدالة في حقبة السبعينيّات بتركيا، ومسلسل *وادي الذّئاب* الذي يعالج إرادةَ الاستقلال السياسي والحضاري لتركيا في العقديْن الأخيرين مع حزب العدالة والتنمية التركي.

العملُ الفني الرّائد الذي نقدّم له هنا مسلسلُ *قيامة أرطغرل*، غير مفصول عن طبيعة الصّراع على أرضية الهوية، وانبعاث الإمبراطورية العثمانية لتحمل لواء الفتح الإسلامي في لحظاتٍ من التاريخ عرفَ فيه العالمُ الإسلامي - بالمشرق العربي- حالةً من الشتات والأفول الحضاري بفعل الصّراع الداخلي بين أمراءَ أغْوتهم شهوةُ السّلطة والمال، وبفعل الضّربات الخارجية التي استغلّت حالة التشظّي المذكورة آنفًا بالحواضر الإسلامية الكبرى، وكانت الغزوات الصليبية وهجماتُ المغول حالةً فارقة امتدّ أثرها للبعد الحضاري حيث أعقبتِ الهجمات حالةً من الوهَن لن يكون ردّ الغزوات الصليبية كافيًا للنهوض من جديد، بل استتبعه انقسامٌ سياسيّ وتردٍّ شمل كلّ المستويات، سيسهم في الدّفع بولادة حركة جديدة في جسم الأمّة إذا توفّرت لها عصبيّة القبيلة وغذتها بقوة الفكرة الدينية الدافعة، والقبائل التركية التي ستعيد حالة الاستواء للعالم الإسلامي وتستجمع أطرافه فيما بعد، كان رموزٌ كثرٌ منّا تاريخيًّا على صلةٍ وطيدة واتصالٍ بمهد الخلافة الإسلامية بالشرق، استتبعه تأسيس الدولة السّلجوقية على هضبة الأناضول، وعلى أنقاضها وأنقاض دويلات العالم الإسلامي ستتأسّس الإمبراطورية العثمانية.

مسلسل قيامة أرطغرل التركي *التاريخي* الذي يعالج بواكيرَ قيام الخلافة العثمانية به سماتٌ ومميّزات فنيّة دالّة وقوية، فيها الكثيرُ من الإبداع، وتحقيب تاريخي دقيق لمرحلة ما قبل فتح القسطنطينية، ورصدٌ لحركية قائدِ قبيلة تجمّعت له عناصر تشكيل نواة دولة جديدة مهمّتها رفع الظلم ونشر العدل وإطلاق فتوحات جديدة ستصل في حقبٍ متأخّرة إلى قلب أوروبا. بطلُ العمل الفني *أرطغرل* والد عثمانِ الأوّل، وابن سليمان شاه، زعيم إحدى

قبائل التركمان الرّحّل، والعمل به أبعادٌ متعدّدة فيها الديني والتاريخي والثقافي، إنه أحد أهمّ الأعمال التي تعرضُ للتاريخ العثماني، وتحاول تجديد وصل تركيا الحديثة بتاريخها الماضي والأسس الهويّاتية والقيميّة والثقافية، التي جعلتْ من الأتراك فاعلين في مسرح التاريخ، وهو على خلاف في الرّؤية الناظمة له مع أعمالٍ فنية أخرى اعتبرها رئيس تركيا - أردوغان - وحزبه تسيء للتّاريخ العثمانّي والخلفاء العثمانيين الذي لم يتركوا صهوة جوادهم، وأقصد سليمان القانوني الذي عرض له مسلسل *حريم السلطان*، وبينما توجه أردوغان للقضاء لمحاولة إيقاف *حريم السلطان* نجده في مسلسل *قيامة أرطغرل* يزور مكانَ تمثيل السّلسلة الفنية برفقةِ زوجه وساسةٍ آخرين، ويستدعي ممثلين في المسلسل للمشاركة بذكرى فتح القسطنطينية بزيّهم العسكري العثماني.

وهذا يجلّي طبيعة أثر العمل الفنيّ المعروض حاليًا في تأكيد الخلفية الحضارية والانتماء الهويّاتي الذي يدافع عنه أردوغان وحزبُه وطيفٌ عريض من الأتراك، وهو دفاع بوسائط الثقافة والعمل الفني المبدع والخلاق، وليس بمجرّد الشعارات. إنّ الدافع الديني وقيم التزكية الرّوحية والإبداع الفني لا يتعارضان، تلك إحدى الخلاصات التي يمكن استخلاصها، فالإبداع والفن يعبّر عن روحه وفطرته، ولذلك لا يمكن للفن أن يكون موسومًا ببعض السّمات المغلوطة كما يحاول الكثير التحجّج بها، ويجلى البعد الديني التزكوي في شخصية ابن عربي *الصوفي* ودوره في الدّفع بحركية القبائل ووصلها بضرورة إحياء العالم الإسلامي هضبة الأناضول على قيم دينية لا تبلى، بل تحافظ على جذوتها في بناء الأمم والحضارات إذا وجدت مَن يفعلها، وابن عربي يحاول العملُ الفني تجسيد الدور الديني من خلاله للإمبراطورية العثمانية، وهو كذلك وصلٌ للحاضر الديني التركي الموسوم بمسحة التّصوف مع التاريخ، والحقيقة التاريخية أنّ ابن عربي عايش تلك اللحظة كما أنّه تنقّل طويلًا بالشّام الذي كان موطنًا لتلك القبائل الفاتحة.

وما يطرح بعض الاستشكال هو البعدُ السياسي في حركية ابن عربي، أما كلّ رؤية الزعيم الرّوحي فإنها تصدر عن مشكاةٍ معتدلة غير ما يتمّ به التجني عليه بين الكثير من المسلمين من خلال مطارحاتٍ في فكره لا تجد لها أثرًا في العمل الفني، وتلك سمةٌ للإبداع مع الرموز الفاعلة في التّاريخ استطاع العمل الفنيّ المبدع تجليتها بوضوح. مع متابعة العمل الفني تكون أمام جوانب أخرى متعلّقة بطبيعة الصراع داخل القصور والدسائس التي تحاك هنا وهناك وعامل الخيانة والولاءات، ودور القبيلة تاريخيًّا في تشكيل النظم السياسية، وكيف أنّ الدعوة الدّينية لمّا تتشكّل لها عصبية تتقوّى حسب المنظور الخلدوني، وفي الآن ذاته، كيف أسهم الدّين في نقل أممٍ من حالة القبيلة واللادولة والانقسام الاجتماعي والسياسي إلى حالة الدولةً والحضارة، وذلك هو تاريخُ أغلبيّة الدّول التي تعاقبت في التاريخ الإسلامي، حيث شكّل

الدّينُ الجديد بدايةَ فجرٍ جديد لدولٍ قامت على أنقاض قبائل ونقلت الناس من الشّتات إلى الوحدة، ومن الانقسام إلى الاتحاد، ومِن لا شيء إلى حضارةٍ لا تغرب عنها الشمس.

مَن يتابع مثلَ هذا العمل الفني من أبناء شمال إفريقيا وكلّ العالم العربي والإسلامي لا يمكن إلّا أن يحسّ بحالةٍ من الغبْنِ نتعرّض لها في التعرّف على تاريخنا الماضي والرموز التي صنعتْه، فكلّ السّينما العربية - إلّا بعض الاستثناءات في مراحل معينة - تعاني حالة من الشّرود في علاقتها بالتاريخ والأعمال الفنية التاريخية، وكأنّ هناك إرادة قاصدة في اغتصاب الذاكرة وتغييب رموزها الفاعلة الذين صنعوا مجدًا، ولم يكن همّهم بسط النفوذ أو التحكّم في رقاب النّاس بالسلطان، بقدر ما كانوا مهووسين بإقامة العدل ونشر الحقّ بين النّاس، وما السّلطان إلّا وسيلة.

إنّ مثل هذا العمل الفني الذي عرضنا له ببعض الإشارات وهو وغيره من الأعمال الرائدة التي أشرنا لها؛ تحقّق أكبرَ نسبِ المشاهدة من الجمهور التركي ذاته عكس الأعمال التي تتمّ دبْلجتها وعرضها في الإعلام العربي، فهي تنمّي وعي الإنسان وثقافته بعيدًا عن التزييف وتسطيح الوعي الذي ينشره إعلامنا الوطني وكلّ الإعلام العربي، والغريب أن أغلبية هذا الإعلام يقوم بدبلجة مسلسلات تركية وغيرها بالعشرات وبميزانيات طائلة، لكن أغلب تلك الأعمال المدبلجة فيها تناقضٌ جذري مع نظم القيم بالمجتمعات العربية والإسلامية، إلى جانب وسيلة الدبلجة بالدارجة لواقع ثقافي وأنماط علاقات وقيم مغايرة لما هو في مجتمعنا المغرب وباقي الدول العربية الإسلامية.

القسمُ الثّاني: من آراء المشاهدين

وعلى الرّغم ممّا امتلأتْ به وسائلُ التّواصل والسّوشيال ميديا من تعليقاتٍ وتحليلاتٍ للكثيرِ من المشاهدين والمتابعين للعمل؛ أكتفي هنا برأيَيْن فقط ممّا يمثّلان بعديْن هامّيْن - أحدهما تربوي والآخرُ فكري - ليعْكِسا مدى تأثّر وتفاعلَ وتأثّر المُشاهد بالعمل، ورؤيته له...

في رأي لـ علي القاضي، بعنوان: * قيامة أرطغرل*.. نظرة تربوية، يقول:

مِن خلال متابعتي وجدت أنّ به عددًا غيرَ قليل من القيم والمعتقدات، فالمسلسل تناول معانٍ رائعةً عديدة من الدين والعرف، والأروع أنّ هذه المعاني كانت في سياقِ الدّراما وليست تلقينًا، وهو ما يثبّتها في وجدان وعقول أولادنا. هذه الملاحظات يجب ألّا تمرّ على الآباء والمربّين مرورَ غير الكرام؛ بل يجب التّعليق عليها وتبنّيها داخل الأسرة، ولفْتُ نظر أولادنا إليها، **ومنها :**

١ - تقبيل يدي الوالدين، وإلقاء التحية حال الدّخول والانصراف، وهذا يغرس احترام الكبير وإنزاله منزلته.

٢ - تجمّع العائلة على مائدة طعامٍ واحدة، وتقسيم الخبز بينهم، وهذا يدعم قيمة وحدة الأسرة وترابطها.

٣ - الاستئذان قبل الدخول، والغيرة على الحرمات.

٤ - ترسيخ الشّورى، والأخذ بها، كما في مجلس أسياد القبيلة والذي من شأنه يشعر الابن بأنّه مقبول وله استقلالية في الرأي.

٥ - مشاهدة ومعاينة عاقبة الخائنين والظالمين ونصرة أهل الحقّ والمبادئ، وهزيمة الباطل مهْما تلوّن ومكر.

٦ - الاستشهاد من أحداث السيرة وأمثلة القرآن الكريم وتوظيفها في السّياق، وهذا يربط الابن بالمرجعية على مسار الحياة.

٧ - معاني العزّة والجرأة في الحقّ كما في مواقف سليمان شاه وأرطغرل، وهذا يقوّي شخصية الأبناء بتقديم النموذج حتّى وإنْ كانت تمثيلًا!

٨ - قوّة المرأة (الأمّ) وتأثيرها في الأسرة من تثبيت الزوج والأولاد في الحقّ ودعمهم، وهذه مفيدة للابنة لتكون صلبةً ومتماسكة ورزينة في زمن السّطحية والهزلية.

٩ - الحرص على مصلحة الأمّة بمجابهة الصليبيين تارة والمغول تارة لحماية الأوطان والقدس، وهذا يعزّز قيم الانتماء لدى أولادنا، وخاصّة المراهقين.

١٠ - المسلسل يقدّم نموذجًا للحكمة والشجاعة والعزة والكرامة في زمن عزّ في النموذج، وأولادنا يحتاجون أنْ يروا الأخلاق والفضائل متمثّلة ومُطبَقة أمامهم ليفهموها ويمثّلونها، وإلّا بقيت كلماتٍ في أسطر .

وفي رأي لخالد ماهر (بتصرف)، يقول:

يبدو أنّ صناعة رجال الدّولة واحدة في أنظمة الاستبداد مهما تغيّرت الأمكنة وتعدّدت الأزمنة، وإنّ صناعتهم لَتستهلك وقتًا وجهدًا وتكتيكًا، وذلك في سبيل إعدادهم لتحقيق غاياتِ صانعيهم من فتكٍ بالخصوم وتنكيلٍ بالمعارضين، وقد بدا ذلك جليًّا في تربية سعد الدين للمقاتل غون ألب، وتعهّده إيّاه بالرعاية بعد مقتل عائلته (في خضم معارك الدفاع عن الدولة)، ومن قبله تربيته لطبّاخ السّلطان، وسعيه لرفْع كليهما حتى يصبحا من أصحاب الحظوة والمكانة، انتظارًا لساعة الصفر الذي يتمّ استخدامهما فيها لتحقيق تلك الغايات الخبيثة.

غالبًا ما يلجأ المستبدّون لعمليات غسيل الأدمغة عند التعامل مع أذرعتهم التي يبطشون بها ويستندون إليها، وقد رأينا ذلك في تعامل سعد الدين مع غون ألب من خلال إقناعه بأنّ أرطغرل متمرد يسعى للخروج على الدولة،

ومن ثمّ فإنّ التخلص منه هو الترجمة الحقيقية لحبّ الدولة والإخلاص لها! وهنا يظهر دهاء سعد الدين الذي يعرف نفسية غون ألب جيدًا، ليحشوَ عقله بأوهامٍ وهواجسَ لا تمُتّ للواقع بصلة كي يوظفه فيما يريد.

ليس كلّ القتلة أو الظَلَمة يفعلون ما يفعلون لتحقيق منفعة شخصية من مالٍ أو نفوذ، فإنّ بعضهم مجرّد أدوات (بفعل عمليات غسيل الأدمغة) في يد مَن يستخدمونهم لتحقيق مآربهم، يضربون الدولة في مكْمن قوّتها وعزتها ظانّين بذلك أنّهم يحافظون عليها، يغتالون رجالها الأوفياء مبتغين بذلك نصرتها والتمكين لها.

قرار أرطغرل بالهجرة لمنطقة *سوغوت* تنفيذًا لأمر السلطان المغدور علاء الدين، ورغم الصعوبات التي تكتنف تلك المغامرة نظرًا لوقوع المنطقة المذكورة على الحدود مع البيزنطيين ممّا يشكل خطرًا مباشرًا على القبائل، إنما يعكس وضوحًا في الغاية وإيمانًا عميقًا بالقضية وإصرارًا على استكمال الطريق مهما كانت العقبات، كما أنّ ترحيب تورغوت وبامسي ومِن قبلهما الأم هايماه بذلك، إنّما يعكس وحدة في الفهم واتساقًا في المواقف يمثلان لا شكّ حالة نجاح لذلك الصف الفريد، مهّدت من بعد لأعظم انتصارات عرفها التّاريخ.

موقف أرطغرل في محاولته إنقاذ قلج أرسلان وأمّه إنفاذًا لوصية السلطان المغدور، ودون ابتغاء أدنى نفعٍ أو مصلحة، إنّما هو موقفٌ أخلاقيّ بامتياز يدعم فكرة القائد الفقيه والمحارب الداعية.

سكوت السّلطان الشابّ عن قَتَلة أبيه (خوفًا على أمه من الفضيحة)، جعلهم يستمرّون في فسادهم وإفسادهم حتى أنهم قتلوا زوجة السّلطان الثانية ووليّ عهده بدمٍ بارد، وهو ما سيؤدي حتمًا في النهاية إلى ضعف الدولة وسقوطها بعد ارتفاع وذبولها بعد ازدهار، فإنّ الظلم هو المُقوّض الأساسي لبنيان أقوى الدول وأعظم الحضارات.

من مهارات القائد الناجح توصيفه الدقيق للواقع من حوله، فلا يعيشُ في الأوهام ولا يُفرطُ في الخيالات، وقد رأينا كيف أن أرطغرل قد شخّص الواقع بدقة فاستشرف المستقبل بوضوح (رغم مرارته) حين قال: *إن الدولة السلجوقية ستسقط لا محالة، فقد استشرى الظلم في جنباتها وتمكن الطغاة من أركانها، وعلينا أن نتأهب للبديل*.

توفّرت لماريا كلّ أسباب الهداية فلم تهتدِ، بل خانت من أحسن إليها، وفي المقابل تحول آريس إلى أحمد رغم شدة المحنة وقسوة الظروف(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء).. لحظةٌ واحدة تلك التي احتاجها آريس ليتحوّل إلى أحمد، أمّا صياغته من جديد فتحتاج لا شكّ لوقتٍ أطول، وهو ما اجتهد أن يفعله الشيخ ابن عربي الذي علّمه الصلاة وتحدث معه حول

عددٍ من المعاني الهامة **والتي من أبرزها:**

أ - دموع الخشية تغسل القلب وتُنبتُ أزهاره.

ب - الذي يفتح باب الرحمات هو الله، أمّا الدعاة فإنما هم أسبابٌ وحسب.

ج - إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

د - طريقنا واحد وقلوبنا تلتقي دومًا وإن تباعدت الأجساد.

ه - الدّرب طويل والعقبات كثيرة، لكن سلوانا في ذلك أن المكافأة كبيرة.

قد أخذ أحمد قسطًا من الزّاد الروحاني لينطلق بعده في إنفاذ المهمة التي انتدبه لأجلها أرطغرل، فلا خير في علم لا يتبعه عمل، ثمّ سرعان ما سيعود لشيخه لأجل جرعة روحانية أخرى تعينه على مشاق الطريق، وذاك هو الأصل في حياة المؤمن.

***

2 جريدة الأمة الإلكترونية،

3 الورود الأول جاء على موقع مجلة المجتمع الإلكترونية، وذلك بتوقيع/ عائد الحلبي، بتاريخ ١٥ / ٣ / ٢٠١٧م، ثمّ تمّ العثور على نفس العنوان على موقع شاشة نت بتوقيع الدكتور محمد علي الصلابي، بتاريخ ١٧ / ٣ / ٢٠١٧م

4 هذه مقالة وردت إليّ بصورة شخصية من باب الصداقة الكريمة من الدكتور محمد عبد العاطي.

5 https://alomarey.net/article/٢٨٦

6 انظر: موقع إضاءات،

عثمان بن أرطغرل.. باعتباره شخصية مستقبليّة

وعلى الرّغم من أنّ شخصيّة عثمان في المسلسل لم تظهرْ إلّا في صورةِ صبيّ، ولم تتجاوزْ هذه المرحلة العمريّةً؛ إلّا إنّه من المهمّ هنا - حسبَ وجهة نظري - أنْ نُفردَ لها بالعرض؛ لتكونَ رابطًا أساسيًّا لما سيتمّ اسْتكمالُه دراميًّا فيما بعْدُ تحتَ عنوان *قيامة عثمان*.

ولِدَ عثمان بك عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م في مدينة سوغوت، ولا يوجد إجماعٌ بين المَصادرِ المُعاصرة على نسبِ عثمان الذي اشتهرَ بأنّه كان وفقًا للتّرتيب :أوغوز ثَمّ كوك ألب ثمّ قزل بوغا ثمّ قايا ألب ثمّ مير سليمان ألب ثمّ شاه ملك ثمّ كوندوز ألب ثمّ أرطغرل غازي ثمّ عثمان غازي.. خلَفَ والدَه وعمرُه ٢٤ عامًا. أطلِقَ عليه اسمُ *قرّه عثمان* - أي عثمان الأسود - أو فخر الدّين، أو معين الدّين، وخوطب حتّى وفاته بلقب الأمير - أي البك، وبعد وفاته أطلِقَ عليه لقبُ خان والسّلطان؛ لأنّه أصبح في أواخر أيّامه أميرَ الثّغور.[7]

تزوّج عثمان من ربيعة بالا خاتون، بنت العالم الشّيخ أده بالي؛ فزادَ نفوذُه وقوّته، وأنجبَ منها الأمير علاء الدّين حوالي ٦٨٨هـ /١٢٨٩م. أمّا أولادُه عدا أورخان وعلاء الدين، فهُم: فاطمة خاتون، صاوجي بك، ملك بك، خامن بك، بازارالي بك، جوبان بك.

كان عثمان كثيرًا ما يَسْتشيرُ الشّيخ أدّه بالي، والفقيه دورسون؛ وهُما من كبار العُلماء في عصره في أمور الغزْو وشئونِ الإدارة، ويطلبُ مشورتَهم فيما يتعلّق بتوافقِ سياساتِه مع الإسلام، وكان حريصًا تمامَ الحرص في العموم على حُكْم إمارته بما يتوافَقُ مع الشّريعة الإسلامية.

ولقد توحّد الغازون والألب جميعهم تحتَ راية عثمان غازي، القائد الأكثر نجاحًا بينهم، ولم يتوحّد تحت رايتِه المسلمون فقط؛ بل اللّوردات المسيحيّون الكبار في الأراضي المفتوحة، والذين كانوا يُعْرَفون بالتكفور.

وكرمزٍ للسّيادة العثمانية طبَعَ العثمانيّون على أعلامِهم ختمَ قايي) على شكلِ ثلاثة أسْهم وقوس) - وهو ما يذكّرنا بما كان يستعمله أبوه أرطغرل بعدما قابل شيوخَ اللحى البيضاء - كما صكّوه على عُمْلاتهم منذ بدايةِ إقامة دولتهم.

ذعرَ البيزنطيّون من قيام الغازي عثمان بفتحِ المُدن البيزنطيّة الموجودة قرب الحدود، الواحدة تلو الأخرى؛ لذا أرادوا اغتيالَه بترتيبِ مداهمةٍ لحفلة عرس، وقابل الغازي عثمانُ هذه المداهمةَ بمثْلها؛ ففتح عام ٦٩٨ / ١٢٩٩ *يارحصار* و*بلجيك*
ونقل مركز الإمارة إلى بلجيك، وقام بتزويج نيلوفر - واسمها الأصلي هو لوفوريا - بنت الوالي البيزنطي الذي كان السّببَ في الفتنة؛ من ابنِه أورخان.

لقد منح عثمان غازي وابنُه أورخان غازي أراضي للشّيخ أده بالي *أدب عالي*، والفقيه دورسون لإقامة مؤسّساتهم الدينية، وتقدّم سجلّات الدولة - أو ما يُعْرف بدفاتر التّحرير التي بقيتْ حتّى اليوم - دليلًا على أراضي الوقفِ الكثيرة التي منحها عثمان غازي وابنه أورخان.

وكان عثمان غازي قائدًا يهتمّ دائمًا بإمارته ورعاياه، عاش حياةً محترمة، كان يجدُ السّرورَ الكامل عندما يكون بين شعبه، أعطى اهتمامًا عظيمًا بالشّورى في أمور الدّولة، كان يطبّق القرارات التي تصدُرُ عن الهيئة الاستشارية.

لقد كان عثمان بك استراتيجيًّا بعيدَ النّظر؛ حيث وجّه فتوحاتِه إلى البيزنط باعتبار أنّ كلّ فتحٍ يناله منهم سيزيدُ من قوّته، ويشهد له أنْ تحاشى الصّدامَ والسيطرة على جيرانِه أمراء الأناضول المُحيطين به كإمارة جيرمان أوغلو، وجمهوية آخي، وإمارة جاندار أوغللري، وذلك على الرّغم من أنّ كلّ هذه المنطقة كانت تشكّل مجالًا ملائمًا للانتشار العثماني. ومن المُلْفت للنّظر أنّ فتوحات عثمان بك كانت ذاتَ أهدافٍ ومغزى، شمالًا وصل إلى الضّفة الشرقية من نهر سقاريا، واقترب كثيرًا إلى مدخل النهر أو البحر الأسود، وفي الغرب نفذَ إلى البحر حيث استولى من البيزنط على الضّفاف الجنوبية بحيرة *ايزنك*، وكذلك أخذ الضفافَ الشّرقية لبحيرة *اولوباد* ونفذَ إلى بحر مرمرة.[8]

مع التوسّع الإقليمي السّريع لإمارته، وتحديدًا في عام ١٢٩٩ منح عثمان غازي منطقة *يار حصار* لحسن ألبِ، ومنح أراضي إتيكول لتورغوت ألب.. وقد بلغت مساحة الإمارة التي تركها عثمان في ١٣٢٤م ١٦٠٠٠ كم، مع العلم أنّ والدَه أرطغرل كان قد ترك له ٤٨٠٠ كم فقط.[9]

وهنا يبرزُ سؤال: كيف برزتِ العُثمانية بين هذا العدد من المُقاطعات الحدودية؟ في حين أنّهم أصلًا كانوا يستجدونَ قطعةَ أرض تكون وطنًا لهم!!![10]

والجواب لسببين:

السّببُ الأوّل جغرافيّ - سياسيّ: وهو يدخل في إطار ضربات الحظّ الاستثنائية فقد أتاحت الظّروفُ لأرطغرل بك وطنًا في جنوب شرق بحر مرمرة، وكأنّه على مدخل البيزنط، وبذلك فقد كان أرطغرل بك أقربَ أمير من حدود البيزنط، ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديّين في مثل هذا الوضْع الخطير، وقد أوجب هذا على العثمانيّة أنْ تتّخذ الحذر الدّائم، وهو موقفٌ يبرّره أنّ اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضْعِها الجغرافي كان من النّاحية الجغرافية يسهّل من اكتساح غيرها من الإمارات.

السّببُ الثّاني: هو الخصائصُ الجسميّة والنفسية لأرطغرل بك ونسله، الذي جاء من أخلاط إلى دوماينج، ونحن لا نكادُ نجد لدى الإمارات التّركمانية في الأناضول الغربيّة عسكريًّا وإداريًّا داهيةً بالمعنى التّام عدا* آيدن أوغلو أومور

بك*، أمّا الآخرون فلا يزيدون على كوْنِهم قادةً يقومون بأداء واجباتهم على الوجه الأكمل، وعلى خلاف ذلك كان الوضعُ بالنّسبة للسلالةِ العثمانية؛ فقد أنجبت دهاةً مُتعاقبين، وكلّ حاكم اعتلى العرش تفوّق على مَن كان قبله بإمكاناته وخصائصه، كما تميّزوا بالقدرةِ على التّخطيط والحركات العسكريّة المحسوبة التي كانت تستهدف كلٌّ منها هدفًا معينًا، وأيضًا قاموا بتنظيم أنفسهم في تشكيلاتٍ جيّدة جدًّا، ولقّنوا رعاياهم الاعتمادَ الكبير على أنفسهم.

أسّس الغازي عثمان أرطغرل إمبراطوريّة على دعائمَ قوامُها الدين الإسلامي الحنيف والشّريعةُ السّمحاء،
وتوقير كلام الله عزّ وجلّ، إذْ صدرت الأوامر السّلطانية بتاريخ ٢٥ تموز يوليو عام ١٥١٨، بأنْ تتمّ قراءة القرآن الكريم بصورةٍ متواصلة دونَ توقّف من قِبَل أشخاص يمتلكون الصّوت الجميل. ولم تتوقّف القراءة لحظةً واحدة حتّى ٣/٣/١٩٢٤(تاريخ خلع السّلطان) أي أنّ القراءة استمرّت ٤٠٥ سنة و٧ أشهر و٩ أيام!! هذه القراءة المتواصلة للقرآن كانت تحدثُ في دائرة (خرقة السّعادة، وهي أحدُ أقسام قصر (طوب قابو) مقرّ الحكم.

وفي سنواتِ حياته الأخيرة، نصّب عثمان غازي ابنَه أورخان ليكون خليفتَه الفعلي عندما أقعده المرضُ عن إدارة شئون الحكم، وكان يتمنّى أنْ يحكم ابنَه دائمًا وفقًا للشّريعة الإسلامية، وأنْ يحمي رعاياه ويخدمَهم، وأن يظلّ عادلًا، ويروى أنّ عثمان كان يتطلّع إلى أنْ يسمعَ من أورخان غازي الأنباءَ السّارة بفتح بورصا، وبعد ذلك طلب أنْ يبنى قبرُه هناك، وفي عام ١٣٠٤ م توفّي بعدما خدم لمدّة سبعة وعشرينَ عامًا كزعيمٍ لقبيلة قايي.

لم يتركْ وراءه أكثرَ من قطعة قماش طولُها حوالي ستّة أقدام، كان يستعملها كعمامة، وسيفٍ أنيق، ورمحٍ، ودرعٍ، وبعضِ الخيول، وعدّةِ خِراف للذبح من أجل ضيوفه.

وصيّة عثمان إلى ابنه أورخان[11]:

يقول المجاهد عثمان في وصيّته لابنه أورخان، كأنّها وصية لقمان الحكيم لابنه:

*يا بني: إيّاك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله ربِ العالمين، وإذا واجهتك في الحكم مُعضلة فاتّخذ من مشورة علماء الدين موئلًا. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجند، ولا يغرنّك الشيطان بجندك وملكك، وإيّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني، إنك تعلم أنّ غايتنا هي إرضاء ربّ العالمين، وأن بالجهاد يعمّ نور ديننا كلّ الآفاق، فتحدث مرضاة الله جلّ جلاله. يا بني، لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل. يا بني، اعلم أنّ نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم؛ أمانة في

عنقك سيسألك الله عزّ وجلّ عنها. يا بني، إنني أنتقل إلى جوار ربي وأنا فخورٌ بك، بأنك ستكون عادلًا في الرعية، مجاهدًا في سبيل الله لنشر دين الإسلام. يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أدِمْ رعايتهم، وأكثر من تبْجيلهم، وانْزل على مشورتهم، فإنّهم لا يأمرون إلّا بالخير. يا بني: إيّاك أن تفعل أمرًا لا يرضي الله عزّ وجلّ. واعلم يا بني أنّ طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأنّ مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وإننا لسنا طلاب جاه ودنيا. يا بني، وصيتي لكم ولأبنائي وأصدقائي، أديموا علوّ الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، اخْدموا الإسلام دائمًا، لأنّ الله عزّ وجلّ قد وظّف عبدًا ضعيفًا مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومَن انحرف مِن سلالتي عن الحقّ والعدل حُرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر. يا بني، ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله جلّ جلاله، أسلّمك هذه الدولة وأستودعك المولى عزّ وجلّ، اعْدل في جميع شئونك*.

***

7 الدولة العثمانية المجهولة، الأستاذ د. أحمد آق كوندز، الأستاذ د. سعيد أوزتورك.

8 موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية (السياسي والعسكري والحضاري)، تأليف: يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، المجلد الأول، ص ٩٢

9 سلاطين الدولة العثمانية، تأليف صالح كولن، ترجمة منى جمال الدين، دار النيل.

10 المرجع السابق: ص ٩٠

11 وردت الوصية متفرقة في أكثر من مرجع، منها: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس. العثمانيون في التاريخ والحضارة، تأليف د. محمد حرب، دار القلم. جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبوغنيمة، دار الوفاء للنشر والتوزيع.

بين ابن عربي، وابن العربي

لعلّكم لاحظتم تكرارَ ظهور شخصيّة العالم الصوفي*ابن عربي*، فمَن يكون؟

وهل ابن العربي هو نفسه ابن عربي؟ أم هُما شخصان مختلفان؟ هل كلّ صوفي هو مالكي؟ أو هل كلّ مالكي هو صوفي؟

في التّاريخ الإسلامي، توجد شخصيّتان مختلفتان، تحملان اسمًا متشابهًا، يفرق بينهما بإضافة ألف ولام التّعريف لأحدهما.

نسبهما: كلاهما عربيّان، وكلاهما قحطانيّان (من قبائل قحطان اليمانية).

١ - ابن عربي: لقّبه الصوفية *الإمام الأكبر*، وهو المذكور في مسلسل قيامة أرطغرل. محيي الدّين بن عربي بن محمد بن علي بن محمد الطائي، قيل إنّ والدته كانت بربرية (أمازيغية)، أمّا والده فينتسب إلى *قبائل طيّئ العربية، التي كانت فروعها في الأندلس.. نسبة لقبيلة طيئ، واسمه جلهمة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، *قبائل طيئ تنتشر اليوم في العراق*.

٢ - أمّا ابن العربي: علّامة المالكية، كان قاضيًا وعالمًا، وهو أبو بكر بن العربي بن محمد بن عبد الله المعافري. ينتسب لقبائل معافر، إحدى قبائل سبأ اليمنية التي كانت لها فروع هاجرت للأندلس. وإليها ينتسب أيضًا السّلطان المنصور محمد بن أبي عامر، مؤسس الدولة العامرية في الأندلس.. نسبة إلى جدّ القبيلة المعافر، واسمه النّعمان بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. مازالت بعض فروع قبائل معافر تنتشر في محافظة تعز في اليمن.

- كلاهما ولدَ وترعْرَع في الأندلس، في فترةٍ قريبة من بعضهما. ولدَ ابن عربي الطائي (الصّوفي) في مدينة مرسية الأندلسية، بينما ولد ابن العربي المعافري (المالكي) في مدينة إشبيلية الأندلسية.

- كلاهما زار دمشق والمشرق العربي، ودرسا فيه، إلّا أنّ الثّاني *ابن العربي المالكي* عاد للأندلس ودفن فيها، بينما بقي الأول *ابن عربي الصوفي* في المشرق، وزار الأناضول (تركيا اليوم)، وتوفي في دمشق.

- كلاهما مشهوران تاريخيًّا، وأحدثا *تحوّلات فكرية كبيرة* في مجتمعهما.

... تعرّض الأوّل *ابن عربي* المذكور في مسلسل أرطغرل لانتقاداتٍ كثيرة في حياته، وصلت حدّ التكفير، كفّره بعض العلماء بسبب أفكاره الصوفية.. خصوصًا فيما يتعلّق بإيمانه بعقيدة الحلول ووحدة الوجود. كان يلقّبه الصوفية

بالإمام الأكبر، والكبريت الأحمر، وإمام العارفين.. ويقدّسونه كثيرًا، وأغلب الصوفية في العالم - عربًا وعجمًا - يستمدّون أفكارهم من كتبه، وتجد حتّى أشعارًا قديمة في الجزائر كانت تذْكره في الحوزات *أناشيد الصوفية ما بعد الصلاة*، هو صاحب كتاب *الفتوحات المكية*، **وصاحب المقولة الشّهيرة التي يكرّرها الصوفية :**

ما أحببتُكَ وحدِي، لكن أحببتُكَ وحدَك.

وصاحب القصيدة الشهيرة *أدينُ بدين الحبّ*، وقصائد كثيرة يتغنّى بها الصوفية.

... أمّا الثّاني *ابن العربي*، العلّامة الشيخ، فكان علامة عصره، بالإضافة أنّه كان قاضيًا، كتب كتبًا كثيرة حول الفقه المالكي، ورَدّ في كتبٍ أخرى على الكثيرِ من الطّوائف والفرق التي كانت في عصرِه، أشهرُها كتاب *العواصم من القواصم* عن الفتنة التي حصلتْ بين الصّحابة - رضي الله عنهم-، وكتاب *عارضة الأحوذي، شرح سنن التّرمذي* وكتاب *أحكام القرآن*، ولم يتعرّض للانتقاد في عصره، بل كان العلماء والسّلاطين يجلّون مقامَه، ويقدّمونه لعلمه.

.. لا علاقة لابنِ العربي المعافري المالكي بأرطغرل لعدّة أسبابٍ منها:

١ - توفّي القاضي أبو بكر ابن العربي عام ٥٤٣هـ، أي قبل ولادة أرطغرل بما لا يقلّ عن أربعين عامًا تقريبًا.

٢ - لا توجد في سيرته أنّه سافر إلى الأناضول أو حلب، حيث المناطق التي تدور فيها أحداث المسلسل.

٣ - لم يكنِ الإمام أبو بكر صوفيًّا، ولم تكنْ له شطحات مثل المذكورة في المسلسل.. بل كان مشهورًا أنّه علّامة *المالكية* في الأندلس، ومشهور في كتبه أنّه ردّ على الصوفية.

إذًا، ابن عربي المقصود في مسلسل أرطغرل هو الطائي الصّوفي.. وليس ابن العربي المعافري، من قبيلة معافر العربية، القاضي الأندلسي العلّامة المالكي.

***

سلاطينُ الدّولة العثمانية12

تمهيد:

كانت غاراتُ الغزو على الأناضول قد بدأت في سنة ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨م، ودامت إلى سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤٠م، ولكن لم يكن لذلك أهميّة تاريخيّة؛ إذ كانت مجرّد غاراتٍ استطلاعيّة، ولكنّ المعارك الممتدّة فيما بين تأسيس إمبراطوريّة السلاجقة ومعركة *مانزكرت* هي التي لعبت دورًا حاسمًا في انتزاع البلاد وتحطيم المقاومة البيزنطيّة وتمهيد الطريق لاستقرار التّرك في الأناضول.

كانت إحدى المشكلات التي تحتّم على الإمبراطوريّة السلجوقيّة معالجتها منذ تأسيسها هي إيجاد الأرض وموارد الرزق للعددِ الكبير من المهاجرين التّركمان، وقد فكّر سلاطين السلاجقة العظام أمثال: طغرل بيك[13] (٤٢٩هـ - ٤٥٥هـ/ ١٠٣٨-١٠٦٣م) وألب أرسلان (٤٥٥هـ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣-١٠٧٢م) وملكشاه (٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) في تهديد التّركمان للقانون والنّظام بإرسالهم الغارات على الأناضول، ولكنّهم أيضًا لم يمنعوهم من نهب الأقاليم الإسلاميّة، بل زوّدوهم بالقوّة للعمل ضدّ ممتلكات الإمبراطوريّة البيزنطيّة، سيّما وأنّ ذلك يكفلُ لهم سبل العيش.[14]

مِن هنا ارتبطَ بدءُ تاريخ الدّولة العثمانية بوجود دولة السّلاجقة في الأناضول سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م بعد خمس وثلاثين سنة على تأسيس إمبراطورية السّلاجقة الكبرى في إيران - والتي كانت في ١٠٤٠م - وقد جاءت هذه الحادثة بعد نصر *مانذكرت* ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م، والذي أدّى إلى هجرةٍ كبرى من قِبَل السّكان الترك.

وقد وضعَ السّلطان السّلجوقي *علاء الدين كيكباد* حجرَ الزّاوية في تأسيس الدولة العثمانية بمنحه أرطغرل أراضي على الحدود البيزنطيّة مكافأة لخدماته في إحدى معارك السّلطان، الذي بمجرّد انتصاره أعلن نفسَه ملكًا لحلب والشام الأيوبيّيْن، ولكنّه مات مسمومًا وعمره ٤٥ عامًا، ولم يفلح السّلاجقة بعد ذلك،
وبدأ الانحطاط في فترةٍ غيرِ متوقّعة أبدًا، مع مجيء ابنه الذي خلَفَه غياث الدين كيخسرو (١٢٣٧ - ١٢٤٦)؛ ممّا جعل أرطغرل يفكّر في الاستقلال بإمارته.[15]

والمعروف أنّ عشيرة قايي قد سكنتْ في المراعي المجاورة لأخلاط، وأنّ هناك أحجارًا وقبورًا لأجداد بني عثمان الذين هُم أمراء (بكات) عشائر قايي.

لقد جلسَ على عرش الخاقانية[16] في الدولة التركية الأساسية ١٨٢ خاقانًا تركيًّا، وهم ينقسمون إلى ١١ سلالة حاكمة تنحدر من سلالة آجينا أومته، وهم:

- الهون (٣٩ خاقان): ٢٦٥ ق.م - ٢١٦ ب.م = ٤٨١ سنة.
- التاربغاج (١٦ خاقان): ٢١٦ - ٣٩٤ = ١٧٨ سنة.
- الأفاريون (١٣ خاقان): ٣٩٤ - ٥٥٢ = ١٥٨ سنة.
- كوكترك (٢٧ خاقان): ٥٥٢ - ٧٤٥ = ١٣٩ سنة.
- اويغر (١٤ خاقان): ٧٤٥ - ٨٤٨ = ١٠٣ سنة.
- القره خانيون (١٠ خاقانات): ٨٤٨ - ١٠٤٠ = ١٩٢ سنة.
- بني سلجوق (٢٠ خاقان): ١٠٤٠ - ١٣٠٨ = ٢٦٨ سنة.
- الايلخانيون (٢ خاقان): ١٣٠٨ - ١٣٣٥ = ٢٧ سنة.
- جغتاي (٧ خاقانات): ١٣٣٥ - ١٣٧٠ = ٣٥ سنة.
- بني تيمور (٣ خاقانات): ١٣٧٠ - ١٤٤٧ = ٧٧ سنة.
- بني عثمان (٣١ خاقان): ١٤٤٧ - ١٩٢٢ = ٤٧٥ سنة.

وكان الخاقانات حتى عام ٩٢٤ (أي ما قبل بني سلجوق) يدينون بدين *كوك تنرى*[17]، أمّا الذين بعد هذا التاريخ فهُم مسلمون سنيون حنفيون.[18]

ويمكن عرض سلاطين الدولة العثمانية كما يلي:

- عثمان ١٢٩٩
- أورخان ١٣٢٦
- مراد الأوّل ١٣٦٠
- بايزيد الأوّل ١٣٨٩ - ١٤٠٢م
- محمد الأوّل ١٤٠٢ - ١٤٢١م
- مراد الثّاني ١٤٢١ - ١٤٥١م
- محمد الثّاني ١٤٥١ - ١٤٨١م
- بايزيد الثّاني ١٤٨١ - ١٥١٢م
- سليم الأوّل ١٥١٢ - ١٥٢٠م
- سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦م
- سليمان الثّاني ١٥٦٦ - ١٥٧٤م
- مراد الثّالث ١٥٧٤ - ١٥٩٥م

- محمد الثّالث ١٥٩٥ - ١٦٠٣م
- أحمد الأوّل ١٦٠٣ - ١٦١٧م
- مصطفى الأوّل ١٦١٧ - ١٦١٨م
- عثمان الثّاني ١٦١٨ - ١٦٢٢م
- مراد الرّابع ١٦٢٣ - ١٦٤٠م
- إبراهيم ١٦٤٠ - ١٦٤٨م
- محمد الرّابع ١٦٤٨ - ١٦٨٧م
- سليمان الثّاني ١٦٨٧ - ١٦٩١م
- أحمد الثّاني ١٦٩١ - ١٦٩٥م
- مصطفى الثّاني ١٦٩٥ - ١٧٠٣م
- أحمد الثّالث ١٧٠٣ - ١٧٣٠م
- محمود الأوّل ١٧٣٠ - ١٧٥٤م
- عثمان الثّالث ١٧٥٤ - ١٧٥٧م
- مصطفى الثّالث ١٧٥٧ - ١٧٧٤م
- عبد الحميد الأوّل ١٧٧٤ - ١٧٨٩م
- سليم الثّالث ١٧٨٩ - ١٨٠٥م
- مصطفى الرّابع ١٨٠٥ - ١٨٠٨م
- محمود الثّاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩م
- عبد المجيد ١٨٣٩ - ١٨٦١م
- عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م
- عبد الحميد الثّاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩م
- محمد الخامس (رشاد) ١٩٠٩ - ١٩١٧م
- محمد السّادس (وحيد الدين) ١٩١٨ - ١٩٢٢م
- عبد المجيد الثّاني (خليفة) ١٩٢٢

***

12 انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ١٤٠٦هـ. وانظر: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، أكمل الدين إحسان أوغلو، الجزء الأول. وانظر أيضًا: الصّرّة الهمايونيّة، الدكتور محمد حرب، طبعة مركز التاريخ العربي، القاهرة، ٢٠١٩

13 وهو شخصيّةٌ أخرى بخلاف الغازي أرطغرل والدِ الغازي عثمان.

14 انظر: الأناضول في عهد السّلاجقة والإمارات التّركمانية، د. عثمان توران ، ترجمة: د. علي بن محمد الغامدي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ٧ : ٨.

15 انظر: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية (السياسي والعسكري والحضاري)، تأليف: يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، المجلد الأول، ص ٧٣

16 كلمة خاقان تعني الإمبراطور أو السلطان.

17 كوك تنرى: ديانة قديمة ليس لها نبيّ، ولا كتاب مقدّس، ولا معبد، ولا عبادة منظّمة؛ لها معبودٌ واحد كوك تنكري، وهو ربّ الأتراك فقط، وليس ربًّا للعالمين. انظر: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية (السياسي والعسكري والحضاري)، تأليف: يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، المجلد الأول، ص ١٧

18 انظر : المرجع السابق: ص ٢٣ : ٢٤.

الخاتمة

* وهكذا سيظلّ الفنّ الهادف/ الرسالي/ القيمي؛ علامةً بارزةً في تاريخ التذوّق البشري بأكمله، أيًّا كان جنسُه أو موطنه أو لغتُه؛ ممّا يبثّ الأمل، ويجدّد الثقة؛ أنّ هذه الأمة لن تعدَمَ ثوابتها، ولن تندثرَ قيمُها ولا قيمتُها..

* وهكذا سيظلّ الفنّ رسالةً عابرةً للقارات، وقوّةً ناعمةً تدير وعيَ وذوقَ الشعوب، فتنهضُ بعدَ رقود، وتنتعشُ بعد ركود، وتستيقظُ بعد سبات، و....

*وهكذا سيظلّ المشاهدُ المثقف الواعي - بإقباله على كل عملٍ يحترمه - يتطلّع لما يخرجه من دوّامة إحباطاته ويأسِه، ويتشبّثُ بأيّ بارقةٍ بطولةٍ حتى وإن كثُرت حولها الأقاويل، وبدتْ فيها ملاحظاتٌ فنيّة وتاريخية؛ ولكنّها يكفيها فخرًا إظهارُ عوار الفنّ الحالي والمنتشر برذائله ومجونه وتدليسِه.

***

المراجع

١ - تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ترجمة عدنان محمود سليمان، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ١٩٨٨

٢ - تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس.

٣ - السلاطين الأوائل، عصر تأسيس الدولة العثمانية، إعداد حسين جوكتشة، صالح كولن، لطيف جنتش، ترجمة أ.د. سمير عباس زهران.

٤ - سلاطين الدولة العثمانية، تأليف صالح كولن، ترجمة منى جمال الدين، دار النيل.

٥ - الدولة العثمانية المجهولة، الأستاذ د. أحمد آق كوندز، الأستاذ د. سعيد أوزتورك.

٦ - العثمانيون في التاريخ والحضارة، تأليف د. محمد حرب، دار القلم.

٧ - في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق.

٨ - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، أكمل الدين إحسان أوغلو، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول، ١٩٩٩

٩ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أستاذ دكتور: عبد العزيز محمد الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠

١٠ - تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، د. خليل اينالجيك، ترجمة د. محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢

١١ - استراتيجية الاتصال الثقافي في دراما المسلسلات التليفزيونية العربية، نموذج اليمن - الجزائرخ - مصر - سورية، رسالة ماجستير مقدمة من إسماعيل عبد الحافظ العبسي، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، ٢٠١٢

١٢ - الفن والمجتمع، تأليف: هربرت ريد، ترجمة: فتح الباب عبد الحليم، مطبعة شباب محمد.

١٣ - الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية، د. عثمان توران، ترجمة: د. علي بن محمد عوده الغامدي، ١٩٧٩

١٤ - موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية (السياسي والعسكري والحضاري)، تأليف: يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، المجلد الأول.

١٥ - جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبوغنيمة، دار الوفاء للنشر والتوزيع.

***